

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

هيميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الإباضي المصعبي

الجزء الثامن

القسم الأول

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م




بسم الله الرحمن الرحيم



القطعة الثامنة من التفسير الكبير المسمى « هيميان الزاد إلى دار المعاد » هو للشيخ العالم الفقيـه ، الجبهذة النبيه ، الـذى بلغ مـن العلوم فى زمانه مالم يلحقه فيها أحد من أقرانه ، من العلوم النقلية ، والمواهب العقلية •

الشيخ محمد بن يوسف الوهبى الأباضى السجينى المصعبى ، فإنه قد أتى فيه بالعجب العجاب ، من كل معنى مستطاب ، من النكت الأدبية ، والمعانى العربية ، لا سيما وقد أظهر فيه عقائد أهل الاستقامة ، مؤيداً لها على أهل الزيغ بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، من الكتاب والسنة ، وإجماع المحقين من الأمة ، كافأه الله تعالى عن الإسلام وأهله بنعمه الوافرة ، وآلائه المتواترة فى الدنيا والآخرة آمين •



بسم الله الرحمن الرحيم

قد أوقف سيدنا ومولانا الأجل الأكرم المحترم ، المعظم الهمام ، على بن سعيد بن سلطان بن الإمام ، جميع الكتب المطبوعة من « هيميان الزاد إلى دار المعاد » أولها وآخرها ، على طلبة العلم المتعلمين والراغبين فيه ، المجتهدين ابتغاء مـا عند الله تعالى من الثواب ، وهربا من أليم العقاب ، وأنه قد أخذ عهد الله وميثاقه ، على من صار فى يده شيء من هذه الكتب ، أن لا يبيعها ولا يهبها ، ولا يرهنها ولا يتملكها ، وأن لا يمنعها من كان مستحقا للقراءة منها ، وأن لا يعطيها من هو غير مأمون عليه خوفا من ضياعها .

وإن احتاجت إلى إصلاح فليصلحها من صار فى يده ، وأجره على الله تعالى ، وقفا مؤبدا صحيحا شرعيا ، لا يحال ولا يزال ، ولا تباع هـذه الكتب ، ولا تورث ولا توهب ، ولا ترهن ولا تملك حتى يـرث الأرض وارثها ، أشهد الله تعالى على ذلك وكافة المسلمين ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم .

وكتب هذا عن أمره خادمه الفقير الله يحيى بن خلفان بن أبى نبهان الخروصى بيده فى ٣٠ شوال سنة ١٣٠٧ .

صحح ذلك السيد على بن سعيد



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس

مكية كلها ، وقيل : « إلا فإن كنت فى شك » الآيتين ، وعليه مقاتل وعنه إلا قوله : « قل بفضل الله » الآيتين ، وعن ابن عباس ، وقتادة : إلا « فإن كنت فى شك » الآيات الثلاث ، وعن ابن عباس ، والكلبى : إلا « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به » الآية ، نزلت فى اليهود .

وقيل : من أولها إلى رأس أربعين آية مكى ، والباقى مدنى ، ذكره السخاوى ، وعن عطاء ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن السورة مدنية ، وآيها مائة وتسع أو عشر آيات ، وكلمها ألف وثمانمائة واثنان وثلاثون كلمة ، وحروفها تسعة آلاف ، وتسعة وستون .

وفى الحديث : « من قرأ سورة يونس أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذبه ، وبعدد من غرق مع فرعون » .

قالوا : تكتب فى طشت نحاس ، وتمحى بماء يخطف بسرعة من الماء الراكد ، ويعجن به دقيق على أسماء المتهمين بالسرقة ، ويكسر كِسَراً بعددهم ، ويؤمرون بأكلها ولا يستطيع الفاعل الأكل .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الۤر) قال ابن عباس ، وعلى ، وسالم بن عبد الله ،وابن جبير ، والشعبى : معناه أنا الرحمن ، وعنهم أنه حروف مقطعة ، وعن ابن عباس : أنا الله أرى ، وعن قتادة : اسم للقرآن ، وقيل : اسم للسورة ، وتقدم كلام فى ذلك .

وأمال نافع الراء ، ليدل على أنها اسم للحرف لا حرف بنفسها ، فالاسم راء بالمد أو بالقصر ، والمسمى وهو الحرف نفسه ، والقياس أن لا تمال ، وقد روى عدم المد عنه ، واختلف القراء أيضا ، والمشهور أن ابن كثير ، وقالون ، وحفصا لا يميلون ، والباقون يميلون ، وقيل : عن ورش بين بين ، وقيل : لم يمل نافع وابن كثير وحفص ، وأمال الباقون إجراءها مجرى الألف المنقلبة عن الياء .

ومن صام الأيام البيض من شعبان ، وأفطر على خل وبقل ، وخبز شعير وملح جريش ، واستقبل القبلة ، وذكر الله ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه ، إلى أن يصلى العشاء ، ويسبح ويقدس ، ثم يكتب « الۤر » إلى « أفلا تذكرون » فى قرطاس بماء ورد وزعفران ، ويضعه تحت رأسه وينام ، وإذا صلى الصبح حمل الكتاب وخرج إلى الناس ، ارتفع قدره ، وعلا شأنه ، وسدد ونطق بالحكمة ، وكان مهيبا مقبولا مطاعا .

(تِلْكَ) إشارة إلى آيات السورة قبل نزولها ، كأنها حاضرة مشاهدة ، ولذلك إشارة بإشارة البعيد ، وقيل : هو بمعنى هذه ، وقيل :

إشارة إلى آيات القرآن ، وقيل : إلى ما نزل منه قبل ذلك ، وعد الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ، ولا تغيره الدهور ، فذكر الله أنه هو هذا ما بين ما نزل وما ينزل ، أو هذه منه ، وقيل : إشارة إلى آيات الكتب المتقدمة ، كالتوراة والإنجيل ، ويضعفه أنه لم يتقدم لها ذكر •

(آياتُ الكِتابِ) القرآن أو السورة (الحَكيمِ) أى ذى الحكمة ، نسب إلى الحكمة لاشتماله عليها ، فذلك على النسب ، أو شبه الكتاب بالحكيم الناطق بحكمته ، على طريق الاستعارة المكنية ، والقرينة إثبات الحكمة ،أو أسند الحكمة إليه تجوزاً كقولك : نهاره صائم ، وليله قائم ، أو الحكيم فعيل بمعنى اسم مفعول الرباعى ، أى محكم لا ينسخه كتاب ، وقيل : بمعنى فاعل ، لأنه يميز الحق من الباطل •

وعن ابن عباس : استبعد قريش والعرب أن يبعث الله رسولا من البشر ، قال الزجاج : حتى قال بعضهم : أما وجد الله من يبعث إلا يتيم أبى طالب ، أو عجبوا من إخباره بالبعث الذى تضمنته النذارة والبشارة فنزل •

(أكَانَ) استفهام إنكار وتوبيخ (للنَّاسِ) قريش والعرب ، أو أهل مكة ، اللام للبيان ، تبين أن العجب لهم علقها بعضهم بقوله : (عَجباً) لأنه لا ينحل هنا إلى فعل وحرف مصدر ، فلم يضر تقديم معمول المصدر على المصدر ، ولأن المعمول ظرف وعلقها بعض بمحذوف حال من « عَجباً » ولو كان نكرة لتقدم ، والمسوغ بالاستفهام ، وعلقه بعض بكان وهو أولى ، والصحيح جواز التعليق بالفعل الناقص ، وعجباً خبر كان

مقدم ، والعجب حالة تعترى الإنسان عند الجهل بسبب الشىء (أنْ أَوْحَيْنا) اسم كان فى التأويل ، ويجوز كونه اسمها ، وللناس خبرها ، وعجباً حال من ضمير الاستقرار فى قوله : « للناس » ، ويفيد الخبر الفائدة الكاملة بهذه الحال ، وقرأ ابن مسعود برفع عجب ، وكذا فى مصحفه على الأخبار بالمعروفة عن النكرة ، إذ عجب اسم كان ، وإن أوحينا فى التأويل خبرها ، والتقدير فى جاءنا وهو معرفة ، وهم حكموا بأن حرف المصدر ومدخوله فى حكم الضمير ، أو على أنه بدل من عجب بالرفع ، وكان تامة ، وعجب فاعلها ، أو ناقصة فخبرها للناس ، وإنما قال : « للناس » ولم يقل : عند الناس ، والله أعلم ، ليدل على أنهم جعلوه أعجوبة لهم فيوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم .

(إلى رَجُلٍ) وقرىء بإسكان الجيم مع فتح الراء (مِنْهم) من العرب أو من قريش ، أو أهل مكة ، أو الناس من سائرهم لا ممن له شرف بمال وجاه ، وذلك من عظم جهلهم ، إذ كونه بشراً أليق من كونه ملكاً ، وكونه لا مال له ولا جاه هو أعون شىء فى أداء الرسالة ، بحيث لا يشغله مال عن أدائها ، ولا يمنعه تعلق جاء به ، ولا عجب فى ذلك ، وإنما العجب فى تعطيل العقاب والثواب .

(أنْ) مفسرة أو مصدرية ، وعليها فالمصدر مفعول لأوحينا (أنْذِرِ النَّاسَ) خوفهم بالعقاب إن أصروا على الكفر أو المعصية مطلقاً ، ولذلك عمم ، إذ ما من أحد إلا وفيه ما ينبغى أن ينذر عنه .

(وبَشِّر الَّذينَ آمنُوا) أخبرهم إختاراً ساراً (أنَّ) أى بأن (لَهم قَدمَ صِدْقٍ) أى عملا صالحاً مقبولا لصدقهم فيه ، وإخلاصهم

إياه ، وسمى قدماً لأن به وصولهم إلى الدرجات العلى ، كما أن الإنسان يتوصل بقدمه إلى المكان الذى ليس فيه ، وسميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وبإعلان صاحبها يبوء بها ، أى يمد ، وأضيف للصدق لصدقهم فيه ، وإخلاصهم ، أو أراد بالقدم الثواب على أعمالهم تشبيهاً لغويا بالشىء ناله الإنسان بالسعى إليه بقدمه ، فسمى باسم آلته ، أو سابقة سعادة ومنزلة رفيعة ، أو مرته صلى الله عليه وسلم كما ورد : « أنا فرطكم على الحوض » أو الشفاعة ، فيجوز أن تكون التسمية بالقدم لقدومهم على ذلك بالموت ، وأن تكون الإضافة أو الصدق لتحقق ذلك لهم ، أو لمجرد المدح .

(عِندَ ربِّهِم) ناهيك بما هو عند الله محفوظاً (قالَ الكَافِرُونَ) وقال الطبرى جواب للما محذوفاً ، أى لما أنذر وبشر قال الكافرون ا هـ ، ويجوز أن يقدر : قال الكافرون عند إنذاره وتبشيره ، قيل : وأن يكون تفسيرا لقوله : « أكان للناس عجباً » على معنى أنهم مالوا عن ذلك العجب ، ويجوز أن يكون مستأنف كلام .

(إنَّ هذا) أى القرآن أو الوحى مطلقا (لسَحرٌ مُبينٌ) بين ، قالوا ذلك لأنهم رأوا منه ما فرق كلمتهم ، وحال بين القريب وقريبه ، خوارق عادة تعجزهم عن المعارضة ، فقولهم ذلك متضمن لاعترافهم بالعجز ، أو لأنهم يرون نحو البعث مما يخبرهم مضمحلا لا يثبت كالسحر ، وقرأ ابن كثير ، والكوفيون ، ومسروق ، وابن جبير ، وابن مسعود ، ومجاهد وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى بن عمرو ، وابن كثير : بخلاف عنهما ، وابن محيصن : لساحر بالألف على أن الإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما على القراءة الأولى فلا تصح الإشارة إليه إلا على

المبالغة ، أو بالتأويل بالوصف ، أو بتقدير مضاف ، وعن الأعمش : ما هذا إلا ساحر مبين ، وفى مصحف أبىّ : ما هذا إلا سحر مبين .

(إنّ ربّكُم اللهُ الذِى خَلَقَ السَّموات والأرْضَ فى ستّة أيّام) أى فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، لا فى الستة حقيقة ، لأنه لا نهار ، ولا ليل ، ولا شمس ، ولا قمر حينئذ ، ومعنى ما ورد أن الله خلق يوم الأحد كذا ، ويوم الاثنين كذا ، أنه خلق ذلك فى أوقات تجىء الأيام إذا خلقت على مقدارها وترتيبها ، واشتهر أن بدء الخلق يوم الأحد ، وروى يوم السبت ، وعلة ذلك التراخى تعليم التأنى فى الأمر ، وقيل : لا يوصل إلى علة ذلك كخلق الأجنة فى البطون ، وخلق الثمار ، وقيل : المراد ستة أيام من أيام الآخرة .

(ثمّ اسْتَوى عَلى العَرْش) أى استولى عليه ، بأن أوجده بعد إيجاد السموات والأرض ، وإن قلنا قبله ، فالترتيب ذكرى ، والتراخى باعتبار عظمة العرش عليهن أو بُعْده عنهن .

(يُدبِّر الأمْرَ) أى يقدره فى الوجود على ما اقتضت حكمته ، وسبق به قضاؤه ، وينزله من العرش كمن ينظر فى أدبار الأمور لتجىء عاقبتها محمودة ، ويجوز أن يكون استواؤه على العرش كناية عن أنه مالك للأشياء ، متصرف بها بحكمة ، فيكون قوله : « يدبر الأمر » بياناً له ، وأجاز بعض أن يكون الأمر بمعنى مقابل النهى ، وتدبيره إنفاذه .

(مَا مِنْ) صلة للتأكيد (شَفيعٍ إلا مِنْ بَعْد إذْنه) رد على من أثبت شفاعة الأصنام ، كيف تشفع الأصنام التى هى لا فضيلة فيها

من عقل أو عبادة أو غيرها ، عند من هو الحكيم بالحقيقة ، الذى من عظم شأنه خلق السموات والأرض والعرش مع اتساعها ، وعدم خروج أمر من الأمور عن تدبيره .

(ذَلكمُ) الموصوف بالخلق والاستواء والتدبير ، وقص الشفاعة على أهلها ، وهن صفات ألوهية وربوبية (الله ربكُم) بدل أو خبر ثان (فاعْبدُوه) أطيعوه ، أو وحدوه ، فإنه المستحق لذلك ، إذ لا يشاركه أحد فى صفة أو فعل أو ذات ، فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع (أفلا تَذَكَّرون) ولو أدنى تذكر ، فتعرفوا أنه المستحق للألوهية دون خلقه من ملك وإنسان وجماد .

(إليْهِ) لا إلى غيره (مَرجِعكُم) أى رجوعكم بالبعث بعد الموت ، فاستعدوا له (جَميعاً) حال من المضاف إليه ، لأن المضاف صالح للعمل ، وهو مرجع لأنه مصدر ، ولو كان لا ينصب المفعول به لأنه ميمى .

(وَعْدَ الله) مفعول مطلق لفعله المحذوف وجوبا ، مؤكدا للوعد الذى أفادته الجملة قبله ، نحو : له على ألف اعترافاً (حَقّاً) مفعول مطلق لفعله المحذوف ، مؤكد لما دل عليه وعد الله من الحقيقة ، ويقال الأول إنه مؤكد لنفسه ، لأن قوله : « إليه مرجعكم » فهو نفس الوعد ، والثانى مؤكد لغيره ، فإن قوله : « وعد الله » ليس نفس قوله : « حقا » بل مستلزم له ، أو حقا حال من وعد الله ، وقال أبو الفتح : نعت ، ووجهه عندى أن المنعوت ولو كان معرفة لفظا لكنه فى الحقيقة نكرة ، لأن الأصل وعد الله ذلك وعداً ، ولما حذف العامل أضيف المصدر إلى ما هو فاعله .

(إنَّهُ) كالتعليل الجملى لقوله : « إليه مرجعكم » فإنه إنما كان مرجع الجميع إليه ، لأنه المقصود من البدء ، والإعادة الجزاء ، أو ذلك قطع واستئناف ، ويدل للتعليل قراءة أبى جعفر ، والأعمش ، وابن مسعود : بفتح الهمزة على التعليل اللفظى ، إلا من أدى ، أى لأنه يجوز أن يكون الفتح على أن المصدر من خبر إن مفعول لعاقل ، وعد الله المحذوف ، أى وعد الله وعد البدء ، والعامل حقا ، أى حق الله حقا البدء من حق المتعدى ، أو أحق الله بتعديته بالهمزة ، أو عن البدلية من وعد الله ، أو الفاعلية لناصب حقا ، أى حق حقا البدء من حق اللازم ، قيل : أو الخبرية لمبتدأ ناصب لوعد الله ، أى وعد الله وعداً بإسكان العين البدء ، ويجوز نصبه بوعد الله إذا لم يوصف بحقا .

وقرىء : وعد الله بالفعل والفاعل ، فحقاً مفعول وعد ، والمصدر من خبر إن مفعول ، وقرأ ابن أبى عبلة برفع حق على الابتداء ، وفتح همزة إن عن الإخبار ، وكذا قيل ، والحق عندى العكس .

(يَبْدأ) من البداءة ، وقرأ طلحة يُبدى بضم الباء وكسر الدال ، من أبدأ بهمزة أولا وآخراً (الخَلْق ثم يُعيدُه) أى يبعثه بعد بلاء (ليجْزِىَ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات بالقِسْطِ) أى بعدله لا ينقص من أجورهم شيئاً ، أو بعدلهم فى أمورهم أو بإيمانهم ، فإنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم" عظيم ، هو الأنسب لذكر الجزاء بالكفر فى قوله :

(والذين كَفرُوا) أى أشركوا (لَهم شَراب") عظيم فى الشدة كما يدل عليه التنكير (مِنْ حَميمٍ) أى من ماء بلغ النهاية فى الحرارة ،

إذ أدناه الكافرين من فيه سقطت فروة رأسه ، فعيل بمعنى فاعل ، وقيل ، بمعنى مفعول ، وأنه يقال : حمه يحمه بمعنى سخنه •

(وعَذابٌ أليمٌ بما كانُوا) أى بكونهم (يكْفرُونَ) أو بكفرهم الذى كانوا يكفرونه ، فإن المراد جزاؤهم بشركهم ، والأصل بما كانوا يظلمون ، وهو لظم الشرك ، ولكن عبر بيكفرون ، لأن الكلام قبل ذلك وبعده فى الاستدلال على التوحيد ، وإنكار الشرك ، بل الأصل أيضا ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، ليناسب قوله : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » ولكن عدل عن ذلك مبالغة فى استحقاق العقاب ، وتنبيها على أن المقصود بالذات من البدء والإعادة هو الإثابة ، وأما العقاب فعارض عن عدم الائتمار والانتهاء ، وأنه يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلفظه وكرمه ، ولذا لم يعينه ، وأمـا عقاب الكفرة فكأنه داء ساقوه بكفرهم إلى أنفسهم فعينه •

(هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً) أى ذات ضياء ، أو سماها ضياء مبالغة وهو مصدر ضاء يضىء ، كقام يقوم قياما ، أو جمع ضوء كسوط وسياط ، قلبت الواو ياء لتقدم الكسرة عليها ، وقرأ ابن كثير فى رواية قنبل هنا ، وفى الأنبياء والقصص : ضئاء بهمزة قبل الألف وأخرى بعدها ، ووجهه أنه قلب الكلمة قلبا مكانياً فكانت الهمزة هى التى لام الكلمة قبل الألف فى موضع العين ، والباء التى هى بدل من عين الكلمة التى هى الواو بعد الألف ، فلما تطرفت بعد ألف زائد قلبت همزة ، كذا يظهر لى فى توجيه هذه القراءة ، ثم رأيت بعضه لبعض والحمد لله •

وقيل : أخر الواو عن الألف وقلبها همـزة ، وقيل : قلبت همزة

لوقوعها بين ألفين : ألف الضياء ، والألف المبدل عن التنوين فى الوقف وهو ضعيف ، وقال الفارسى : هذه القراءة غلط .

(والقَمَرَ نُوراً) أى ذا نور ، أو سماه نوراً مبالغة ، والضياء أقوى من النور ، ولذلك نسب الضياء للشمس ، والنور للقمر ، وإنما وصف الله نفسه بالنور فى قوله : « الله نور السموات والأرض » لأنه شبه هداه الذى يهتدى به قوم ، ويضل عنه آخرون بالنور فى الليل ، ولو شبهه بالضياء لكان مقتضاه أن لا يضل عنه أحد ، إذ كان كالشمس ، وقيل : النور أعم ، وقيل : الضياء نفس الشىء الذى له شعاع ، كجرم الشمس ، وجرم النار ، والنور الشعاع الواقع بالعَرَض على نحو الأرض والجبل ، وعلى جرم القمر ، فإن جرمه لا شعاع له ، وإنما شعاعه واقع عليه من الشمس ، فالآية كالدليل على أن نوره بالعرض لا بالذات ، والحق عندى أن الشعاع عَرَض لا جسم .

(وقَدَّرَهُ) أى قدر القمر (مَنازِلَ) أى ذا منازل ، فمنازل حال ، أو مفعول ثان على تضمين قدر معنى صيراً أو قدر له منازل ، فحذف الجار ، أو قدر مسير منازل ، على أن المسير اسم مكان السير لا مصدر ، والمنازل ظرف كذا قيل ، ويرده أن المنازل لا ينصب على الظرفية إلا بعامل من لفظه ومعناه ، كرميت مرمى زيد ، وقعدت مقعده ، لأنه ظرف ميمى ، وأما أن يجعل المنازل مصدراً ميميا فلا يزول الإشكال به ، لأنه كما لم يكن القمر نفس المنازل ، لم يكن السير نفسها .

وخص القمر بذكر تقدير المنازل ، مع أن الشمس مقدرة كذلك ، ومنازلهما واحدة ، لسرعة مسيره ومعاينة منازله ، وإناطة أحكام الشرع

به ، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين ، فإن الشهور المعتبرة فى الشرع مبنية على رؤية الأهلة ، والمعتبر فيه السنة القمرية ، وهى التى تعرفها العرب ، ويجرى حسابهم على ذلك ، ولذلك علله بقوله :

(لتعْلَموا عَددَ السِّنينَ و) تعلموا (الحِسابَ) حساب الشهور والأيام ، والليالى والساعات ، ونقصها وزيدها أو الهاء للكل ، أى قدر كلا من الشمس والقمر منازل ، أو للمذكور وهو الشمس والقمر ، قيل : أو أريدا معاً ، لكن اجتزىء بذكر واحد ، والمنازل ثمانية وعشرون منزلا ، فى ثمان وعشرين ليلة من كل شهر ، ويستتر القمر ليلتين إن كان الشهر من ثلاثين ، وليلة إن كان من تسعة وعشرين ، وتأتى فى سورة يسٓ إن شاء الله تعالى .

(ما خَلَقَ الله ذَلكَ) المذكور (إلا بالحقِّ) إلا ملتبساً بالحق ، مراعيا فيه مقتضى الحكمة البالغة ، كإظهار الدلائل على قدرته ووحدانيته ، والرفق بكم فى معاملتكم وتصرفاتكم (نُفصِّلُ) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، وعاصم فى رواية حفص بالمثناة من تحت ، وروى بالنون عن ابن كثير وعاصم أيضاً (الآياتِ) نبينها (لقَومٍ يعْلمُونَ) خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها .

(إنَّ فى اخْتِلافِ اللَّيل والنَّهار) بالذهاب والمجىء ، والزيادة والنقصان (وما خَلَقَ اللهُ فى السَّموات) من شمس وقمر ونجوم ، وملائكة وغير ذلك (والأرضِ) من حيوان وجبال ، وبحار وأنهار وأشجار ، وغير ذلك (لآياتٍ) دلائل على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه ،

وقدرته (لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) يحذرون العواقب ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون •

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) أى لا يطمعون أن يلقونا على خيرٍ وثواب لإنكارهم البعث ، فهم لا يعلمون ليصلوا الخير والثواب ، وهذا أولى من تفسير الرجاء بالخوف أو التوقع •

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) من الآخرة فهم فى طلبها معرضين عن الآخرة لإنكارهم إياها (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها ، فبنوا شديداً ، وأملوا بعيداً ، أو سكنوا إليها ، وقصروا هممهم على لذائذها وزخارفها •

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) لا يتفكرون فيها ، لانهماكهم فيما يضادها ، والآية دالة على التوحيد كلها ، وعن ابن عباس : محمد والقرآن ، والعطف من عطف الصفة على أخرى لموصوف واحد ، كقولك : جاء زيد الكريم والعالم ، تريد جاء زيد الذى هو كريم عالم ، فيكون ذلك وعيداً على الجمع بين إنكار البعث والانهماك فى الشهوات ، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم ، وبين الإعراض عن الآيات أصلا ، أو من عطف ذات على أخرى ، فالأولون من أنكروا البعث ، والآخرون من آمن به ، وألهاه أمر الدنيا عن التفكر فى الآيات والاستعداد له •

(أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من كفر ومعاص •

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أكثر ما ذكر فيه الثواب على الإيمان فى القرآن ، مقرون باشتراط العمل الصالح ، ومتى

لم يقرن به حمل على الموضع المقرون به ، فلا ينفع إيمان بلا عمل ، فانظر يا أخى لنفسك .

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ) إلى سبيل يوصلهم إلى الجنة بإيمانهم ، بسبب إيمانهم الخالص المذكور ، مقرونا بالعمل الصالح ، فالإضافة للعهد الذكرى أو يهديهم يوم القيامة بنور إيمانهم ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة رجل حسن ويكون له نوراً يقوده إلى الجنة عكس الكافر » رواه الحسن ، وقيل : يهديهم بثيبهم ، وأجيز أن يكون المعنى يهديهم لإدراك الحقائق كقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم أو لمـا يريدونه فى الجنة » .

(تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهارُ) استئناف كالبيان على التفسير الأول ، فإن التمسك بما يوصل إلى الجنة كالوصول إليها ، أو خبر ثان ، أو حال من هاء يهديهم على التفسير الأخير (فى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) متعلق بتجرى ، أو خبر آخر ، أو حال من هاء يهديهم أيضا أو من الأنهار .

(دَعْوَاهُمْ) أى دعاؤهم قاله سيبويه ، وقيل : كلامهم ، وقيل : طلبهم لما يشتهون (فيها سُبْحانكَ اللَّهم) أى نزّهناك يا ألله عن كل سوء تنزيها .

روى أن أهل الجنة إذا اشتهوا الطعام قالوا : سـبحانك اللهم فتأتيهم الخدم بما يشتهون على الموائد ، كل مائدة ميل فى ميل ، على كلمائدة

سبعون ألف صحيفة ، فى كل صحيفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً ، قيل ذلك علامة بينهم وبين الخدم .

روى أنهم يقولون ذلك على طائر ما أرادوا ، فيحضر على حال يردونها وفوقها ، ويخرج طعامهم جشاء وعرقاً ، يفوحان كالمسك ، ويجوز أن يراد بدعواهم عبادتهم كما قال : « ادعوه » بمعنى اعبدوه ، كأنه قيل : عبادتهم فيها سبحانك اللهم ، كقوله : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء » أى قولهم ذلك كالعبادة ، وليس بعبادة تكليف ، ولا تكليف فى الجنة ، بل يلهمون التسبيح والحمد ، كما يلهمون النفس ، وفى ذلك كمال لذاتهم وسرورهم .

(وتحيَّتهُم) فيما بينهم ، أو تحية الملائكة ، أو الله بواسطة الملائكة لهم ، فعلى الأول الإضافة إضافة مصدر لفاعله أو مفعوله ، وعلى الثانى والثالث إضافة مصدر لمفعوله ، والتحية مأخوذة من معنى الحياة والدعاء بها (فِيها سَلامٌ) هو من السلامة مما يكرهون ، أى يقول بعض لبعض ، أو يقال لهم سلام عليكم .

(وآخرُ دَعْواهم أن الحمْدُ لله ربِّ العَالمينَ) يلهمون ذلك إلهاماً كما مر ، أو إذا قالوا : سبحانك اللهم أتى بما يشتهون ، وإذا أكلوا حمدوا الله فيرفع الطعام ، وعن الزجاج : يبتدىء أهل الجنة بتعظيم الله وتنزيهه ، ويختمون بالثناء عليه والشكر ، وقيل : يفتتحون كلامهم بالتسبيح ، ويختمونه بالحمد ، أو إذا دخلوها وعاينوا عظمة الله سبحانه وتعالى نعتوه بنعت الجلال ، ثم تحييهم الملائكة أو الله بالسلامة عن الآفات ، والفوز بالكرامات ، فيثنون عليه بصفات الإكرام ، وأن مخففة

من الثقيلة ، وقد قرأ ابن محيصن ، ويعقوب ، وأبو حيوة بالتشديد ، ونصب الحمد وهى دليل على أنها مخففة فى قراءة الجمهور ، وليست مفسرة لعدم تقدم الجملة ، ولو تقدم معنى القول وهو آخر دعواهم ، فإن الدعوة قول ، وآخر القول قول .

(ولو يُعجِّل اللهُ للنَّاس الشرَّ) كالفقر والمرض والموت (استِعْجالهم بالخَيْر) أى تعجيلا مثل استعجالهم ، أى مناسبا لاستعجالهم بمعنى تعجيلا آتيا على مقتضى استعجالهم بالخير ، ومقتضاه التعجيل ، وإلا فالاستعجال غير التعجيل بل طلب العجلة ، وذلك أنهم يحبون العجلة بالخير ، ويكرهون الشر ، وقد استوجبوه بأعمالهم ، فأملهم الله رفقا ولطفاً ، هذا ما ظهر لى فى إعراب الآية ومعناها ، ولك أن تقول : استعجالهم بالخير سبب وملزوم فى الجملة للتعجيل به ، فوضع موضع التعجيل ، فكأنه قيل : تعجيلا مثل تعجيلهم ، وفيه إشارة إلى سرعة إجابته حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل به لهم .

وأما على قول ابن عباس ، وقتادة أن ذلك فى دعاء الإنسان عند الغضب على نفسه وأهله وماله بالشر ، وقول بعض : إنه فى قولهم : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » وقول بعض إنه فى قولهم : « إيتنا بما تعدنا » ونحو ذلك ، فالتقدير ولو يعجل الله للناس الشر حين استعجلوه استعجالا مثل استعجالهم بالخير ، فحذف عامل المصدر وغيره للدلالة عليه ، ويجوز الوجه الأول أيضا فى هذه الأقوال .

(لقُضِىَ إلَيهمْ أجلُهم) وصل إليهم أجل الموت فيموتوا ، فإن الموت من جملة الشر ، وقرأ ابن عامر ، ويعقوب ، وعيسى بن عمرو بالبناء للفاعل وهو الله ، ونصب الأجل كما قرأ ابن مسعود لقضينا إليهم أجلهم ، وفى الحديث : « لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعو به ، فإن أحدكم إذا مات انقطع عمله ، وإن أحدكم يزداد فى أجله خيرا ، ويجوز أن يقول : اللهم أمتنى إذا كان الموت خيراً لى » وفى الحديث : « اللهم أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة يقرب بها إليك وكفارة له يوم القيامة » .

(فنَذرُ) عطف على حرف النفى ومنفيه محذوفين مدلولا عليهما بلو ، فإنها امتناعية ، والامتناع نفى ، والتقدير لا نفعل ذلك فنذر (الّذينَ) موضوع موضع الضمير تقبيحا لهم بصنته ، على أن المراد بالناس الكفار فقط ، وإلا فالظاهر على أصله ، وقرأ الأعمش فذر (لا يرْجُون لقاءنا فى طُغْيانهم يعْمهُون) يترددون إمهالا واستدراجا .

(وإذ مسَّ الإنسانَ) الكافر ، أو الإنسان مطلقا فإن الإنسان مطلقا لا تكون حاله بعد زوال ما مسه من ضر ، مثل حاله قبل الزوال فى التضرع والابتهال ، إلا من شاء الله ، فقد يديم الدعاء ، ولو قبل المس أو بعده ، ويرضى بالقضاء ، وقد يكون البلاء عنده أحب .

(الضُّرُّ) كمرض وجوع وشدة ، وهو عام ، وقيل : مختص بالبدن كالهزال والمرض والجرح ، والعام الضرر .

من كتب : « وإذا مس » إلى : « لو كانوا يعلمون » فى فخارة طرية نظيفة ، وملأها زيت طيب ، ومحاها به وغلاه على النار اللينة ، ودهن بـــه ما أوجعه من جنب أو ساق أو قدم ، برىء إن شاء الله تعالى .

(دَعانا لجنْبهِ) متعلق بحال محذوفة جوازاً أى مضجعاً على جنبه ، فاللام بمعنى على ، أو الأصل ملقى لجنبه وإلقاؤه جنبه اضـــطجاعه (أو قاعِداً) عطف على تلك الحـــال المحذوفة (أو قائماً) وصـــاحب الحال الضمير المستتر فى دعاه ، والمراد بتلك الأحوال تعميم الدعاء بأى حال كان لا يفتر حتى يزول الضر ، أو أراد أنـــه يدعونا حـــال كونه مضطجعا عند مس الضر ، أو قاعدا ، أو قائما ، وأجاز الزجاج أن يكون صاحب الحال الإنسان ، فالمعنى أنه إذا مس الإنسان الضر حال اضطجاعه أو قعوده أو قيامه وهو ضعيف لمجيئه بعد الجواب ، وأجاز جار الله أن يكون ذلك بيانا لأحوال المضرورين ، أى منهم من هو أشد وهو صاحب الفراش ، ومن هو أخف وهو القادر على القعود ، ومن يستطيع القيام ، وكل لا يستغنون عن الدعاء ، وصاحب الحال على هذا ضمير دعا .

(فلمَّا كشفنا عنْه ضُرَّه مَرَّ) مضى على حاله قبل مس الضر من الكفر ، أو من عدم التضرع والابتهال ، ونسى حال الشدة ، أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع عنهم ، كأنه لا عهد له به (كأنْ لَم يدْعنَا) هى كان المشددة ، خففت وحذف اسمها ضمير الشأن ، أو ضمير الإنسان ، والأول أكثر وأشهر (إلى ضُرٍّ مَسَّه) أى إلى كشف ضر ماس لـــه .

(كَذلكَ زُيِّن) المزين الشيطان لعنه الله بوسوسته ، أو الله تعالى بخذلانه (للمسْرِفينَ) أى مثل ذلك التزيين للإنسان زين للمسرفين ،

أى المشركين أو الكافرين مطلقا ، والإسراف الانهماك فى الشهوات ، والإعراض عن العبادات ، وإنفاق المال حيث لا يحل كإنفاقه فى الزنى ، والمزمار ، والبحائر ، والسوائب ، والأصنام وخدمتها ، بل الإسراف كتضييع النفس بفعل ما يهلكها ، أو أراد الإنسان وعبر عنه بالظاهر ذماً بالإسراف وجمع لأنه الجنس .

(ما كانُوا يَعْملونَ) وهو ما ذكرنا أنه هو الإسراف ، كما تقول : أهلك الفاسق زناه ، وتريد بفسقه الزنى .

(ولقَدْ أهْلكنا القُرونَ مِنْ قبْلكُم) يا أهل مكة (لمّا ظَلَموا) أنفسهم بالشرك ، واستعمالها فى المهلكات (وجَاءتْهم رسُلُهم بالبيِّنات) الدلائل على صدقهم ، والواو عاطفة على ظلموا عطف سابق على لاحق ، أو يقدر وجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا بدليل ما بعد ، أو يعنى ما بعد عن التقدير ، فتكون لعطف لاحق على سابق ، أو هى للحال على تقدير قد ، ولم يشترط البصريون تقديرها .

(وما كانُوا ليؤمِنُوا) بهم لفساد قلوبهم وخذلانهم ، وسبق الشقاوة فأهلكوا بتكذيبهم حين لا حكمة فى إبقائهم ، وذلك مستأنف أو عطف على ظلموا ، أو جاءتهم رسلهم ، أو حال من هاء جاءتهم ، وعلى الاستئناف وهو معترض بين كذلك وأهلكنا .

(كَذلكَ) أى مثل ذلك الإهلاك ، فإنه جزاء على تكذيبهم ، أو قدر مثل ذلك الجزاء وهو الإهلاك فى مقابلة التكذيب (نَجْزى) وقرىء يجزى بالمثناة التحتية (القَوم المجْرمينَ) أى قوم كانوا ، فاحذروا

يا أهل مكة أن تكونوا منهم ، أو نجزيكم يا أهل مكة لتكذيبكم كمن قبلكم ، فوضع الظاهر موضع المضمر إعلاما بكمال جرمهم ، وأنهم فيه مشاهير .

(ثم جَعَلْنَاكم) عطف على أهلكنا ، والخطاب لأهل مكة أو للعموم (خَلائِفَ فى الأرْض مِنْ بَعْدهم) اختباراً لكم (لننْظُر) أى نعلم علما ، كما يعاين أحدكم الشىء ببصره فيعلمه ، وذلك إشارة إلى إظهار غاية العدل إذ كان يعامل العباد معاملة من كان يطلب العلم بما عملوا ، مع أن علمه أزلى عام لا يزيد ولا ينقص ، وقيل لنبين فى الوجود ، وقرأ يحيى بن الحارث لنظر بادغام النون الثانى فى الظاء ، وقال : إنه رآها كذلك فى مصحف عثمان .

(كَيفَ) حال من الواو بعدها ، وفيها دلالـــة على أن المعتبر فى الجزاء حالة الفعل وكيفيته ، لا هو من حيث ذاته ، ولذلك ترى الفعل الواحد يحسن تارة ويقبح أخرى ، ويحسن فى حق إنسان ويقبح فى حق آخر (تعْلمُون) فتجازوا عليه خيراً أو شراً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا حلوة خضراء وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » أى احذروا فتنة الدنيا والنساء ، وجملة تعملون مفعول ننظر ، وعلقه عن العمل اسم الاستفهام وهو كيف ، ومعنى تعليقه هنا تعطيله عن نصب المفرد ، مع أنه الأصل إلى نصب محل الجملة ، وليست كيف مفعول به للنظر ، لأن لها الصدر بل لم تكن مفعولا به فى كلام العرب قط .

(وإذا تُتلَى عَلَيْهم) أى على المشركين ، أو على الناس مطلقا (آياتُنا) القرآن (مبينَاتٍ) حال (قالَ الذينَ لا يرْجُون لقاءنَا)

قالوا أى المشركون ، فوضع الظاهر موضع الضمير على الوجه الأول ، أو قال مشركو الناس على الوجه الثانى ، وكان هذا القول متكرراً منهم حقيقة ، أو قالوه مرة ، وكانوا بعدم توبتهم وبإصرارهم على مـا يتضمن ذلك القول كمكرريه •

(ائتِ) من الله ويقرأ ورش : « لقاءنا ائت » بمد نون لقاءنا بألف يبدلها من ياء ائت المبدلة من الهمزة ، التى هى فاء الفعل وسقط ألف نا للألف المذكورة ، وأما همزة الوصـل فى ائتنا فلم تثبت ، لأن همزة الوصل لا تثبت فى الدرج ، فانظر قوله تعالى : « يا صالح ائتنا » فى الأعراف (بقُرآنٍ غَيْرِ هَذا) بحيث لا يكون فيه ما نستبعده كالبعث أو نكرهه كذم آلهتنـا ، والنهى عـن عبادتها ، والوعيد عـلى الشرك (أو بَدِّلْهُ) كله أو ما نكره ، أو نستبعد منه ، وآية عذاب أو تحريم بعكسها من تلقاء نفسك ، أو ائت بقرآن من تلقاء نفسك ، أو بدل بعضه ، قال ذلك مشركو العرب ، وعبارة بعض : مشركو مكة ، وعبارة بعض : عبد الله بن أمية المخزومى ، والوليد بن المغيرة ، ومكرز بن حفص ، وعمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامرى ، والعاصى بن عامر بن هشام ، وقيل : الاثنى عشر المستهزئون ، قالوا : إن كنت تحب أن نؤمن بك فائت بقرآن ليس فيه ما يغيظنا ، قالوا ذلك استهزاءً وسخرية ، أو تلويحا بأن القرآن من كلامه حتى يمكن له تبديله ، فإنه إذا بدله ولو قال إنه مبدل من الله كالتصريح بأنه منه ، لأن كلام الله ليس متلاعباً به ، قابلا لطلب تبديله ، ويهلك الله من بدله فيستريحوا منه •

(قُلْ ما يكُونُ لى) وسكن الياء غير نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو (أن أبدِّلَه من تِلْقاء نفْسِى) تلقاء فى الأصل مصدر لقى بالتشديد ،

وقيل لقى بالتخفيف استعمل ظرفا بمعنى جهة مقابلة ، أى من جهة نفسى وكسر تائه شاذ ، وقرىء بفتحها وسكن غير نافع ، وأبى عمرو ياء نفسى ، وإنما اكتفى بالجواب على التبديله لاستلزام امتناع التبديل لبعضه من تلقاء نفسه امتناع تبدينه كله من تلقاء نفسه ، وهذا على التفسير الأخير فى « ائت بقرآن غير هذا أو بدله » .

وأما على الأول فإنما استغنى بالجواب على التبديل ، لأنه الممكن الجملة ، بخلاف الإتيان بقرآن آخر من الله ، فإنه ليس فى مقدور البشر ، زيدت الياء فى المصاحف بعد همزة تلقائى ، وعليها دائرة حمراء علامة لزيادتها فى الخط ، لأنه لا تسكن سكونا حيا بعد كسرة ، فبان بالدائرة أنها لا ينطق بها ، ولا يمد الصوت بها ، والهمزة قبلها لم توجد فى مصحف عثمان ، فلذلك تكتب بغير الأسود كما فى سائر مالم يوجد فيه ، وتلك الياء موجودة فيه ، هذا ما استقرت عليه كتبنا معشر المغاربة .

واختار أبو عمرو الدانى وغيره أن تلك الياء هى صورة الهمزة ، وعليه فتجعل الهمزة الصفراء عليها وحركتها تحتها ، وقيل : الياء حركة الهمزة ، وكانت العرب تصور الحركة حرفاً ، وقيل : صورة للكسرة ، فإنها من الياء فتدل الياء عليها ، ولأن الإعراب قد يكون بالياء ، وقيل : تسهيل ، وقيل : تمكين للحركة لئلا تختلس ، لكن بلا إشباع وقيل : بيان الهمزة وتقوية ، وكذا الكلام فى « إيتاء ذى القربى » « ومن وراء حجاب » ونحو ذلك .

(إنْ أتبعُ إلاَّ ما يُوحَى إلىَّ) تعليل جملى لقوله : « ما يكون

لى » لا تصرف لى فيه بالإتيان بغيره ، ولا بتديل بعضه ، ومالى إلا اتباع ما يوحى إلىّ ، فلا أنسخ منه إلا ما أنزل الله سبحانه وتعالى على نسخه وليس من كلامى كما تزعمون فأتصرف فيه ، بل وحى متبع .

(إنِّى) وسكن الياء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو (أخافُ إنْ عَصيتُ ربِّى) بتبديله كله أو بعضه (عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ) يوم القيامة ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وهذا دليل على أنهم لم يريدوا بكل من الإتيان والتبديل إتيانا وتبديلا من الله ، لأن هذا لا عذاب عليه ، ولا معصية فيه ، بل أرادوا إتياناً وتبديلا منك ، أو إتيانا من الله وتبديلا منك ، اللهم إلا أن يردوا كليهما من الله ، فيكون المراد إن عصيت ربى بطلبى إياه قرآنا آخر ، أو تبديل بعضه ، بل هذا أبلغ ، فإنه إذا كان ذلك معصية توجب عذابا ، فإقدامى على إتيان بآخر ، أو تبديل بعض أشد ، وعلى كل حال ففى الآية إشارة إلى أنهم أوجبوا لأنفسهم العذاب ، لأن طلب المعصية معصية ، قيل : ذلك منسوخ بقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

(قلْ لَو شاءَ اللهُ) غـير ذلك (ما تَلوتُه عَليْكُم) بأن لا ينزله علىّ ، والأمر بمشيئته ، ولا بمشيئتى ، فضلا عن أن أجعله كما تحبون ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أنزله على ما قدرت عليه ، فإنه عجيب خارق للعادة ، لا يستطيع مثله مخلوق ، ولا سيما أنى لم أعلم الكتابة ، ولم أشاهد العلماء ساعة من عمرى ، ولا نشأت فى بلد فيه علماء .

(ولا أدْراكُم) أعلمكم ولا نافية ، والألف ممالة ، وقرأ ورش بين بين ، وأخلص الفتح ابن كثير ، وقالون ، وحفص ، وهشام ، والنقاشى

عن الأخفش (بهِ) على لسانى ، وقرأ ابن كثير ولأدراكم بلام جواب لو ، وإسقاط الألف قبل الدال ، وذلك لما عطف علـى جواب لو صح قرنـه باللام ، لأنه كالجواب ، ومعناها التوكيد ، وكذا لام جواب لولا ، ولام جواب القسم ، ويفدن الربط مع ذلك أيضا ، والمعنى : ولأعلمكم به على لسان غيرى ، فإنه الحق الذى لا مفر منه ، لو لم أرسل بـه لأرسل به غيرى ، ولكن مَنّ الله علىّ به ، وذلك رواية النقاش ، عن أبى ربيعة ، عن البزى ، عن ابن كثير •

وقرأ ابن كثير مـن طريق آخر كالجمهور ، وقـرأ الحسن ، وابن سيرين ، وأبو رجاء ، ولا ادرأتكم به بهمزة ساكنة بعد الراء على لغة من يقلب الألف المبدلة من الياء فى الآخر ألفا ، قال أبو حاتم : هى لغة بنى الحارث بن كعب ، وعن قطـرب لغة عقيل ، قلت : هى لغة القبيلتين ، وقبائل من اليمن ، وتعضده قراءة ابن عباس ، وشهر بن حوشب ، ورويت تلك القرءاة عن ابن عباس أيضا : ولأنذرتكم به وروى الفراء ، ولا أدراكم به بهمزة مفتوحة بدون تاء على تلك اللغة ، وذلك أن الألف والهمزة من واد واحد ، ويجوز أن يكون الهمزة من درأ دفعه ، وأدخلت همزة التعدية أولا للبعدية ، يقال : أدراه إياه ، أى جعله دافعا له ، فتعدى بالهمزة إلى مفعول آخر ، أى ولاجعلتكم أو لأجعلكم خصـماء تدافعوننى •

(فَقَد لبثْتُ) وقرأ أبو عمرو لبث بالإدغام (فيكُم عمُراً) قطعة من عمرى ، أو زماناً مقدار عمر ، وقرىء بسكون الميم (مِنْ قَبْله) من قبل القرآن ، وذلك أنه لبث فيهم أربعين سنة لا يقول به ولا يتلوه ، ولا يتعاطى مثله ، ولا خطبة ولا رسالة (أفلا تَعْقلُون)

تدركون بعقولكم أنه من الله لا افتراء منى ، ولا مشيئة منى ، فإن فصاحته غلبت كل فصاحة ، وأعرب عن أقاصيص وأحاديث الأولين و لآخرين ، واحتوى على قواعد على الأصول والفروع ، مع بعدى عن مظان علم ذلك وتناوله ، ونشأتى بين أظهركم ، وعلمكم بحالى ، وإقراركم بأنى لا أكذب ، حتى سميت بينكم أميناً .

روى أنه كان يرى بمكة خمس عشرة سنة ، يرى الضوء وهو نور الملائكة ، أو نور آيات الله سبحانه وتعالى ، ويسمع الصوت وهو صوت الهاتف من الملائكة ، حتى تم أربعون عاماً رأى الملك عيانا يشافهه بالوحى من الله سبحانه وتعالى .

وروى أنه وكل به إسرافيل ثلاث سنين ، يترآى له ويأتيه بالكلمة من الوحى والشىء ، ثم جبريل عليه السلام ، فجاءه بالقرآن وأقام بمكة عشر سنين فى وحى جبريل والنظر إلى ثلاث السنين من إسرافيل ، يكون ذلك ثلاث عشرة ، وقيل : أقام بها بالوحى خمس عشرة سنة ، كأنه قرن به إسرافيل خمس سنين ، وأقام بالمدينة عشراً ، ومات ابن ثلاث وستين على الصحيح ، وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء .

(فَمَنْ أظْلم مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً) أى لا أحد أظلم منه ، فلو لم يكن القرآن من الله عز وجل لم يكن أحد أظلم منى لافترائى به عليه ، وذلك من جملة المقول ، أو مستأنف يفهم أنه لو لم يكن منه لم يكن أحد أظلم من محمد حاشاه ، أو المعنى أنه لا أظلم منكم حيث أثبتم الشركة والولد لله سبحانه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم برىء من الفرية ، ويقوى هذا المعنى قوله تعالى :

(أو كذَّبَ بآياتِهِ) القرآن ودلائل التوحيد (إنَّه) أى الشأن (لا يُفلح المجْرمونَ) المشركون .

(ويعْبدُونَ) أى كفار قريش والعرب (مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يضُرُّهم) إن لم يعبدوه (ولا ينْفَعهُم) إن عمدوه ، أو ما لا يضر ولا ينفع مطلقا ، وذلك لأنه جماد لا يقدر على نفع أو ضر كحجارة ونجم ، والشمس والقمر ، ولأنه مخلوق لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله كالملائكة ، وكان من العرب من يعبد الملائكة والشِّعرى ، كانت النصرانية فى ربيعة ، وغسان ، وبعض قضاعة ، واليهودية فى نمير ، وكنانة ، وبنى الحارث ابن كعب ، وكندة ، والمجوسية فى تميم ، منهم زرار بن عدى ، وابنه على وتزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس وتمجس ، والزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة ، وكان بنو حنيفة اتخذوا صنماً من حيس وعبدوه دهراً طويلا ، وأدركتهم مجاعة فأكلوه ، والمعبود من شأنه أن يثيب ويعاقب .

(ويقُولُون هؤلاء) إشارة إلى العقلاء وهم الملائكة ، وغير العقلاء وهو الأوثان ، وأصله للعقلاء ، ولكن ذلك تغليب ، وقيل : المراد بما لا يضرهم ولا ينفعهم الأوثان ، ولفظ هؤلاء قد يشار به إلى غير العقلاء ، ولا سيما إذا نزل منزلة العقلاء كما هنا ، قيل : كان أهل الطائف يعبدون اللات ، وحجابها بنو مغيث ، وأهل مكة العزى ، وحجابها بنو شيبة ، ومناة وهبل وأسافاً ونائلة .

وقيل : كانت العزى لقريش وكنانة ، ومناة للأوس والخزرج ومن

دان بدينهم ، وكانوا يقولون هؤلاء (شُفَعَاؤُنا عِنْدَ اللهِ) يوم القيامة ، وكانت قريش وغيرهم ربما تخيلت البعث أو المراد أنهم شفعاؤنا يوم القيامة إن كان البعث أمراً صحيحاً ، وعن الحسن : تشفع لهم فى زعمهم فى أمر الدنيا ، كقحط ومرض ، وكانوا أنكروا البعث ، والأول قول ابن عباس ، وابن جريج ، وذلك مع شدة بشاعته ، إنما يقوله نبلاؤهم ، وأما غيرهم فأشد ضلالة وتيهاً .

وانظر كيف يعبدون ما علموا قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع ، وعاينوه كذلك ، وطمعوا فى شفاعته ، وتركوا الخالق لكل شىء مع قطعهم بأنه الضار النافع ، وأنه مالك الأمر القابل للشفاعة ، أو المراد لها ، وذكر بعضهم أنهم توهموا أن عبادة الأوثان أشد فى تعظيم الله من عبادته ، وقالوا : ألسنا بأهل أن نعبد الله ، ولكن نشتغل بعبادتها فتشفع لنا عنده ، وعن النظر بن الحارث : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى .

(قُلْ أتنبئُونَ) أتخبرون ، وقرىء بإسكان النون وتخفيف الموحدة بعدها (اللهَ بما لا يعْلمُ) متعد لواحد ، أى بما لا يدركه ويخفى عنه وهو الشريك أو الشفيع ، وذلك نفى للملزوم ، وهو وجود الشريك بنفى اللازم ، وهو علم الله ، إذ لو كان لعلمه الله ، وإذا لم يكن معلماً له فليس بموجود ، لأنه العالم بالذات المحيط علمه بجميع الأشياء ، فقد تضمن الكلام أن هؤلاء ليسوا بشفعاء ولا بشركاء ، وجىء به على صورة وجود ذلك ، وعدم علم الله به تهكما بهم وتقريعا .

(فى السمواتِ ولا فى الأرْضِ) حال من الرابط المحذوف ، أى بما لا يعلمه ثابتا فى السموات ولا فى الأرض ، وفيه تأكيد للنفى ، فإن

ما يتأهل للعبادة إما سماوى ، وإما أرضى ، ولا موجود فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم ، لا يليق أن يشرك به ، وإنما لم جعل يعلم متعديا لاثنين ثانيهما فى السموات ، إذ ليس المراد العلم بأنه فيهما ، بل العلم بأنه موجود فافهم ، وقد يجوز أن يجعل متعديا لاثنين على الكناية بنفى الثانى عن نفى الأول ، كما رأيته فى وجه الحال .

(سُبْحانَهُ وتَعالى عمَّا يُشْرِكُونَ) ما مصدرية أى عن إشراكهم ، أو اسم أى عما يشركونه به ، وذلك استئناف ، وقرأ حمزة والكسائى ، وأبو عبد الرحمن ، هنا ، وفى موضعى النحل ، وفى النمل ، والروم ، تشركون بالفوقية ، وزعم أبو حاتم أن نافعا ، وابن كثير قرأ هنا وفى النمل بالفوقية ، وزعم أبو حاتم أن نافعاً ، وابن كثير قرأها ، وفى النمل بالفوقية وفى رواية والمشهور أنهما قرآ بالتحتية .

(وما كانَ النَّاسُ إلا أمةً واحِدةً) على الإسلام ، وذلك على عهد آدم عليه السلام (فاخْتَلفُوا) إسلاماً وكفراً حين قتل قابيل هابيل ظلماً ، وذلك أيضا على عهد آدم ، وقيل : كانوا أمة متفقة على الإسلام إلى زمان نوح عليه السلام ، فاختلفوا فبعثه الله تعالى ، ولا يرد على هذا ذكر قابيل ونحوه من الشواذ .

وقيل : المراد أنهم فى سفينة نوح ، وبعد الخروج منها أمة متفقة على الإسلام ، واختلفوا بعد ذلك ، وذكر بعضهم أن المراد أنهم العرب ، كانوا على الإسلام من لدن إبراهيم الخليل ، إلى أن غيره عمرو بن يحيى أبو خزاعة ، رحل إلى الشام ، فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فأعجبه ذلك فقال : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها ؟ قالوا : هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال أعطونى منها صنما

أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فنصبه بمكة ، وأمر بتعظيمه وعبادته .

وقيل : إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل ، كانوا لا يظعنون عن مكة فضاقت فتفرقوا فى البلاد ، وما ظعن منها أحد إلا حمل معه حجراً من الحرم تعظيماً له ، فحيث ما نزل وضعه وطاف بـــه كالكعبة ، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوا من الحجارة .

وقيل : المراد أنهم أمة واحدة ، حين خرجوا من ظهر آدم كالذر ، متفقون على الإسلام ، واختلفوا بعد ذلك فى أزمنتهم كفراً إيماناً ، وقيل : اتفاقهم على الإسلام حين ولادة كل ، فإن كل مولود قد ولد على الإسلام حتى يكون أبواه يعلمانه الضلال ، وقيل : المراد اتفاقهم على الكفر حتى بعث الله الرسل بعد الفترة ، فاختلفوا فبعض أصر على الكفر ، وبعض أسلم ، فلا تطمع يا محمد فى أن يكونوا كلهم مؤمنين ، فإنهم كانوا أولا على الكفر ، والإسلام حادث فيهم ، وهذا تسلية ، وهذا قول الحسن وطائفة ، وقيل : الأمة الواحدة آدم ، وقيل : آدم وحواء .

(ولَوْلا كَلمةٌ سبقَتْ) نعت لا خبر ، وأجاز بعضهم ذكر الخبر بعد لولا إذا كان كونا خاصا ، وحذفه إذا دل عليه دليل ، وأوجب ذكره إن لم يدل عليه ، فعلى هذا يجوز كون سبقت خبراً (مِنْ ربكَ) إن رحمتى سبقت غضبى ، أو إن الحكم بينهم يوم القيامة لا قبله ، أو إن الثواب والعقاب فيه لا قبله .

(لقُضِىَ بينَهُم) حكم بينهم فى الدنيا بإهلاك المبطل وإبقاء

الحق ، أو بإدخاله النار ، والمحق الجنة (فِيما فيهِ يخْتلفون) من الدين ، وقرأ عيسى بن عمرو لقضا بالألف بعد الضاد ، وفتح القاف والضاد .

(ويقولون لولا) هلا (أنزِلَ عليهِ) أى على محمد ، وساغ التذكير فى أنزل ، لأن التائب ظاهر مجازى التأنيث ، ولوجود الفاصل (آيةٌ مِنْ ربِّه) تلجىء الناس إلى الإيمان ، وما هذا عادة الله فى خلقه ، ولا بحكمة فى كل قوم على الإطلاق ، ولو كان ذلك فى قوم إنما هى آيات معرضات للإيمان ، يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر ، وكانوا لا يعتدون بآية القرآن ، تمرداً مع أنه آية بديعة معجزة ، لا يغيرها الدهر ، لم ينزل على نبى مثلها ، وقيل : أرادوا آية كعصى موسى ويده ، وناقة صالح ، ومائدة عيسى .

(فقل إنما الغيْبُ للهِ) لا لغيره ، فلا أدرى أينزلها أم لا ، وما علىَّ إلا البلاغ ، أو لعله ما فى نزولها علىَّ من المفسدة ، أو اقتضت حكمته أن الآية التى هى مثل ذلك إذا لم تؤمن بها الأمة عجل عذابها ، فلم ينزلها رحمة بكم ، وإبقاء عليكم .

(فانتظِرُوا) نزول ما أردتم نزوله (إنى معكُم مِنَ المنتَظِرينَ) لما يفعل بكم لعنادكم وجحودكم ، وإعراضكم عن هذه الآيات إلى غيرها ، وقد تبين لهم العجز عن مثل القرآن ، وعلموا ذلك ، ولكنهم يكابرون ويعاندون ، كقولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وصدق الله انتظاره صلى الله عليه وسلم بنصره فى بدر وغيرها ، وليس ذلك منسوخا

بآية السيف كما قيل ، لأن المراد بهذا الانتظار التهديد والوعيد ؛ لا الإعراض عن ترك القتال ، أو عن ترك الابتداء فيه .

(وإذا أذقْنا النَّاسَ) مطلقا أو كفار مكة (رحْمةً) فى البدن والمال (مِنْ بَعْد ضرَّاء) شدة ضارة بهم كقحط ومرض (مسَّتْهم) أصابتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ، كما يحس الجسم جسم الآخر ، والجملة صفة ضراء .

(إذا) للفجاءة رابطة لجواب إذا الشرطية (لَهم مَكر" فى آياتِنَا) احتيال فى دفعها بما أمكنهم ، وقيل : استهزاء وتكذيب به ، قال الحسن ، ومجاهد : قيل قحط أهل مكة سبع سنين وكادوا يهلكون ، ولما رحمهم الله بالمطر والخصب شرعوا يقدحون فى آيات الله سبحانه وتعالى ، ويكيدون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الآيات رحمته الدالة عليه ، ومكرهم قولهم سقينا بنوء كذا ، والأنواء منازل القمر ، تنسب العرب كالمنجمين الكفرة المطر والريح إليها ، فبعض العرب ينسبها للطالع لأنه نيء أى ظهر ، وبعض للغارب الساقط لأنه نيء أى بعد ، وذلك كفر شرك لا كفر نعمة ، كما زعم بعض ، ونسبتهما إلى ذلك باعتبار العادة مكروه ، وقيل : حرام ، ويأتى كلام إن شاء الله فى سورة الفتح .

(قلِ اللهُ أسْرعُ مَكراً) جزاء فى خفية ، أو كيداً باستدراج ، أو جزاء مكركم ، قال الحسن : إذا أراد الله أن يهلك قوما كان عذابهم أسرع من لمح البصر ، وذلك فى الدنيا ، كوقعة بدر ، أو يوم القيامة ،

وعلى كل حال هو أسرع من مكرهم ، من حيث إنـه واقع لا محالة ، ومكرهم لا يدرون أيتأثر أم لا ، أو من حيث إنهم فى مقدمات مكر الله من وقتهم ذلك ، أو من حيث إن الله عز وجل دبر عقابهم قبل أن يدبروا كيدهم .

وإنما قال أسرع بصيغة التفضيل ، لأن كيدهم أيضا سريع كما ينص عليه لفظ الفجاءة ، وترتيب المكر على أول طعم الرحمة المعبر عنه بالذوق ، أو أسرع اسم تفضيل خارج عن معنى التفضيل ، فهو بمعنى سريع ، وعلى كل حال فصوغه من سرع الثلاثى لا من أسرع الرباعى ، وأجاز بعضهم بناء اسم التفضيل من الرباعى المبدوء بالهمزة لغير التعدية ، كأسرع وبعض ولو للتعدية .

(إنَّ رُسُلنَا) قال أبو حاتم : خففه الحسن ، وابن أبى إسحاق ، وأبو عمرو السين بالإسكان وهم الحفظـة (يكْتُبون ما تمْكُرونَ) لتجازوا به ، فليس مكركم بخفى عن الحفظة ، فضلا عن الله ، فهذا تحقيق للانتقام ، وهذه الجملة تقوى أن يكون المراد بالمكر فى قوله : « الله أسرع مكراً » المكر فى الآخرة ، وقرأ يعقوب فى رواية روح ، والحسن ، والأعرج ، وقتادة ، ومجاهد : يمكرون بالتحتية ، ليوافق الغيبة فى قوله : « وإذا أذقنا الناس » الخ ، وهو رواية ضعيفة عن نافع ، وليست قراءة الفوقية بالتفات ، لأنها فى كلام آخر مستأنف فى قولـه : « قـل » وهى قراءة الجمهور ، قال أيوب بن المتوكل ، فى مصحف أبىّ : يا أيها الناس إن الله أسرع مكراً ، إن رسلنا لديكم يكتبون ما تمكرون .

(وهُو الذِى يَسيِّركُم) يجعلكم سائرين ، بأن أقدركم على

السير وخلقه منكم ، والتشديد للتعدية لا للمبالغة ، لأن سار لا يتعدى ، وأما قول الهذلى :

فلا تجزعَن مــن سنةٍ أنت سرتهــا
وأولُ راضٍ ســـنة مــن يسيرُهــا

فلا دليل فيه للفارسى فى تعديه ، لأن الضمير فيه إما مفعول مطلق نائب عن السنّة ، والسنّة بمعنى السيرة ، أو بمعنى الظرف ، والسنّة بمعنى الطريقة ، كما تقول الطريقة أسرتها ، وقرأ ابن كثير فى رواية كسر السين وإسكان الياء بعدها من أسار المعدى بالهمزة ، وقرأ ابن عامر ، وزيد بن ثابت ، والحسن ، وأبو العــالية ، وأبو جعفر ، وعبــد الله بن جبير ، وأبو عبد الرحمن ، وشيبة : ينشركم بفتح المثناة ، بعدها نون ساكنة ، بعد النون شين معجمة مضمومة ، أى يفرقكم .

قيل : كانوا يقرءون هكذا ، فنظروا فى الإمام وهو مصحف عثمان ، فوجدوها بياءين بينهما مهملة فاتبعوه ، وأول من كتبها مثله الحجاج ، وعن الحسن : ينشركم بضم المثناة وكسر الشين المعجمة ، وإسكان النون بينهما .

(فى البرِّ) عــلى الدواب والأرجــل (والبَحْرْ) عــلى الفلك وذلك دلالة على القدرة ، وتعديد للنعمة قبل ركوب البحر ، وقت حسن الظن به للجهاد والحج ، متفق على جوازه ، وكذا لضرورة المعاش ، ويكره لطلب الغنى والاستكثار ، وقيل : لا يكره ، وتركه أحسن ، وأما ركوبه

فى ارتجاجه فممنوع ، وفى الحديث : « من ركب البحر فى ارتجاجه فقد برئت منه الذمة » وعنه صلى الله عليه وسلم : « لا أركبه أبداً » •

(حتَّى إذا كُنتُم فى الفُلْكِ) جمع فلك بضم الفاء وإسكان اللام أيضا ، بدليل ضمير الجماعة بعد وهو النون الموضوعة لجماعة الإناث فى قوله : (وجَرَيْنَ) وليس مفرداً يطلق على الواحد والجماعة ، لقولهم فى التثنية فلكان (بِهِم) الأصل بكم الخطأ ، وعدل عنه إلى الغيبة للبلاغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم من سوء الصنيع ، وقلة الحياء ، معرضا عنهم بعد خطابهم ، ليعجبه منهم ، ويستدعى منه الإنكار والتقبيح ، مع أن ذلك الكلام من الله عز وجل مع نبيه صلى الله عليه وسلم لا معهم ، فتقوى ذلك العدول •

وعن بعض : أن كل من أقام غائبا مقام المخاطب حسن منه أن يرده إلى الغيبة ، وقرأ أبو الدرداء : فى الفلكى بياء النسب المزيدة للمبالغة ، كقوله :

* والدهر بالإنسان دوارى *

أى دوار ، كقولك أحمرى وأصلى ، تريد أنه أحمر وأنه أصل لا النسبة إلى أحمر وأصل ، ولزيادتها لم تخرج الكلمة عن معنى الجمع ، فأعيد إليها ضمير الجمع ، وإلا فإنك إذا أردت بالفلكى فى كلامك شيئاً منسوباً إلى الفلك ترجع إليه الضمير مفرداً وقد يقال : إن النسب على أصله لا زائد ، وأن المعنى الماء الفلكى وهو العظيم الذى تجرى فيه الفلك ، وعلى هذا فالضمير فى « جرين » عائد إلى الفلك الذى دل عليه هذا النسب ، والباء للتعدية ، كأنه قيل وأجرينهم ، شبه نقلها إياهم من

مكان لآخر بالإجراء ، أو كمع أى وجرين معهم إذ هم فيهن ، فهم معهن أو للاستعانة .

(بريح طيّبةٍ) لينة الهبوب ، قيل : الريح إذا لم توصف بطيب ونحوه فهى المكروهة (وفَرِحُوا بها) أى بتلك الريح (جاءَتْها) أى تلك الريح ، أو تلك الفلك والأول أولى من حيث مناسبة الضمير فى الإفراد والقرب ، والثانى أولى من حيث المعنى وهو الراجح عندى ، ولا بأس بإفراد الضمير باعتبار الجماعة ، أو الجماعة بعد جمعه ، وقرأ ابن أبى عبلة : جاءتهم وهو أنسب بالثانى ، ولو ناسب الأول أيضا (رِيحٌ عاصِفٌ) الريح يذكر ويؤنث فى الإظهار والإضمار ، وليس التذكير للنسب ، لأن النسب لا يبيح التذكير عند التحقيق ، تقول : رجل تامر ، وامرأة تامرة لا تامر ، أى ذات تمر ، والعصوف شدة الهبوب السرعة ، وأصله كسر الأشياء .

ومعنى مجىء الريح العاصف ، الريح الطيبة تلقيها إياها ، وإذهابها ، أو تغلبها عليها ، وجملة جاءتها ريح عاصف جواب إذا ، وبمجموع الشرط وما عطف عليه ، والجواب وما بعده صح الترتيب على التسيير وإلا فبمجرد كونهم فى الفلك لا يترتب على التسيير فى البحر .

(وجَاءهُم المَوْجُ) ما ارتفع من الماء أو شدة حركة الماء واختلاطه (مِنْ كلِّ مكانٍ) ممكن مجىء الموج منه ، إذ لا يجيئهم الموج من صحراء أو جبل (وظَنُّوا) رجحوا أو أيقنوا (أنَّهم أُحيطَ بِهِم) للهلاك حتى لا يبين لهم سبيل إلى الخلاص .

(دَعَوُا اللهَ مخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ) أى الدعاء بعد أن كانوا قبل ذلك يدعون سواه ، أو مذعنين بأنه لا دين إلا دينه ، وأن عبادة الأوثان باطلة ، لأنهم يعلمون أنه لا ينجيهم من الشـدائد إلا الله ، أو لتراجع الفطرة التى ولدوا عليها لزوال معارضها بشدة الخوف ، وهذه الجملة بدل اشتمال من ظنوا ، لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به وقال الطبرى : هى جواب لقوله : « ظنوا » فلعله أراد بالجوابية هذا الاتصال الذى تفيده البداية أو أنه جواب لـ لما محذوفة أو إذا محذوفة أى ولما ظنوا أو إذا ظنوا ٠

(لئِنْ أنجيتَنَا مِنْ هذِهِ) أى هذه الشدة ، أو هذا الريح العاصف (لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ) بالتوحيد والعبادة ، وذلك مقول لقول محذوف ، أى يقولون : والله لئن أنجيتنا الخ أو لدعوا لئن بمعنى القول ، وذكر الطبرى فى هذا المقام من دعاء العجم : هيا شراهيا ، ومعناه يا حى يا قيوم ٠

(فلمَّا أنْجاهُم) منها (إذَا هُم يبْغُون) يجاوزون الحد بالشرك والمعاصى والفساد ، وقرن جواب لمـا فى هذه الآية ونحوها بإذا ، مما يقوى مذهب ابن مالك فى إجازة قرنه بالفاء ، وحمل ما ورد منه عـلى ظاهره (فى الأرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ) تأكيداً للبغى ، فإنه فى الشرع لا يكون إلا بغير الحق ، ولو كان بحسب اللغة يطلق أيضا على مجاوزة العدل إلى الإحسان ، والفرض إلى النفل ، وهدم دور الكفرة ، وإحراق زروعهم ، وقطع شجره كما فعل صلى الله عليه وسلم بقريظة ونحو ذلك ، مما هـو مجاوزة بحق ، وقد يعتبر هذا المعنى اللغوى وهو مطلق المجاوزة لشىء أو إفساده ، فيقيد بقوله : « بغير الحق » ليفهموا ٠

(يا أيُّها النَّاسُ إنَّما بغْيُكم عَلى أنفُسِكم) لأن إثمه عليكم ، فصح الإخبار لأنه عليكم ، أو يقدر مضاف ، أى إنما وبال بغيكم على أنفسكم ، وذلك مبتدأ وخبر (مَتاعُ الحيَاةِ الدُّنْيا) خبر ثان ، أى أنه على أنفسكم ، وأنه منفعة لهذه الحياة لا تبقى ، والباقى عقابها ، أو خبر لمحذوف ، أى هو متاع الحياة الدنيا ، أو ذلك متاع الحياة الدنيا ، ويجوز أن يتعلق « على أنفسكم » ببغيكم ، على أن المعنى بغى بعضكم على بعض ، وذلك أنهم جنس واحد ، فيكون الخبر هو قوله : « متاع » وقرأ حفص بنصب متاع ، فيكون الخبر محذوفا ، أى مذموم أو ضلال ، وعلى يتعلق ببغيكم ، أو الخبر « على أنفسكم » أو أنفسكم ومتاع مفعول مطلق نوعى لا مؤكد ، كما قيل ، إلا إن أريد أنه مؤكد لمعنى الجملة قبله ، أى تمتعون أو تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، حذف عامله أو مفعول به لبغيكم استعمالا له بمعنى الطلب ، أو لمحذوف دل عليه البغى ، أى تطلبون متاعها ، وذلك قراءة حفص عن عاصم ، وكذا قرأ هارون عن ابن كثير ، وقرأ ابن أبى إسحاق متاعاً الحياة الدنيا بنصبهما وتنوين الأول ، فالحياة ظرف زمان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمكر ولا تعن ماكراً ، ولا تبغ ولا تعن باغياً ، ولا تنكث ولا تعن ناكثاً » وتلا الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : « أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة » وروى اثنتان يعجلهما الله فى الدنيا ، البغى ، وعقوق الوالدين . وعن ابن عباس : لو بغى جبل لدكّ الباغى ، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه :

يا صاحب البغى إن البغى مصرعه
فاربع بخير فعالَ المرء أعدله

فلــو بغى جبل يومــاً عــلى جبل

لا ندك منــه أعــاليه وأســـفله

ويقال : من سلب نعمة غيره ، سلب غيره نعمته ، وعن على بن أبى طالب : يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم ، وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى والنكث والمكر .

(ثمَّ إليْنا مَرْجِعكُم) فى القيــامة ، أو بالبعث (فننَبئكُم) وقرأت سرقة بالتحتية ، أى فينبئكم الله على طريق الالتفات (بما كُنتُم تَعْملون) فيجازيكم عليه ، أو التنبئة كناية عن المجازات والدنيا وأنال منها الإنسان ما أراد من بغى ولذة هى كما قال الله سبحانه .

(إنمَّا مَثلُ) صفة (الحياةِ الدنيا) أو حالها العجيبة فى سرعة الذهاب بعد إقبالها ، والاغترار بها التى هى كالمثل المضروب (كماءٍ أنزلناهُ منَ السَّماءِ) ليس المشبه به مجرد الماء ، بل هو وما بعده إلى « حصيد » أو بالأمس ، فذلك تشبيه تمثيلى ، ويقال له : مركب .

(فاختلطَ بهِ) بسببه (نباتُ الأرْضِ) بعضه ببعض ، بأن كثر والتفّ وهو النبات الذى خرج به ، أو مطلق النبــات ، بأن يزيد النبات السابق عنه نمواً ، ويخرج الآخر وينمو فيتراحم النبات ، ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة ، بأن يكون المراد باختلاط النبات به اشتماله عليه بدخوله فيه بالمص من الأرض ، عــلى أن يكون النبات سابقا فى الوجود ، والأصل أن يقال على هذا الوجه : فاختلط بنبات الأرض ، لكنه ليس من باب القلب ، لأنه إذا امتزج شيئان فكل منهما مختلط بالآخر ،

واختار إسناد الاختلاط للنبات مبالغة فى قوة جبذ الماء ، حتى كأنه يتحرك إلى الماء ، هذا ما ظهر لى من الأوجه بالتأمل وعن ابن عباس : اختلاط النبات به وجود أنواع النبات مختلطا بعضها ببعض بسببه ، ووقفه بعض القراء على اختلط ، أى اختلط الماء بالأرض ، فحذف بالأرض ، واستأنف قوله : « به نبات الأرض » على أنه خبر ومبتدأ ، وعلى هذا بالهاء للاختلاط أو للماء (ممَّا يأكلُ النَّاسُ) كالبرق والشعير (والأنعَامُ) كسرق ذلك وورقه ، والكلأ .

(حتَّى إذا أخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها) أى أخذت زينتها من ألوان النبات ، وأصناف الثمار ، شبهها بعروس أخذت عطرها وثيابها ، واستعملتها للزينة (وازَّيَّنتْ) وزنه تفعَّلت ، أصله تزينت ، أبدلت التاء زاياً وسكنت وأدغمت فى الزَّاى ، فجىء بهمزة الوصل لوقوع الساكن أول الكلمة ، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وأبى : وتزينت على الأصل ، وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، والشعبى ، وقتادة ، ونصر بن عاصم ، وعيسى : وازَّينت بإسكان الزاى وتشديد النون ، كقولك اخضرَّ الزرع واحمر زيد بتشديد الراءين وقرأ أبو عثمان : وازاينت بذلك الضبط وزيادة الألف قبل النون ، وقرأت فرقة كذا لكن بهمز الألف المزيدة ، وفرقة وازاينت بتشديد الزاى بعدها ألف وتخفيف الياء والنون ، أصله تزاينت ، أبدلت التاء زاياً وسكنت ، وأدغمت وجىء بهمزة الوصل ، وقرىء أزينت بقطع الهمزة مفتوحة بوزن أكرمت ، أى أحضرت زينتها ، أو صارت ذات زينة ، وهو شاذ ، لأن القياس أن تنقل فتحة الياء للزاى فتنقلب ألفاً .

(وظنَّ أهلُها أنَّهم قادِرُون عَليها) أى على ثمارها ، أى

متمكنون من حصدها ورفعها والمضاف محذوف كما رأيت ، وقيل : الضمير عائد إلى الغلة ، أو الثمار ، وقيل : إلى الزينة المفهومة من ازينت ، وعلى القولين فلا حذف (أتاهَا أمْرُنا) أى قضاؤنا بهلاكها ، بريح أو ماء أو برد أو جراد أو غير ذلك (ليْلا أو نَهاراً فجعَلْناهَا) أى جعلنا ثمارها ، فحذف المضاف ، ويجوز عود الضمير إلى المضاف المقدر فى قوله : « عليها » وهو الثمار ، وأما هاء فى أتاها ففيها الوجهان ، ووجه آخر وهو عودها إلى الأرض بلا تقدير ، لأن إتيانها إتيان لما فيها ، وإنما حسن أن يقدر فجعلنا ثمارها بعد تقدير أنهم قادرون على ثمارها ، لأن المضاف لم يذكر أولا ، فكان يقدر ظاهر ، أو لا يمكن أن يقدر ضمير لأن الضمير لا يضاف •

(حَصِيداً) أى محصودة ، وذكر لأن فعيلا بمعنى مفعول يذكر إذا وصف به المؤنث ، وكانت قرينة على ذلك المؤنث ، ويقدر المضاف أيضا هنا ، أى حصيداً ثمارها ، وإن رددنا الضمير فى جعلناها للثمار لم يقدر هنا مضاف ، فيكون الحصيد هو الثمار ، والتذكير لما مر ، والإفراد بتأويل الجماعة أو الجملة ، أى جملة حصيداً ، أى محصودة ، كامرأة قتيل ، وعلى كل حال لو جعلناها ذات حصيد ، أى ذات زرع حصيد ، فالمراد التشبيه بما حصد بنحو المنجل وذهب بـه •

(كأنْ لَم تَغْنَ) بفتح التاء ، أى لم تلبث ثمارها ، يقال غنى بالمكان أى لبث به ، وقرأ الحسن ، وقتادة ، يغن بالتحتية أى زرعها إما على تقدير المضاف فى المواضع المذكورة لفظة زرع فاعتبر هنا ، وإما إرجاء للحصيد ، على أن الأصل ذات زرع حصيد ، وقرأ مروان على المنبر : كان لم يتغن ، وهو يتفعل من غنى مبالغة فى اللبث ، وهارون : كأن لم تتغن بتاءين •

(بالأمْسِ) أى ف الأمس ، وهو هنا مثل فى الوقت القريب ، كقولك : كأن لم تكن آنفا شبه زوال الدنيا بعد إقبالها بزوال خضرة النبات وذهابه بثماره بعد سكون النفس ، الى أنه قد سلم من الحوائج ، ودخل فى زوال الدنيا زوال الإنسان عنها بالموت ، فإن من مات فقد زالت عنه الدنيا ، وقال الشيخ هود : ذلك مثل للبعث ، ورد على منكره ، فكما أنه قادر على إحياء الأرض بالنبات بعد ذهابه ، قادر على إحياء الموتى •

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ) نبين (الآياتِ لِقومٍ يتفكَّرونَ) فإنهم المنتفعون بها ، ولو كان التفصيل عاما لكل أحد ، وعن ابن عباس : إن فى مصحف أبىّ كأن لم تغن بالأمس ، وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها ، كذلك نفصل الخ ، وقيل فيه : وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها ، وقرأ أبو الدرداء : لقوم يتذكرون •

(واللهُ يدْعُو) كل أحد ، أى يأمرهم ويدلهم على ما يتوصلون به من فعل وترك (إلَى دَارِ السَّلام) أى دار السلامة وهى الجنة ، وقيل : السلام جمع السلامة ، وقيل : اسم الله ، وأضيفت الدار إلى ذلك تنبيهاً على أنها سالمة من الآفات ، من دخلها لا يخرج منها ، ولا تنقضى عنه ، ولا يمرض ، ولا يقع به نحو ذلك من الآفات ، ومعنى : إن الله سلام ، أنه يسلم الخلق من جوره ، ويخلصهم من الآفات ، وقيل : السلام التحية ، لأن من يدخل الجنة يسلم الله عليه والملائكة ، ولا يخفى ما فى ذلك من تعظيم الجنة ، حيث أضافها إلى السلام على الأوجه المذكورة ، وحيث دعى إليها ، فإن العظيم إنما يدعو الى عظيم •

(ويَهْدِى مَنْ يَشاءُ) يوفقه (إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ) وهو

دين الله ، وهو الواسطة إلى دخول الجنة ، ومن لم يوفقه أصر على الكفر فلا يدخلها ، وفى التوراة : يا باغى الخير هلمّ ، ويا باغى الشر انته .

وروى عن جبريل قعد عند رأس رسول الله صلى الله وسلم فى نومه ، وميكائيل عند رجليه ، ومعهما ملائكة ، فقال أحدهما : إنه نائم ، وقال الآخر : إن قلبه يقظان ، إنه صاحبكم فاضربوا له مثلا ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مائدة ، وبعث داعيا ، فمن أجابه دخلها وأكل من المائدة ، ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل منها ، فقالوا : أولوها يفقهها ، فقال بعض : الدار الجنة ، والداعى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمائدة الإيمان ، ومن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، ومحمد فرّق بين الناس .

وروى أبو الدرداء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تطلع الشمس إلا وبجنبها ملكان يناديان ، أيها الناس هلموا إلى ربكم ، فإنه ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ، ولا غابت إلا وبجنبها ملكان يناديان : اللهم أعط كل منفق خلفا ، وكل ممسك تلفاً يسمعهم ما على الأرض غير الثقلين » والمشهور أنها تطلع ومعها ملكان يقولان : اللهم أعط المنفق خلفاً والممسك تلفاً .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) آمنوا وعملوا الصالحات ، لأن من آمن وأصر على معصية لا يسمى محسناً (الْحُسْنَى) أى المثوبة الحسنى ، جزاء مقابلا لإحسانهم ، كأنه قال : حسنة بحسنة (وَزِيَادَةٌ) وهى تسع حسنات أخرى وأكثر ، إلى سبعمائة ضعف وأكثر ، كما قال الحسن ،

وابن عباس ، أو الحسنى ما يعطونه مضاعفاً فى مقابلة إحسانهم ، والزيادة غير ذلك ، يتفضل الله به .

كما روى أيضا عن ابن عباس كقوله : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » وقوله : « ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » وقوله : « ولدينا مزيد » قال ابن عباس : يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنـــة لا يزالون متعجبين مما هم فيه ، حتى يُفتح لهم باب المزيد ، فإذا فتح لهم كان لا يأتيهم منه شىء إلا كان أحسن مما فى جنتهم » قال جابر بن زيد : سئل ابن عباس عن قوله تعالى : « للذين أحسنوا انحسنا وزيادة » فقال : غرفة من لؤلؤة واحدة ، لها أربعة أبواب ، روى ابن عباس ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن عيينة ، عن على .

وقال مجاهد : الزيادة مغفرة ورضوان ، والحسنى جزاء حسناتهم ، وقال ابن زيد : الحسنى الجنـــة ، والزيادة ما أعطـــاهم فى الدنيا لـــم يحاسبهم ، والذى يظهر لى من الآية هو الوجه الأول ، لموافقته آيتى زيادة المذكورتين ونحوهما ، ويليه الوجه الثانى ، ويدل لهما المقابلة بقوله : « جزاء سيئة بمثلها » ولا مانع مما سواها من تلك الأقوال ، ولا من قول يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرته ، وهو داخل فى بعض تلك الأقوال ، ولا مانع من حمل الآية على ذلك كله .

وزعم قومنا أن الزيادة رؤية الله سبحانه ، فتراهم قبحهم الله متى سمعوا بذكر شىء قريب أو بعيد من الذى بنوا عليه اعتقادهم ، ذهبت

إليه أهواءهم ، وتعسفوا إليه تعسفا شديدا ، واستخرجوه منه إخراجا قبيحا ، وكذبوا عليه هم أو سلفهم أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة عنه ، ينبىء القرآن عـن أنها لم تصح عنـه كقوله : « لا تركه الأبصار » وقد علموا أنهم يلزمهم التشبيه ، فكانوا يقولون : يرى من غير تشبيه ولا إحاطه ، فكلامهم لو عقلوا متناقض ، إذ لا تثبت الرؤية بوجه ما إلا وقد ثبت التشبيه فى التحيز والإدراك وغيره ، فلهذا تعين حمل : « إلى ربها ناظرة » على معنى انتظار رحمته .

وأما ما زعم بعض أن أل للحسنى للعهد ، والمعهود دار السلام وهى الجنة ، وأنه يلزم بذلك أن تكون الزيادة أمراً مغايرا لكل ما فى الجنة ، فعلى تسليم العهد فيه ، فلا مانع من زيادة أمر فى الجنة لـم يكن فيها ، فهو مغاير لكل ما رأوا فيها قبل ذلك ، وأيضا مغفرته غير ما فيها ورضاه كذلك ، ودوامها كذلك ، فإن دوام الجنة غير الجنة ، ولا مانع من تفسير الزيادة به ، بل لا دليل على العهد ، ولا مقوى له لاختلاف لفظ الدار ، ولفظ الحسنى ، فإن العهد الذكرى ولو كان يجىء أيضا مع اختلاف اللفظ ، لكن يتعين أو يتقوى مع اتفاقه ، ولا مانع من كون أل للحسنى للجنس أو للحقيقة ، والأمر سهل ، سواء حملت على العهد أو الجنس أو الحقيقة .

وقد اختلفوا فيما احتمل أن المعرف العهدية أو الجنسية ، فقيل : يحمل على العهدية وهو مذهب عمار ، وقيل : على الجنسية ، واختار بعضنا الأول ، لكن حيث لا مانع ولا مضعف ، والأصل فى الزيادة أن تكون من جنس المزيد عليه ، فإذا كانوا فيها فى مقدرة لهم ومعينة ، فيكون ما يزاد على ذلك القدر الذى هم فيه هو المراد بالزيادة ، ولئن

قلنا : إنها غير مقدرة لتكون الزيادة من غـير جنسها لنقولن : الزيادة المغفرة أو الرضا أو الدوام ، أو ما فى الدنيا ، وكل ذلك ليس من جنس الجنة ، ولو كان ما فى الدنيا يمثل به لمـا فى الجنة ، ولا يقال : إن المفسر للرؤية مثبت ، والمفسر بغيرها ناف ، والمثبت مقدم على النافى ، لأنا نقول : ليس أحدهما أولى باسم المثبت أو النافى عن الآخر ، لأن كلا منهما مثبت لما يقول ، ونافٍ لما يقول الآخر ، وكما أثبت المفسر بالرؤية أحاديث لها ، قد أثبت الآخر أحاديث تبين أن تلك أكاذيب ، وإنما يقدم المثبت إذا لم يتبين كذبه .

(ولا يرْهَقُ) لا يغشى ، وعن بعضهم الرهق أن يغشى شىء شيئا على غلبة وتضييق (وُجوهَهُم قَتَرٌ) غبار مسودّ ، وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمرو ، والأعمش ، وأبو رجاء بإسكان التاء ، وهو لغة لا تخفيف ، لأن فعل كجبل وعسل لا يخفف إلا ضرورة (ولا ذلةٌ) ذلّ وهو أن ذكر الله سبحانه لهم أنهم ينجوا مما لا ينجوا منه أهل النار ، أو المراد أنهم لا يرهقهم ما يكون به القتر والذلة من كآبة وكسوف .

(أولئكَ أصْحاب الجنَّة هُم فيها خَالدُونَ) بخلاف الدنيا ، فإنها تنقرض هى وما فيها .

(والَّذينَ) عطف على الذين (كسبوا السَّيئات) عملوا كبائر شرك أو نفاق ، فهو شامل لغير المشرك ، والمشرك كما مر أن من أصر على معصية غير داخل فى الذين أحسنوا ، فليدخل هنا ، ولا مانع مـن حملنا هنا على المشركين ، واستفاد من الآى الأخر ، والأحاديث ، أن المنافقين مثلهم (جزاءُ سيئةٍ بمِثْلها) عطف على الحسنى ، فيكون

ذلك من عطف معمولين على معمولى عاملين مختلفين ، أحدهما جار ، فكأنه قيل : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة ، وبمثلها نعت لسيئة ، أو متعلق بجزاء •

ومعنى جزاء السيئة مقابلتها ، والجزاء عليها ، وجواز ذلك العطف مذهب الأخفش ، والكسائى والفراء ، والزجاج ومنعه سيبويه ، والمبرد ، وابن السراج ، وهشام • وقال قوم منهم : الأعلم بالجواز أن والى المحفوظ العاطفة كالآية على ذلك التخريج ، وكقولك : فى الدار عمرو والحجرة بكر ، بجر الحجرة ورفع بكر إن لم يله نحو : فى الدار زيد وعمرو الحجرة بجر الحجرة لعدم وروده ، وعدم تعادل المتعاطفات ، وإن كان أحد العاملين غير جار ، فقال ابن مالك : يمنع إجماعا نحو : كان أكلا طعامك عمرو وتمرك بكر ، فإن طعامك معمول لأكلا ، وعمر ومعمول لكان ، ونقل الفارسى الجواز عن جماعة قيل : منهم الأخفش ، وهذه الجماعة والأخفش تجيزه إذا كان أحد العاملين جارا متأخرا أيضا نحو : زيد فى الدار والحجرة عمرو ، وليس كما قال المهدوى إنه إذا كان أحدهما جارا متأخرا يمنع إجماعا •

ويجوز أن يكون الذين مبتدأ على حذف مضاف خبره جزاء ، وجزاء الذين كسبوا الخ ، أو خبره « كأنما أغشيت وجوهم » أو « أولئك أصحاب النار » وعليهما فما بين ذلك معترض فيكون جزاء مبتدأ خبر محذوف ، أى واقع بمثلها ، أو مقدر بمثلها ، أو مذكور وهو مثل على أن الباء زائدة •

(وترهقهم ذلة) وقرء بالمثنات التحتية للفصل ، وظهور الفاعل المجازى التأنيث (ما لهم من الله) من متعلق بعاصم بعده (من)

صلة للتأكيد (عَاصِمٍ) مانع ، أى ما لهم عن سخط الله وعذابه ، أو من الأولى متعلقة بمحذوف حال من ضمير الاستقرار فى لهم ، على أن عاصم مبتدأ ، ولهم خبر ، أو بمحذوف حال من عاصم على أنه فاعل للظرف ، لاعتماده على النفى ، على هذين الوجهين يكون المعنى ليس لهم عند الله عاصم ، كما أن للمؤمنين عنده عاصم وهو الملائكة ، أو عملهم الحسن ، أو توفيق الله سبحانه وتعالى .

(كأنَّما أغْشِيَتْ وجُوهُهم قِطَعاً) مفعول ثان ، والأول نائب الفاعل ، وذلك أن أغشى تعدى إلى اثنين بالهمزة ، أى جعلت القطع غاشية وجوههم ، والمعنى كسيت وجوههم قطعا ، والقطع جمع قطعة وهى الجزء من الليل ، وقرأ ابن كثير والكسائى ويعقوب بإسكان الطاء (مِنَ اللَّيل) نعت قطع (مُظْلِماً) حال من الليل ، أى قطعا ثابتة من الليل مظلما ، فناصب قطعا أغشيت ، وناصب ثابتة أغشيت أيضا ، لأن العامل فى المنعوت هو العامل فى النعت ، وناصب محل الليل ثابتة ، أو من الليل بنيابته عن ثابتة ، وعلى إسكان الطاء فمظلما نعت قطعا أو حال منه بوصفه أو من ضميره فى قوله : « من الليل » والقطع بإسكان مفرد بمعنى المقطوع كالقطعة ، أو جمع كسدرة وسدر ، وباب كلم وسدر وشجر يجوز فيه الإفراد والتنكير .

وقرأ أبىّ كأنما يغشى بفتح الياء والشين ، وجوههم بالنصب قطع بالرفع وإسكان الطاء من الليل ، مظلم بالرفع على أنه نعت قطع ، وكذا قرأ ابن أبى عبلة إلا أنه يتخطى ، وإنما وصف الجمع وهو القطع بفتح الطاء ، بمفرد ، لأنه ملحق بباب سدرة وسدر ، وكلمة وكلم ، وشجرة وشجر ونحو ذلك .

وهو يجوز فيه الوصف بالمفرد المذكر ، مع أنه جمع أو اسم ، ولو لم يكن من ذلك الباب ، والمراد القطع من سواد الليل ، كان وجه كل واحد عليه قطع متراكمة من سواد الليل ، بعضها فوق بعض ، قال الحسن : لم يخلق الله شيئاً أشد من سواد الليل .

(أولئِكَ أصحابُ النّار هُم فيها خَالدُونَ) لا انقطاع لها ولا لهم عنها .

(ويَوم َ) أى واذكر يوم (نحْشُرهم) أى يجمع الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم من مواضعهم وقبورهم المتفرقة ، وقرأت فرقة : يحشرهم بالمثناة التحتية ، أى الله (جَمِيعاً) حال مؤكدة (ثم نقُولُ للذِينَ أشْركُوا) منهم ، وإن أعدنا الهاء إلى الكفار فقط ، فالذين موضوع موضع ضمير ليذكر شركهم لشركائهم ، وما يناسب ذلك ، ومفعول أشركوا محذوف ، أى أشركوا بالله غيره ، أو لا يقدر له مفعول ، لأن المراد مجرد نسبة الإشراك إليهم .

(مكانَكُم) اسم فعل بمعنى الزموا بوصل الهمزة وفتح الزاى ففيه ضمير مستتر وهو فاعله ، وقيل : هو ظرف مكان ناب مناب الزموا فاستتر فيه ضمير الزموا ، أو الأصل الزموا مكانكم بنصبه على المفعولية ، فلما حذف عامله ناب عنه واستتر فيه ضمير ، ويجوز تقدير لازموا فى تلك الأوجه ، ويجوز كونه اسم فعل بمعنى قفوا ، أو ظرف نائب عن قفوا ، وفيه ضمير مستتر ، والفتح إعراب فى النيابة والظرفية ، وبناء فى كونه اسم فعل .

(أنتُم) تذكيد للضمير المستتر (وشُركاؤكم) عطف على المستتر

للفصل بأنتم ، وقرئ بالنصب على المعية ، والشركاء الأوثـان ، وفى أمرهم بالوقوف تهديد لهم ، كأنه قيل : مكانكم أنتم وشركاؤكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ، ويجوز أن يكون أنتم مبتدأ ، والجزم محذوف ، أى أنتم وشركاؤكم مهانون أو مسئولون ، وقيل : الشركاء الجن المعبودون ، والآدميون المعبودون كفرعون ، فأنتم أيضا تأكيد أو مبتدأ محذوف الخبر ، يقدر كما مر ، أو يقدر موبخون أو معذبون ، وقيل : هم الملائكة والمسيح ومريم وعزير ونحوهم ، فعلى جعل أنتم مبتدأ يقدر الخبر مسئولون .

(فزيَّلْنا بينَهم) فرقنا بينهم ، وقطعنا الوصـل التى كـانت بينهم ، وذلك على تناول الكفرة الاتصال بالأوثان ونحو الجن وفرعون ، والاجتماع بهم فى الدنيا ، أو تناولهم الاجتماع والاتصال المعنونيين بالملائكة وعيسى ونحوه ، أزال الله ذلك بإظهار الحق فى الآخرة ، فكانوا لا يتناولون ذلك فيها ، فذلك هو التزييل للاتصال الذى ادعوه بدون أن ترضى به الملائكة ونحو عيسى ، وبدون أن يتناولوا الاتصال بهؤلاء الكفرة ، وربما لم يعلموا بعبادتهم ، ويجوز أن يراد بالتزييل التفريق بعد الجمع فى المحشر ، أو تبرؤ المعبودين من العابدين وعبادتهم والتشديد للمبالغة من زال ظانه من معزة يزيله بفتح الياء الأولى وكسر الزاى ، أى أزاله منه ، وفرق بينهما ، وقرأت فرقة فزايلنا بينهم ، والمـاضى مستعمل فى معنى المضارع ، أو صور يوم القيامة ، كأنه قد وقع التزييل لتحقق وقوعه بعد لا محالة .

(وقالَ شُركاؤهُم) إضافة الشركاء فى الموضعين ، إنما هى على زعمهم الفاسد ، كأنه قيل : الذين هم شركاء الله فى زعمهم (ما كُنْتُم إيَّانا) مفعول قدم للفاصلة (تعْبدُونَ) شبه حال الشركاء بالنطق ،

فأسند إليها القول ، كما تقول : نطقت الحال بكذا ، وذلك فى الأوثان ، وقيل : ينطقها الله لهم بذلك ليشتد خزيهم ، لأنهم يرجون شفاعتها ، وإما إن كان الشركاء عقلاء فالقول حقيقة ، أما الجن وفرعون ونحوهم فينفون العبادة كذباً ، وأما الملائكة ونحو عيسى فينفونها ، لأنهم لم يدروا بها ، وإن دروا بها فمعنى نفيها إنما فعلتم من العبادة ليس عبادة لنا ، لأنا لم نأمركم به ، وإنما هو عبادة وطاعة للشياطين الذين أمروكم به وأهواءكم ، وأما نفى الأوثان إياها فلعدم علمها ، ولأنها لم تأمرهم فيكون ذلك طاعة لأمرها ، وذلك أن العبادة طاعة ، ويلقيهم الله مع الأوثان فى النار يعذبون بها أبدا ، ولا تتألم الأوثان .

(فكَفَى بالله شَهيداً) حال أو تمييز ، والأول أولى لأنه وصف (بَيْنَنا وبينكم) فإنه العالم بحقيقة كل شىء (إنْ) مخففة واللام بعد ذلك فارقة أو نافية ، واللام بمعنى إلا والراجح الأول (كنَّا عَنْ عِبادتكم) مصدر مضاف لفاعله (لغَافلينَ) وهذا يؤيد أن الشركاء فى ذلك هى الأوثان ، لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، فهى أولى وأنسب بالغفلة .

وقد روى أنهم يذكرون عبادتها فتنفيها فيقولون : والله كنا نعبدكم ، فتقول : فكفى بالله الخ ، ومن عبدوه أيضا ولم يشعر كالملائكة وعيسى أيضا غافل عن عبادتهم ، وأما من أمرهم أن يعبدوه أو عبدوه ورضى فادعاء الغفلة كذب ، كأنه يقول : إنا لم نأمركم بالعبادة ، ولم نشعر بها ، فنحن عنها فى غفلة .

(هُنالِكَ) أى فى ذلك الموقف ، أو فى ذلك اليوم على استعارة

اسم المكان للزمان ، لشبه المكان بالزمان فى الظرفية (تبْلُوا كلُّ نفْسٍ) تختبر (ما أسْلَفت) ما قدمت من عمل ، فتعرف أقبيح أم حسن ، ضار أم نافع ، مردود أو مقبول ، وقرأ حمزة ، والكسائى : تتلوا بتائين تقرأ وما قدمت أو نليه ، وتجازى به أو تتبعه فيقودها إلى الجنة أو النار ، وعن عاصم : نبلوا بالنون ، ونصب كل ، وعليه فما بدل اشتمال من كل ، أى نختبر ما قدمت : هـل هو موجب لسـعادتها أو موجب لشقاوتها ؟ أو منصوب على نزع الخافض أى نصيب كل نفس عاصية بما أسلفت .

(ورُدُّوا) وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الراء (إلى الله) أى إلى جزاء الله (مَوْلاهُم) بدل أو نعت ، لأنه بمعنى متولى أمرهم ومالكهم ، ومعنى لا مولى لهم لا ناصر لهم (الحَقِّ) نعت للمولى أى الصادق ألوهية وربوبية ، لا كأوثانهم ، فلاحظ لها فى الألوهيـة والربوبية ، أو الثابت الدوام ، أو المعنى إلى الله متولى حسابهم العدل الذى لا يجوز ، وقرىء بنصب الحق على المدح ، أو على المصدرية المؤكدة للجملة قبله ، فهـو مؤكد للرد ، كقولك : هذا عبد الله الحق ، وناصبه على الأول أعنى ، وعلى الثانى حق أو أحق .

(وضَلَّ عَنْهم) غاب أو ضاع (مَا كانُوا يفْتَرونَ) من أنهـا تشفع لهم ، أو من أنهـا آلهتهم ، أو غاب أو ضـاع ما زعموا أنهم آلهتهم أى بطلت آلهتهم ولم تنفعهم ، فكأنها غابت عنهم أو فقدت .

(قلْ مَنْ يرْزقكُم) استفهام تقرير (مِنَ السَّماءِ والأرْضِ) أى من مجموعهما ، فإن الرزق يتحصل بأسباب سماوية ، كالماء وحرارة

الشمس ، والمواد الأرضية كالقوة المنبتة ، وكآلات الحديد المتخذة فيها للحرث ، وكالنبات الذى تأكله الأنعام والوحش ، وتأكلونها ، أو المعنى : قل من بلغ من لطفه وسعة رحمته ، أن أفاض عليكم الرزق من السماء ومن الأرض كلتيهما لا من إحداهما فقط ، ومن على الوجهين للابتداء ، وقيل : بتقدير مضاف ، أى من يرزقكم من أهل السماء والأرض ، فتكون من للبيان متعلقة بمحذوف حال من المستتر فى يرزق ، ولا إشكال فى هذا خلافاً لمن توهم .

ويكتب : « قل من يرزقكم » إلى : « أفــلا تتقون » فى ورقــة طومار ، وحرز عليها خرقة زرقاء ، وعلقها على عضده تسهلت عليه أسباب الرزق ، وفى قشر قرع حلو ، وعلقها على عضد المرأة اليمنى فتتســهل ولادتها ، وفى قصبة بماء كراث قبطى ، ويمحوه بعسل منزوع الرغوة ، ويعقده على النار ، ويقطر منه فى الأذن الوجيعة ثلاث قطرات فتبرأ إن شاء الله .

(أمَّنْ يملكُ السَّمعَ) أل للاستغراق ، أى الأسماع والأبصار ، أى من يستطيع خلقها كما هى ، أو من يحفظها مع كثرتها وطول الزمان ، وتضررها بأدنى شىء ، أو من هى فى قبضته يبقيها لمن شاء ، ويذهبها عمن شاء (ومَنْ يُخْرِجُ الحىَّ) كالإنسان والأنعام والطير والنبات (مِنَ الميِّتِ) كالنطفة والبيضة ، والأرض والحبة (ويُخْرِجُ الميِّتَ) كالنطفة والبيضة ، والأرض والحبة (مِنَ الحىِّ) كالإنسان والأنعام والطير ، بل البيضة أيضا من النطفة ، قال الحسن : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وهو ضعيف عندى ، لا يقبله السياق ، لأنه

لا يليق به قوله : « فسيقولون الله » لأنهم لا يقرون أن الإيمان كالحياة ، والكفر كالموت •

(ومَنْ يُدبِّرُ الأمْرَ) من يحكم أمور الخلق كلها ، ويعلم عاقبتها ، ويوجدها على مصلحة واستقامة ، وهذا عموم بعد خصوص (فسَيَقُولونَ) فاعل ذلك كله (اللهُ) لا غيره ، إذ لا يمنكهم العناد فى ذلك ، والفاء للاستئناف أو لعطف الأخبار على الطلب ، وهو قـل ، والأول أولى (فقُلْ) جواب لمحذوف ، أى إذ قالوا ذلك فقل لهم (أفلا تتَّقونَ) الفاء عاطفة على قولهم : فاعل ذلك هو الله ، والهمزة من جملة المعطوف ، تقدمت على العاطف ، أو الفاء عاطفة على مقدر بعـد الهمزة ، أى أتقرون بذلك فلا تتقون ، والمراد اتقاء ما يوجب سخط الله وعقابه من شرك ومعصية •

(فذَلكُمَ) الفاء للاستئناف ، أى ذلكم العلى الشأن ، الفاعل لذلك (اللهُ) خبر (ربُّكم) خبر ثان أو بـدل (الحقُّ) ثابت الألوهيـة وربوبيته لا أصنامكم ، لأنها لا تفعل ذلك ، بل هى دونكم ، ويجوز كون الفاء رابطة لجواب شرط ، أى إذا كان هو الفاعل لما ذكر ، فذلكم الله ربكم الحق ، وإذا كان هو الحق •

(فمَاذا بَعْد الحقِّ إلاَّ الضَّلالُ) الاستفهام بفى ، أى وإذا كان هو الحق فليس بعده إلا الضـلال ، إذ ليس فى الوجود إلا الحق والضلال ، فإذا انتفى أحدهما ثبت الآخر ، وقيل : الحق الله ، والضلال الأوثان ، وقيل : إبليس ، وكلاهما بعيد هنا ، بل المراد حقيقة الحق ، وحقيقة الضلال ، ولم يقل إلا الباطل لينبه أن باطلهم ليس من الباطل الذى لا فائدة فيه ، بل من الباطل الذى هو مضل مهلك ، والله أعلم •

(فأنَّى) أى كيف ، أو من أى جهة (تُؤفكُون) تصرفون عن الإيمان والطاعة مع ذلك الإقرار منكم ، ووضوح الدلائل ، والفاء للعطف على الاستفهام .

(كذَلكَ) أى كما حقت ، والربوبية لله عز وجل ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الإيمان والطاعة (حقَّتْ كلمةُ ربِّكَ) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى كلمة ربك بالإفراد ، وكذا فى آخر السورة ، وفى غافر ، والجمع باعتبار الأفراد بفتح الهمزة ، أو لتعدد ما حكم به على كل فرد ، والإفراد بالكسر باعتبار أن ذلك كله حكم لله ، أو بمعنى الجمع .

(علَى الَّذينَ فسَقُوا) أشركوا ، فإن الفسق هو الخروج ، والإشراك خروج عن الصلاح (أنَّهم لا يؤمنُونَ) بدل من كلمة ، أى حق وثبت أنهم لا يؤمنون ، أى عدموا إيمانهم ، أو معنى حقت كلمات ربك سبق القضاء بهلاكهم وعذابهم ، وهى « لأملأن جهنم » الآية فتقدر لام التعليل ، أى لأنهم لا يؤمنون ، ويدل له قراءة بن أبى عبلة بكسر الهمزة على التعليل الجملى .

(قُلْ هلْ منْ شُركائكم من يَبْدأُ الخَلْق) يوجده بعد إن لم يكن (ثمَّ يُعيدهُ) يبعثه بعد ذهابه استفهام إنكار أو تقرير ، أى أقروا بما عندكم فى ذلك ، من ثبوت من يفعل ذلك من شركائكم أو عدمه ، وقد تبين يقينا أن شركاءهم لا تفعل ذلك ، فانتفت الألوهية والربوبية عنها ، وثبتتا لمن يفعل ذلك ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهم ولو كانوا لا يقرون بالبعث لله ، لكنه كالشىء الذى يقرن به لظهور دليل البعث وبرهانه .

فكأنهم مصدقون به فخوصموا به ، ولشدة غوصهم فى بحر إنكاره حتى لا يمكن نطقهم بإثباته ، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يجيب بإثبات البدء فقال :

(قُلِ اللهُ يَبْدأ الخَلْق ثمَّ يُعيدهُ) حقاً واضحاً ، أقررتم أو جحدتم (فَأنَّى تُؤفكونَ) تصرفون عن إثبات البعث ، وعن العبادة .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُركائكُم) أوثانكم (مَنْ يَهْدى) بنصب الحجج ، وإرسال الراسل ، والتوفيق للنظر والتدبر (إلَى الحقِّ) وعربت الهداية بإلى لتضمنها معنى الإنهاء والإيصال ، وتقدر أيضا باللام ، لدلالتها على أن المنتهى غاية للهداية ، ولكون أصل اللام للملك ، والهداية ملك لله كما قيل ، ولم يرد القائل أن اللام للملك ، لأن اللام لم تدخل على اسم من ملك الهداية فيما فيه البحث على العموم ، ولم توضع إلى لذلك ، ولكنها قد تستعمل فيه عروضا وموافقة ، وإنما وضعت للغاية ، بخلاف اللام فإنها تدل بالوضع على أن المنتهى غاية الهداية ، ولذى عدى بها ما أسند إلى الله تعالى فى قوله :

(قُلِ اللهُ يَهْدِى للحقِّ) لا بإلى ، وأما (أفمَنْ يَهْدى إلَى الحقِّ) فإنه ولو عدى فيه بإلى فيما أسند إلى الله ، لأنه هو من يهدى إلى الحق ، لكنه ليس بصريح ، بخلاف : « قُلِ اللهُ يهدى للحق » كذا قال شيخ الإسلام تصحيحا لكلام القاضى ، والحق عندى أن تعدية الهداية بإلى واللام لغتان ، واللام بمعنى إلى ، فكأنه قيل : قل الله يهدى إلى الحق ، أفمن يهدى غيره إلى الحق .

(أحقُّ أنْ يتَّبعَ أمَّن) عطف على من (لا يَهدِّى) لا يهتدى ،

فضلا عن أن يهدى غيره ، وأصله يهتدى ، أبدلت التــاء دالا ، ونقلت فتحتها للهاء ، وأدغمت الدال فى الدال ، وذلك رواية ورش ، وقالون ، عن نافع ، وفى رواية عن قالون عنه اختلاس فتحة الهاء ، وهو رواية عن أبى عمرو ، وابن جماز ، وبإخلاص الفتح قرأ ابن عامر ، وأبو جعفر ، بخلاف عن ابن جماز كرواية ورش •

قال الإمام الأندلسى أبو عمرو الدانى : النص عن قالون بإسكان الهاء ، وكذا نسب القاضى إلى أبى عمرو ، ونافع فى رواية عنه ، ولم يباليا بالتقاء الساكنين ، لأن المدغم فى حكم المتحرك ، وكذا روى عن أبى جعفر ، والأعرج ، ونص الدانى قبل ذلك ، على أن قالون وأبا عمرو يخفيان حركة الهاء وهو الاختلاس ، وقد ذكر اليزيدى ، أن أبا عمرو يسم الهاء شيئا من الفتح ، فلعل النص عن قالون ، والرواية عن أبى عمرو وغيرهما بالإسكان ، مراد بهما الاختلاس أو الإشمام لقربهما من السكون ، وقرأ حفص بكسر الهاء ، كأنه حذف فتح التاء حذفا أو أراد الإبدال والإدغام والهاء ساكنة فكسرها ، لئلا يلتقى ساكنان ، وكذا قرأ يعقوب ، وكسر أبو بكر الهاء لذلك ، والياء موافقة للهاء ، وكل ذلك من الاهتداء ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من هدى الثلاثى اللازم بمعنى اهتدى •

(إلا أنْ يُهْدى) وقرأ يحيى بن الحارث الذمارى ، بتشديد الدال وفتح الهاء والياء ، وذلك مبالغة ، ومعنى اهتداء الشركاء إذا هديت وهو المراد بقوله : « أمن لا يهدّى إلا أن يهدى » انتقالها إذ نقلت ، وتجردها عن وسخ ونحوه ، والوقوع فى هوة ، وتكسر إذا جردت وأنفذت ، أو معناه أنها لا تهتدى إلى الحق إلا إن علمتموها ، فبتعليمكم تهتدى ،

وهذه مجاراة لهم فى تنزيلها منزلة من يعقل ويسمع ، أو أنها لا تهتدى إلى النطق والتسبيح ، إلا أن خلق الله فيها قوة ذلك ، وليس من شأنها قبل أن يخلق فيها تلك القوة النطق والتسبيح ، ومن ذلك نطقها يوم القيامة بإنكار عبادتهم لها ، ويجوز قبل أن يكون المراد بالشركاء فى قوله : « قل هل من شركائكم من يهـدى إلى الحق » رؤساء الكفر ، فإنهم لا يهدون غيرهم ، ولا يهتدون ، إلا إن هداهم الله ، أو المراد إشراف الشركاء كالملائكة وعزير ، وعيسى لا يهدون غيرهم إلا أن هداهم الله إلى هداية غيرهم ، وهذا إنما يأتى على قراءة ، أم من لا يهدى بإسكان الهاءين باء مفتوحة ودال مكسورة مخففة .

(فمَالكُم) استفهام توبيخ مبتدأ أو خبر (كَيفَ) استفهام آخر مستأنف ، وهى حال من الواو بعدها (تحكُمونَ) هذا الحكم الفاسد الذى يقتضى العقل بطلانه ، ويوقف الفراء على قوله : « لكم » واستأنف بقوله : « كيف » .

(وما يتَّبعُ أكثرُهُم) فى دينه (إلا ظنًا) خيالات وأقيسة فاسدة ، كقياس ما لم يشاهده على ما شاهدوه ، وقياس الخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة ، وذلك من يتناول النظر ، ولم يرض بمحض التقليد ، وأما القليل فلم يحتج فى إشركه إلى ظن ، بل تمسك بمحض التقليد ، وقيل : المراد بالأكثر الكل ، كما تستعمل القليل فى النفى على عكس ذلك .

(إنَّ الظنَّ لا يغْنى) فى وصول الديانات ، ولو أغناه فى طريق الأحكام التى تعبد الناس بظواهرها (مِنَ الحَقِّ) الاعتقاد الحق فى وصول الدين وهو حال من قوله : (شَيْئاً) على أن شيئا مفعول به ليغنى ، لتضمنه معنى يزيد أو يبطل بضم الياء وكسر الطاء ، أو متعلق

بيغنى عنى أن من بمعنى عن ، فيكون شيئا مفعولا مطلقا واقعا على الإغناء ، وقيل : المراد بالظن هنا ظنهم أن الأصنام تشفع لهم ، وبالحق عذاب الله ، فكأنه قيل : يوما يتبع أكثرهم فى إثبات شفاعة الأصنام إلا ظنا ، أن هذا الظن لا يدفع عنهم شيئا من عذاب الله ، وأوعدهم على الإعراض عن البرهان إلى الظن بقوله :

(إنَّ اللهَ عَليمٌ بما يفعَلُونَ) فيجازيهم عليه ، وقرأ ابن مسعود بالتاء الفوقية على الخطاب ، ثم إن بعد المنع من اتباع الظن ببيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه فقال :

(ومَا كانَ هَذا القرآن أنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ) يفترى مؤول بالمصدر ، والمصدر باسم مفعول ، أى وما كان هذا القرآن مفترى ، قاله ابن هشام ، ويجوز تقدير المضاف فلا يؤول المصدر باسم المفعول ، أى ما كان حال القرآن افتراء ، أو ما كان هذا القرآن ذا افتراء ، أى ليس مما يفتريه أحد ، وقيل : إن صلة التأكيد والافتراء الكذب ، وأصله القطع للإصلاح .

(ولَكِنْ تَصْديقَ) خبر لكان محذوفة عند الزجاج ، أى كان تصديق أو حال لمحذوف على التأويل بالوصف ، أى أنزلناه مصدقا ، وإضافته لا تفيد التعريف ، لأنه وصف للحال أو للاستقبال ، أو مفعول لأجله لذلك المحذوف ، أى أنزلناه لأجل تصديق ، وقرىء بالرفع على أنه خبر لمحذوف ، أى هو تصديق .

(الَّذى بَيْنَ يَدَيْه) أى الذى تقدمه من كتب الله كالتوراة والإنجيل

وغيرهما ، فلا يكون كذبا مع أنه معجز دونها ، ومعيار لما يزاد فيها أو ينقص منها ، وشاهد لما صح عن الله فيها ، مع أنها ليست فى بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قومه علماء بها ، وقيل : الذى بين يديه ما يأتى من أمر الغيب فى زمانه وبعده ، كأشراط الساعة .

(وتَفْصِيلَ) بالنصب والرفع علـى القراءتين ، أى نفصل (الكِتَابِ) أى ما فى الكتب من الحلال والحرام ، والأحكام والفرائض ، فالمراد بالذى والكتاب جنس الكتب ، وقيل : الكتاب ما فرضه الله .

(لا رَيْبَ) أى لا شك (فِيهِ) والجملة خبر ثان لكان المقدرة ، أو للمبتدأ المقدر فى قراءة الرفع ، أو حال من هاء أنزلناه فى أحد أوجه النصب ، أو حال من الكتاب ، ولو كان مضافا إليه ، لأن المضاف مصدر ، والمصدر عامل ، فإن الكتاب مفعول أضيف إليه المصدر أو مستأنفة .

(مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ) خبر آخر لكان ، أو المبتدأ أو حال من هاء أنزلناه أو من الكتاب ، أو يتعلق بمحذوف هكذا ، ولكن أنزل تصديقا الذى بين يديه ، وتفصيلا للكتاب من رب العالمين ، أو بتصديق أو تفصيل ، ولا ريب فيه معترض ، أو حال من هاء لا ريب فيه .

(أمْ) بمعنى بل وهمزة الإنكار أو التقرير ، فهى تتضمن إضرابا واستفهاما ، هذا مذهب سيبويه ، وقيل : بمعنى بل ، وقيل : بمعنى الهمزة ، وزعم بعض أنه قد قيل إنها بمعنى الواو (يقُولُون افْتَراهُ) محمد .

(قُلْ) يا محمد عاطفا على كلامهم (فأتُوا) الخ أو قل : إن

افتريته فأتوا (بسُورةٍ مِثْلِه) فى الفصاحة والبلاغة ، فإنكم عرب فصحاء مثلى ، وأكثر تناولا للكلام وتعاطى أحسنه واختياره ، والهاء للقرآن ، وقرأ عمرو بن فايد بسورة مثله على الإضافة ، أى بسورة كتاب مثله أو بسورة كلام مثله ، وسئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كيف نقرأ بالإضافة أو بالتنوين ؟ فقال : كيف شئت .

(وادْعُوا) للإعانة على الإتيان بها (مَنِ اسْتَطَعتُم مِنْ دُونِ الله) ولو جميع الخلائق (إنْ كُنتُم صادِقينَ) فى ادعائكم أن محمداً افتراه ، فعجزوا كما قال سبحانه : « لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

(بَلْ كذَّبُوا بما لَم يُحيطُوا بعِلْمه) وهو القرآن ، كذبوا به قبل أن يتأملوا فيما تضمنه من العلوم وفى شأنه ، فما واقعة على القرآن ، أو كذّبوا بما لم يحيطوا به علما مما ذكر فى القرآن كالبعث والجزاء ، وتحريم الميتة ونحو ذلك مما خالف دينهم ، فما غير واقعة على القرآن ، وقيل : المراد تكذيبهم بما فيه من إخبار الأمم مما لم يسمعوه ، ولا مانع من أن يكون المراد التكذيب بجميع ذلك من البعث والجزاء والاختبار ، وغير ذلك .

(ولمّا يأتِهِم تَأويلُه) ما يؤول إليه أمره من وقوع ما فيه من أخبار الغيب ، وسيأتيهم وقوعه ، أو لما يصل أذهانهم ما يؤول إليه من حقائق معانيه ، وسيصلها ، ولكن لا يقلعون عن التكذيب عنادا ، أو لما يأتهم عاقبة ما فيه بالوعيد ، وستأتيهم بيوم بدر ، ويوم القيامة ، أو لما يأتهم ما يؤول أمره من الإعجاز ، ألم يظهر لهم ؟ وقد ظهر لهم بعد أن

عارضوه فلم يقدروا ، ولما على أصلها من التوقع ، والواو للحال ، وقيل : لمــا هنا بمعنى لم لا توقع فيها ، ووقع ما نفته إنما يستفاد من خارج ، وليس بشيء ، وقيل : الواو للاستئناف وهو ضعيف ، وإنما هو للحال ، ولمــا على أصله ، فكأنه قيل : سارعوا إلى التكذيب قبل أن يحضر التأويل

(كَذَلِكَ) أى تكذيبهم (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم) أنبياءهم من غير تأمل (فانظر) يا محمد ، أو أيها الإنسان (كَيفَ) خبر متدم (كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أنفسهم وأنبياءهم بالتكذيب ، كانت عاقبتهم الهلاك ، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم •

(ومِنْهُم) من هؤلاء الكفار المكذبين ، أو من قومك المكذبين (مَنْ يؤْمِنُ بِهِ) فى قلبه ، ولا يقر بلسانه ، بل يعاند لئلا تسلب رياسته ، والهاء للقرآن •

(ومِنْهُم مَنْ لا يُؤمِنُ بِهِ) والمضارعان للحال ، وفى ذلك تفريق الكفار ، وتوهين لهم ، وزلزال بهم ، إذا خبر أن بعضهم قد آمن ، فيكون بعضهم على وجل من بعض ، وقيل : المعنى منهم من سيؤمن به ، فالقضاء لله بالإيمان به ومنهم من لا يؤمن ويموت كافرا ، فالمضارعان للاستقبال ، وهذا الثانى أولى لقوله :

(وربُّكَ أعْلم بالمفْسِدِينَ) فإن كلا ممن آمن فى قلبه ، وأنكر بلسانه ، ومن لم يؤمن أصلا مفسدا فكلاهما داخل فى قوله : « من لا يؤمن به » لأن المنكر بلسانه ، المصدق بقلبه ، كافر أيضا غير مؤمن ، فالإفساد الإصرار على الكفر بالقلب واللسان ، وعلى الكفر باللسان ،

وأما على القول الأول فالإفساد الإصرار على الإنكار باللسان ، وخص أصحابه بالإفساد ، لأن إفساد من صدق بقلبه ، وأنكر بلسانه ، أضر وأشد عليه ، وقد يقال على الأول : إن المفسدين الفريقان جميعا ، وعلى كل حال فى الأخبار بأنه أعلم بالمفسدين تهديد •

(وإنْ كذَّبُوكَ) داموا على تكذيبك بعد تلك البراهين (فقُلْ لى عَمَلى) أجازى به خيراً كان أو شراً (ولكُم عَملكُم) تجازون بـه كذلك ، وإنما يقول هذا تهديدا ومنابذة لهم ، ومعلوم أن عمله حق ، وعملهم باطل ، وقيل : لى ثواب عملى ، ولكم عقاب عملكم •

(أنتُم بريئُونَ مما أعْملُ) بعيدون عنه ، لا يصلكم منه ثواب ولا عقاب (وأنَا بَرىءٌ ممَّا تعْملُون) كذلك ، وذلك منابذة وتهديد ، وكناية عن بطلان أمرهم وضلالهم ، وهلاكهم ، على عكس من كان على الإيمان ، وذلك ثابت ، سواء أمره الله بالقتال أم لا ، وليس كما قال مقاتل ، والكلبى : أن الآية منسوخة بآية السيف ، وممن قال بنسخها ابن زيد ، ونسب للجمهور ، وهى آية مكية ، واختاره بعضهم •

(ومنْهُم مَنْ يَسْتمعُون) الواو نظر إلى معنى مَنْ (إليْكَ) إذا قرأت القرآن ، أو علمت الحلال والحرام ، أو أخبرت عن غيب بآذانهم ، ولا يؤثر ذلك فى قلوبهم ، فهم كمن لا يحسن صوتا بإذنه ، ولذلك قال : (أفأنتَ تُسْمع الصُّم) أى تجعل الذين هم صم سامعين الكلام •

(ولَوْ كانُوا) أى الصم (لا يعْقلُون) كما لا يعقل الجماد والبهيمة ، وللأصم الذى لا يسمع شيئا بحال ، لا يكون كذلك فى الغالب

إلا مع فساد العقل ، فلا سبيل إلى أن يعقل هو أو يعقله أحد ، حجة لا يقدر صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فكذلك لا يقدر على إسماع هؤلاء والتأثيرة فى قلوبهم ، لأنهم لمتابعتهم الخيال ، ومشايعتهم من القوة ، وتقليدهم الرؤساء والآباء ، كمن لا سمع له ولا عقل ، ولو كان لهم سمع وعقل يدركون به مجرد الكلام .

(ومِنْهم مَنْ ينْظُرُ إليْكَ) بعينيه ، ويشاهد بهما دلائل النبوة والصدق ، ولكن لا يؤثر ذلك فى قلبه ، ولا يصدق به ، فهو كمن لم ينظر ، ولذلك قال : (أفأَنْتَ تَهْدى العُمْى) بأن تجعل فى عيون وجوههم نورا يهتدون به حيث ساروا .

(ولَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ) أى الآية لهم يعقلون بها الهدى ، فذلك بمنزلة لا يعقلون ، عدل عنه لئلا يتكرر ، لا يقدر على ذلك ، فكذلك لا تقدر على تأثير ذلك فى قلب من ذكر ، والواو الداخلة على لو فى الموضعين للحال ، شبههم بمن هو أصم وأعمى ، والحال أيضا أنه لا عقل لهم ، فإن الأصم العاقل قد يتفرس بما رأى بعينه ، أو بدوى صوت ما إذا وقع فى صماخه ، والأعمى العاقل ينتفع بما يسمع .

ويجوز أن يراد بالصم والعمى هؤلاء المكذبون ، فكأنه قيل : أفأنت تسمعهم سماع قبول ولو كانوا لا يعقلون ، أفأنت تهديهم إلى الحق ولو كانوا لا يبصرون ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، ليدل على أنهم لا ينتفعون بسمعهم ونظرهم ، وعلى هذا فالجمع فى قوله : « العُمْى » نظر إلى معنى مَنْ فى قوله : « مَنْ ينظر » بعد مراعاة لفظها فى ينظر ، وذلك فى المعنى ، تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعليل لقوله :

« فقل لى عملى » الخ أى أعرض عنهم ، فإن كلامك لا يؤثر فيهم ، ولما كان ذلك موجبا لعذابهم ، ذكر أنهم استوجبوه بأفعالهم التى أتوها اختبارا منهم ، لا بظلم من الله تعالى عنه فقال :

(إنَّ الله لا يظْلمُ النَّاس شَيْئاً) ظلما ما (ولكنَّ النَّاسَ) أعاد الظاهر تأكيدا (أنفسهم) مفعول مقدم للفاصلة (يظْلمُون) باكتسابهم اختيارا ما يوجب عذابهم ، وذلك أيضا وعيد ، ويجوز أن يكون المعنى : إن الله تعالى لا ينقصهم شيئا مما يتوصلون به إلى مصالحهم من عقول ، وحواس ، وبعث رسل ، وإنزال كتب ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بإفساد عقولهم وحواسهم ، واستعمالها فيما يضر ، وبتكذيب الرسل والكتب ، وقرأ حمزة ، والكسائى بتشديد لكن ، ونصب الناس .

(ويَوْم) أى واذكر يوم (نَحْشُرُهُم) [وفى قراءة يَحْشُرُهم] أى هؤلاء المشركين ، فهو مفعول به لا ظرف ، نعم هو ظرف إن نصبناه بيتعارفون ، أى بيستقلون محذوفا ، دل عليه جملة التشبيه ، والواضح ما ذكرته أولا ، وقرأ بعض ، والأعمش : يحشرهم بالتحتية أى الله (كأنْ) مخففة واسمها ضمير الشأن (لَمْ يلْبثُوا) فى الدنيا أو فى القبر أو فيهما : قيل : الأول أولى ، لأن المؤمن والكافر مستويان فى عدم معرفة ما لبثا فى القبر ، فيحمل على ما يختص بحال الكافر .

(إلاَّ ساعةً) ظرف (مِنَ النَّهارِ) استقصروا لبثهم مع طوله ، لهول ما رأوا فى الحشر ، وقال الشيخ هود رحمه الله : لطول لبثهم فى النار ، وذلك أن أيام العافية تمر فى غفلة ، ولهو ، فما يشعر المغرور إلا وقد نقضت ، فكأنها قصيرة ، بخلاف أيام البلاد ، وأن لبثهم بعد

الحشر لا غاية له ، فمقامهم فى الدنيا فى جنبه كالعدم ، وأن العمر المضيع فى غير الطاعة كالعدم ، وأن كل أمد طويل إذا انقضى فهو والقصير سواء ، وخص النهار لأن ساعاته معروفة ببينة ، وجملة « كأن لم يلبثوا » الخ إنشائية عندى لا خبرية ، فلا تصح حالا ، ولكنها معمول لقول محذوف ، وذلك القول حال ، أى مقولا كأن لم ، أو قائلين كأن لم ، وصاحب الحال الضمير المستتر أو الهاء ، وعليه ففى الكلام خروج عن مقتضى الظاهر ، فإن مقتضاه كأن لم نلبث بالنون ، ففيه التفات سكاكى ، أو ذلك القول نعت لمصدر محذوف ، أى حشرا مقولا كأن لم يلبثوا قبله الخ ، ولا تكون تلك الجملة نعتا ليوم عندى ، لأنه معرفة ، فإن قوله : « يوم يحشرهم » بمنزلة يوم حشرهم ، غير أن بعض المتأخرين أجاز نعت المعرفة بالجملة والظروف ، مأولا لها بالمعرفة ، ولأنها إن شاء كما مر ، ويجوز كونها مقدرة بقول معرف يكون نعتا ، أى يوم حشرهم المقول فى شأنه كأن لم يلبثوا قبله إلى الخ .

(يتَعارفُونَ) يعرف بعضهم بعضا معرفة قليلا قدر ما تحصل المعرفة فقط (بينَهم) متعلق به ، لأنه بمعنى يوقعون المعرفة بينهم إذا بعثوا ، وينقطع التعارف بعد لشدة الأمر .

وقد روى أنه لا يعرف أحدٌ أحدا عند الميزان ، حتى يعلم أيُّ أخف أم يرجح ، وعند تطاير الصحف ، حتى تعلم أيأخذها بيمينه أو بشماله ، وعند الصراط حتى يعلم أيجوزه أم لا ، يعنى السؤال عن القناطر ، وأحوال القيامة مهولة مختلفة ، ففى بعضها يعرف بعضهم بعضا ، وفى بعضها لا يعرف أو المراد أنهم يعرف بعضهم بعضا فقط

دون أن يقدموا على الكلام هيبة وخشية ، أو المراد بالتعارف التلاوم والتلاعن ، وذلك كله بعد الحشر .

والجملة حال ثانية إذا جعلنا الأولى حالا من الهاء ، أو هذه مستأنفة متعلق بها اليوم كما مر ، أو ذلك التعارف فى الدنيا ، فتكون الجملة حالا من الواو فى « لم يلبثوا » فيفيد أنهم لبثوا وتعارفوا فى الدنيا قدر الساعة ، وأخبر الله عنهم نيته فى الدنيا بقوله :

(قدْ خَسِرَ الذِينَ كذَّبوا بلقاءِ اللهِ) شهادة عليهم ، وتعجيبا ممن خسر آخرته فى دنياه ، وذلك مستأنف ، ويجوز أن يكون ذلك معمولا لقول محذوف حال من واو يتعارفون ، أى يتعارفون قائلين تحسرا وتلهفا : « قد خسر الذين » الخ مريدين بالذين أنفسهم ، فوضعوا الظاهر موضع الضمير ، أو حال من الهاء فى نحشرهم ، أو من المستتر فيه ، أو حال من الهاء بلا تقدير قول .

(ومَا كانُوا مهْتَدينَ) عطف على خسر الذين ، أو على كذبوا ، أو مستأنف تعجيبا ممن أعطى آيات يهتدى بها إلى المصالح والفوز ، وينجوا بها من العذاب والخسران ، فضيعها بالاستعمال فيما يورثه العذاب الدائم والخسران .

(وإمَّا) إن الشرطية ، وما المؤكدة ، وأدغمت النون فى الميم ، ولذلك ساغ تأكيد الفعل بالنون (نُرِينكَ) يا محمد مضارع أرى المتعدى إلى اثنين بالهمزة ، فإن هذه الإراءة بصرية ، والرؤية البصرية تتعدى الواحد .

(بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهم) من عذاب الدنيا (أو نتَوفَّيَنَّكَ) نميتنك قبل هذا العذاب (فإلينا مَرْجِعُهم) أى رجوعهم جواب الشرط ، وما عطف عليه ، أى إلينا مرجعهم فى الآخرة للعقاب ، سواء أرنيناك أم لا ، فذلك تسلية له ، وتهديد لهم ، وقد أراه حالهم يوم بدر ، وقيل : جواب إن محذوف ، أى فذاك أغيظ لهم ، أو أشد ، يقدر قبل أو إلينا مرجعهم عائد إلى نتوفينك فكان ، أو عطفت شرطا على شرط ، وجوابا على جواب ، عطف معمولين على معمولى عامل .

(ثمَّ) لترتيب الأخبار ، ويجوز أن تكون لترتيب المعنى ، بأن يراعى فى « إلينا مرجعهم » معنى « إلينا يرجعون » وفى قوله : (اللهُ شَهِيدٌ عَلى ما يفْعلُونَ) نجازيهم على ما يفعلون ، فإن مقتضى الشهادة الحكم بموجبها ، فأطلق الشهادة على معنى ما يتولد منها ، أو أراد أنه يؤدى الشهادة عليهم ، ويلزم الحكم بها بعد ، والفرق بين الوجهين : أن الأول مجاز ، والثانى حقيقة ، وقرأ ابن أبى عبلة بفتح الثاء ، فيكون ظرفا متعلقا بمرجع أو شهيد .

(ولكُلِّ أمةٍ) من الأمم الماضية (رسُولٌ) يبْعث ليدعوهم إلى الإيمان والشريعة (فإذَا جَاء رسُولُهم) بالبينات ، ودعاهم فكذبوه (قُضِى بيْنَهم) أى بين الرسول ومكذبيه ، أو إذا جاء فصدقه بعض وكذبه بعض ، قضى بين المصدقين والمكذبين .

(بالقِسْطِ) بالعدل ، بأن ينجى الرسول ومن آمن معه ، ويهلك من كذبه ، وقيل : قضى بين أمته بتوفيق السعداء للإيمان ، وخذلان الأشقياء عدلا منه على مقتضى اختيارهم ، والأول قول الحسن ، وقال :

إنه يدعو عليهم رسولهم بإذن الله فيهلكون ، وقال مجاهد : إذا جاء رسولهم للشهادة عليهم يوم القيامة قضى بينهم بتصيير فريق إلى الجنة ، وفريق إلى النار (وهُمْ لا يُظْلمونَ) بأن يعذبوا بلا جُرْم ، أو بلا إرسال رسل ، أو بزيادة فى ذنوبهم ، ونقص من حسناتهم فاحذروا .

(ويقولُونَ) أى هؤلاء [يا] محمد والمؤمنين (مَتَى هَذا الوَعْد) أى الموعود من نزول العذاب ، وقيل : قيام الساعة ، وذلك استبطاء واستهزاء وتكذيب ، وقيل : ليعلموا الصدق فى ذلك من الكذب ، وقال عياض : الأول ما يظهر من اللفظ ، وليس كذلك ، فإنه ظاهر منه ، فإن الاستفهام عن الشىء كثيرا مما يكون إنكاراً له ، ولعله أراد أن لا يظهر ظهور الثانى ، فإن الاستفهام عليه حقيقة ، وعلى الأول مجاز .

(إنْ كُنتُم) خطاب لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل له تعظيما لأنه قد يصدر منهم التعظيم فى عباراتهم (صَادِقينَ) فى قولكم ، وقيل : القائلون كفار الأمم ، أو الخطاب لرسلهم ، ودخلت فى ذلك كفار هذه الأمة ، ورسولها صلى الله عليه وسلم أما على ما مر فقوله تعالى :

(قلْ) يا محمد الخ ظاهر ، وأما على هذا فإنه لما انقضت الأمم ورسلهم ، ولم يبق إلا هذا الرسول وأمته ، خص بالخطاب (لا أمْلكُ لنفْسِى ضَرًّا) أى دفع ضر (ولا نفْعاً) أى جلب نفع ، فكيف أملك لكم تعجيل ما استبطأتم ؟ وكيف أعرف الغيب ؟ وإنما يعرفه مالك الأمر .

(إلاَّ ما شَاءَ اللهُ) أن أملكه من دفع ضر ، أو جلب نفع ، فالاستثناء متصل ، أو لكن ما شاء الله من ذلك كائن ، فهو منقطع .

(لكلِّ أمةٍ أجلٌ) تهلك عنده (إذا جاءَ أجلُهم) بقلبه الهمزة الثانية ، وهى همزة أجلهم فتمد بها الأولى ، هذه طريقة ورش فى الهمزتين فى كلمتين إذ فتحتا ، وهى الرواية الصحيحة عنه ، وعليها جرى الإمام أبو عمر ، والحافظ المتقن الأندلسى الدانى ، ولا تقبل نسخ المغاربة القراءة على غيرها ، إذ الموجود فى صحاحها همزة بعدها ألف ، وليس على الألف همزة حمراء ولا صفراء ، ولا حركة ، فمن قرأ بغير ذلك مع ادعائه متابعة تلك النسخ فقد غلط .

وروى عنه أنه يسهل الثانية بين الهمزة والألف ، وليست النسخ على هذه ، ولو كانت عليها لكتبت على الألف همزة حمراء ، إلا « جاء آل لوط » فى الحجر « وجاء آل فرعون » فى القمر ، فيسهل قطعا ، وقرأ ابن سيرين آجالهم بالجمع .

(فلا يستأخِرُون ساعةً ولا يستَقدمُونَ) مر مثله فى الأعراف « فسيجىء أجلكم » .

(قلْ أرأيتُم) أخبرونى وقد مر بيانه ، أو يأتى (إنْ أتاكُم عذابُهُ) أى عذاب الله الذى تستعجلون به (بَياتاً) مصدر نائب عن ظرف الزمان ، أى وقت بيات ، أى نوم ، وذلك الوقت هو الليل ، وابتدأ به ، لأن مجىء العذاب فيه أفظع ، إذ هو وقت غفلة واشتغال بالنوم ، وقيل : البيات هو الليل ، سمى لأن الإنسان غالبا لا يكون إلا فى البيت ليلا ، وعلى كل حال ، فلم يقل ليلا لما فى لفظ البيات من الدلالة على اليوم الذى هو غفلة ، وعلى تبييت العدو ، وهو الوقوع عليه حيث

لا يشعر ، وقد قيل : إن البيات اسم مصدر ، ولمعنى تبييت على أنه من بيت بالتشديد (أو نَهاراً) وقت الاشتغال بطلب المعاش .

(مَاذا) خبر فمبتدأ ، وأجيز العكس ، والجملة صلة ذا ، والرابط محذوف أى يستعجله ، أو ماذا اسم واحد مركب مفعول للفعل بعده ، ويضعف جعله مبتدأ لحذفه رابطة المنصوب بالفعل ، أى يستعجله (يسْتَعْجل منهُ) أى من العذاب ، وقيل : من الله (المجْرمُون) المخاطبون ، والأصل ماذا تستعجلون منه ، وذكرهم بالفظ المجرمين ليدل على أن إجرامهم يقتضى أن لا يستعجلوا العذاب ، وأن يحبوا تأخيره ، والاستفهام إنكار ، فإن العذاب كله مكروه مر المذاق ، موجب للنفار ، فليس منه شىء يصح استعجاله ، ومن للعجب ، ومن على الوجهين للتبعيض أو للبيان .

وقال جار الله : هى فى وجه التعجب للبيان ، وجواب إن محذوف ، أى تندموا عن الاستعجال ، أو تعرف الخطأ فيه ، أو « ماذا يستعجل منه المجرمون » دليل لجواب مؤخر من تقديم المعمول لأرأيتم ، والأصل : قل أرأيتم ماذا يستعجل منه المجرمون إن أتاكم عذابه بياتا ، أو نهارا وليس هو نفس الجواب ، لأنه لم يقرن بالفاء ، مع أنه لا يصح شرطا ، وإنما صح تقدير الجواب مما بعد أرأيتم ، لا من معنى أرأيتم ، وهو أخبرونى كما يقدر من جملة الأمر فى قولك : انظر هل قام زيد إن شئت ؟ لأنه أريد هنا على ذلك الوجه الجواب بمثل ذا يستعجل منه المجرمون ، ثم هو والشرط معمول لأرأيتم كما تقول : أخبرونى هل يقوم عمرو إن قام زيد ؟ وأنت تريد معنى قولك : أخبرنى إن قام زيد فهل يقوم عمرو ؟

ولا معنى قولك : إن قام زيد فأخبرنى هل يقوم عمرو ؟ فزال الإشكال الذى أورده شيخ الإسلام كذا ظهر لى فافهم .

(أثمَّ) الهمزة من جملة المعطوف ، قدمت على العاطف لتمام الصدرية لها ، أى داخلة على محذوف ، أى أتكفرون قبل وقوع العذاب ، ثم (إذا وَقَعَ) نزل (آمنتم بهِ) بالعذاب أو بالله عند زواله ، والاستفهام إنكار بالتأخير ، فإنه لا تأخير بعد وقوعه ، ويجوز كون الهمزة داخلة على محذوف كما مر ، والمجموع معمول الأرأيتم دليل للجواب ، فيكون جملة ماذا الخ معترضة ، كما تكون معترضة إذا قدرنا تندموا ، أو تعرف الخطأ بعدها ، وقرأ طلحة بن مصرف بفتح التاء ، فيكون ثم ظرفا للمكان المجازى ، أو مستعارة للزمان متعلق بآمنتم ، وإذا أبدل منها .

(آلآنَ) بهمزة الاستفهام ممدودة ، ويمد اللام بألف ، قد كان مد الهمزة فى آن المنقول فتحها للام قبلها ، المحذوفة هى بعد نقل فتحها للام ، هذا ما ظهر لى على قراءة نافع ، وكذا الكلام فى « آلآن وقد عصيت » وإنما أردت بمد همزة الاستفهام تسهيل همزة الوصل بين الألف والهمزة ، ويجوز قلبها ألفا خالصة ، وقرأ غير نافع بإثبات همزة آن ، أو إسكان اللام قبلها ، وقرأ طلحة والأعرج ألآن بقطع الهمزة الأولى ، وفتحها على أنها للاستفهام بدون أن تمد ، وحذف همزة الوصل وإثبات همزة آن مفتوحة ، وإسكان اللام .

قال الدانى : كلهم ، يعنى السبعة ، يسهل همزة الوصل التى بعد همزة الاستفهام هنا وفى « آلآن وقد عصيت » وشبههما نحو : « الذكرين »

و « قل آلله أذن لكم والله خير » والسحر على قراءة أبى عمرو لم يخففها ، أحد منهم ، ولا فصل بينها وبين التى قبلها بألف لضعفها ، وآلآن البدل فى قول أكثر النحويين والقراء يلزمها ، انتهى والعهدة عليه ، وهو متعلق بمحذوف على تقدير القول ، أى يقال لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب تؤمنون الآن أو آمنتم الآن •

(وقَدْ كُنتُم بهِ تستَعجلونَ) تكذيبا واستعجالا ، والواو للحال ، وصاحِبُ الحال واو تؤمِنون ، أو تاء آمنتم المقدر •

(ثُمَّ قِيلَ) عطف على ذلك القول المقدر ، أى ثم يقال (للَّذينَ ظَلمُوا) أى لهم ، فذكروا بالظاهر إيذانا بأن موجب العذاب الظلم وهو ظلمهم أنفسهم بالشرك ، وظلمهم غيرهم (ذُوقُوا عَذابَ الخُلْد) أضيف للخلد لدوامه •

(هَلْ تُجْزوَن) أى لا تجزون (إلا ما كُنتُم) أى إلا جزاء ما كنتم ، أو إلا بما كنتم (تكْسِبُون) من المعاصى صغيرها وكبيرها •

(ويستَنبِئُونكَ) يطلبون منك الأنباء ، أى الأخبار (أحقٌ) خبر مقدم (هُو) مبتدأ مؤخر ، أو حق مبتدأ ، وهو فاعل أغنى عن الخبر ، لاعتماد الوصف على الاستفهام ، وهو استفهام إنكار واستهزاء ، واستظهر القاضى أنه حقيقى لقوله : « ويستنبئونك » وليس كذلك ، بل معنى « يستنبئونك » يكلفونك بصورة من يسأل ليتعلم أحق هو ، تقوية بجد أم باطل تهزل به ، ويؤيد الأول قراءة الأعمش الحق هو بالتعريف ، وقلبت همزة أل ألفا بعد همزة الاستفهام ، فإنه أدخل فى

الاستهزاء لتضمنه التعريض بأنه باطل ، كأنه قيل : أهو الحق لا الباطل ، أو أهو الذى سميتموه الحق ، والضمير للموعود به من العذاب والبعث ، وقيل : القرآن ، وقيل : ادعاء النبوة ، والجملة مفعول ثان معلق عنهـا بالاستفهام •

(قلْ إى) نعم ، وتختص فى هذا المعنى بالقسم ، فلا تستعمل فى غيره بمعنى نعم ، وقال ابن الحاجب : تختص مع ذلك لتقدم الاستفهام ، وليس كذلك قاله ابن هشام (وَربِّى إنَّه لحقٌ) قيل : وقد يتقدمها واو القسم ، ويتأخر مجروره ، تقول : « إى ربى » وسكن الياء غير نافع وأبى عمرو •

(ومَا أنتُم بمعْجِزِينَ) فائتين عذابنا وهذا يؤيد كون الضمير للعذاب ، ووجهه مع كون الضمير لغيره أن المعنى أنا نعاقبكم على تكذيبكم بالقرآن أو النبوة ولا تفوتوننا •

(ولَوْ أنَّ لِكلِّ نَفْسٍ) أى ولو ثبت أن لكل نفس ، وفيه أوجه ذكرتها فى غير هذه الآية ، والأصح عندى هذا (ظَلَمَتْ) نعت نفس ، بشرك أو نفاق ، أو تعد على الغير (ما فى الأرْضِ) من الأموال والمنافع المتملكة وغير المتملكة ، كالمعادن والكنوز الخفية ، أو فيها كله من مال وحجر ، وشجر ومدر وتراب ، وغير ذلك ، بأن يجعل ذلك كله مالا •

(لافْتَدَتْ بهِ) لسمحت به ولم تبخل ، وجعلته فدية من جزاء لظلمها ، ولا يقبل عنها ، يقال : افتدأ من كذا أى تخلص عنه بشىء ، وهذا هو المراد فى الآية ، والله أعلم على ما ظهر لى ، وليس كما قيل :

إنه من افتدأ بمعنى فداه ، لأن هذه المادة ليس مما يعمل فى ضميرين متصلين لمسمى واحد •

(وأسرّوا) أى هؤلاء المعبر عنه بكل نفس أى أخفوا (النّدامة) رؤساؤهم وأتباعهم (لمّا رَأوا العَذابَ) الشديد الذى لم يخطر ببالهم السالب لقواهم ، الباهر لهم ، حتى أنهم لا يطيقون عند رؤيته بكاء ولا صراخا ولا نطقا ، كما ترى المقدم للقتل جامدا مبهوتا •

يقال : إذا تناهى الغم انقطع الدمع ، وقيل : أسر الرؤساء الندامة عن الأتباع خوفا من تعبيرهم وتوبيخهم ، وهو ضعيف ، إذ ليس ذلك اليوم يوم تصبر وتصنع ، وليس بباق فيه ما يراعون به تعبير هؤلاء وتوبيخهم ، ولذلك قال بعضهم : أسروا بمعنى أظهروا ، وهذا إن كان لغة مسموعة فذاك ، وإلا فتوجيهه أن أفعل يكون للسلب ، كأقرد بمعنى أزال القراد ، وأعتب بمعنى أزال العتب على ما بسطته فى التصريف ، فكأنه قيل : أزالو السر أى أظهروه ، وقيل أسروا الندامة بمعنى أخلصوها ، أى توبتهم خالصة ، وذلك أن إخفاء العمل الصالح فى الجملة من إخلاصه ، أو أن العرب يعبرون عن الخالص بالسر ، من حيث إنه يخفى ويبخل به ، يقال سر الشىء كذا أى خالصه ، والكلام على هذا القول بوجهيه تهكم بهم وبأخطائهم فى إخلاص الندامة فى غير وقتها •

(وقُضِي بينَهم) بين هؤلاء الظلمة ، إذ من جملة ظلمهم تعدى بعض على بعض ، فيؤخذ من الظالم للمظلوم ، أو القضاء بينهم هو الجعل كل فى دركته التى استوجبها عمله اعتقاده ، هذا ما ظهر لى ،

وقيل : بين الظالمين والمظلومين ، ويدل له قوله : « وهم لا يظلمون » فيما قال القاضي ، ووجه الدلالة عندي أن فيه تعريضا بأنا لا نظلمكم ، كما كان بعضكم يظلم بعضا ، والله أعلم .

وقيل : بين المؤمنين والكافرين ، وقيل : بين الرؤساء والأتباع ، وقيل : بين الخلق ، ومن فسر هذه بالقضاء بين المؤمنين والكافرين لم يفسر تلك بها لئلا يلزم التكرار ، والتعبر بالماضي هنا ، وفي أسروا وبلوا التي هي حرف شرط في مضي لوجوب الوقوع .

(بالقِسْطِ) العدل (وهُم لا يُظْلمونَ) في القضاء .

(ألا إنّ لله ما في السَّموات والأرْضِ) فهو القادر على الثواب والعقاب بالعدل ، لا يظلم أحد في حقه ، وقال الطبري : له ما فيهما فلا يبقى للكافر ما يفتدي به ، قيل : هو بعيد .

(ألا إنّ وَعْد الله) بالثواب والعقاب ، أو موعوده الذي هو الثواب والعقاب (حقّ) واقع لا خُلْف فيه (ولكنّ أكْثرهُم لا يعْلَمون) ذلك ، ولم قيل : ولكنهم لا يعلمون ، لأن منهم من علم كأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو عبر بالأكثر عن كل هؤلاء الكفرة ، الذين لا يعلمون ، وقيل : الهاء للخلق ، فبعضهم آمن وأسلم ، وأكثرهم لم يكن كذلك .

(هُو يُحْيي ويُميتُ) في الدنيا ، فهو القادر على البعث ، فإن القادر بالذات لا تزول قدرته ، بخلاف القادر بالعرض ، وأنا أمثل لك بالمخلوق لتفهم المعنى وهو النار مثلا ، فإن إحراقها لما كان بالذات بخلق

الله سبحانه إياها ، كذلك لم يتصور وجودها بلا إحراق ، والمخلوقات قابلة للحياة والموت بالذات ، تعالى الله عن الجسمية والعرضية والحلول والشـــبه •

(وإليْه تُرجَعُون) بالبعث للجزاء ، وهذا نتيجة لما قبله مـــن قدرته على الإحياء والإماتة ، وقرأ عيسى بن عمرو بالمثناة التحتية ، وعن الحسن روايتان •

(يا أيُّها النَّاسُ) هذا على عمومه ، وقيل : أهل مكة ، وقيل : قريش (قَدْ جاءتْكُم موْعِظَةٌ) هى القرآن ، ونكر تعظيما ، والوعظ قول يأمر بمعروف ، ويزجر من منكر ، ويرفق تارة ، ويغلظ أخرى ، ويوعد ويعد ، وقيل : الوعظ زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل : تذكير بخير فيما يرق له القلب ، وقيل : الدلالة على ما يدعو إلى الإصلاح بطريق الرغبة والرهبة ، قبل النطق بالحكمة العلمية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومفاتيحها الفرعية ، فى المحاسن الزاجرة عن القبائح ، وبالحكمة النظرية ، وذلك كله صفة القرآن العزيز •

(مِنْ ربِّكُم) لا من عند محمد أو غيره (وشِفاءٌ) إزالة ، فاللام بعد للتقوية ، أو دواء واللام على أصلها (لما فى الصُّدور) من الشكوك والعقائد الفاسدة ، والجهات لا المهلكة ، تشبيه ذلك بالمرض ، كما دل عليه بلفظ الشفاء ، بل داؤه أضر من ذلك المرض ، وخص الصدر للذكر ، لأنه موضع القلب الذى هو أفضل عضو ، والموعظة والشفاء عامَّان بمعنى أنه فى نفسه شفاء ولو لم يستشف بـــه الكافر •

(وهُدًى) إيصال الى الحق واليقين ، وتوفيق إليهما (ورحْمةٌ

للمؤمنينَ) الذين سبقت لهم السعادة خاصة إذ نجوا به إلى نور الإيمان ، درجات الجنان ، من ظلمات الضلال ، ودركات النيران .

(قُلْ بِفَضْلِ اللهِ) متعلق بجاءت محذوفا دل عليه المذكور ، أى جاءت الموعظة بفضل الله ، وهى شفاء وهدًى ، أو بجاء كذلك ، أى جاء ذلك المذكور من الموعظة والشفاء والهدى ، أو جاءت جملة ذلك (وبرحْمتِه) أى إحسانه .

(فَبِذلكَ) من الفضل والرحمة والمجىء ، والفاء عاطفة على جاءت ، أو جاء المقدر عطف على خبر إن فليفرحوا ، طلب أولا من هذا أن تكون للاستئناف ، وبذلك متعلق بيفرحوا من قوله : « فليفرحوا » فإن فاءه صفة للتأكيد فلا تمنعهم من العمل فيما قبلها ، والواو للمؤمنين ، أو الفاء الأولى رابطة لجواب شرط محذوف ، والثانية صلة ، أى إن فرحوا بشىء فليفرحوا بذلك ، فإنه الذى من شأنه أن يفرح به ، أو بفضل متعلق بمحذوف دل عليه قوله : « فليفرحوا » أى قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، وبذلك فليفرحوا ، والتكرير للتأكيد ، وليعتنوا بفضل الله وبرحمته فليفرحوا بذلك ، والفاء على الوجهين للعطف ، واسم الإشارة نائب عن الضمير ، والأصل فيهما أو فيه يرد الضمير إلى المذكور ، ولكن جىء اسم الإشارة الذى للبعيد ، ليدل على علو شأن ما ذكر ، وقدم للاختصاص ، أى لا ينبغى أن يفرح بسوى ذلك ، وقيل : رحمته إنزال القرآن ، وعن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : بفضل الإسلام وبرحمة القرآن .

وقال أبو سعيد الخدرى : الفضل القرآن ، والرحمة جعله إياهم

من أهله ، وقال زيد بن أسلم ، والضحاك عكس قول ابن عباس ، وقيل : الفضل محمد ، والرحمة القرآن ، وقال ابن عمرو : الفضل الإسلام ، والرحمة تزيينه فى القلوب ، وقيل : فضل الله الإسلام ، ورحمته الجنة ، وقيل : الفضل القرآن ، والرحمة الستر .

وليس ذلك بشىء إلا أن روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما الوجه حمل الفضل والرحمة على العموم ، وقد قال بعض : الفضل الهداية ، والدين والتوفيق إلى اتباعه ، والرحمة والعفو ، وإسكان الجنة ، وقيل : الواو لجميع الناس المؤمن والكافر ، وإنما أمر بالفرح ، لأنه بأمر الدين ، والمذموم هو الفرح بأمر الدنيا .

وقرأ يعقوب ، والحسن ، وجماعة : فلتفرحوا بالمثناة فوق ، وهى قراءة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أصل ، وقياس من فوض مستغنى عنه بفعل الأمر ، كما أن الأصل نهى المخاطب أيضا بحرف ، ولكن لما كثر أمر المخاطب جعل بصيغة الأمر ، وقد قرأ أبى : فبذلك فافرحوا ، وكذا فى مصحفه ، ولا يقاس ذلك ، وقيل : إنه لغة لبعض العرب ، يقولون : لتقم ولتقعد ، وروى عن الحسن : فلتفرحوا بكسر لام الأمر ، وروى عن أبى بن كعب ، والحسن ، وابن القعقاع ، وابن عامر : فلتفرحوا بالإسكان والفوقية ، والصحيح عن ابن عامر التحتية .

(هو خَيْرٌ ممَّا يجْمعُونَ) من مال الدنيا ، أى مما يجمع الكفار أو الناس ، أو المؤمنون ، فإنه ذاهب ، وقرأ ابن عامر : تجمعون بالفوقية أى فليفرح المؤمنون بذلك ، لأنه خير مما تجمعون أيها المخاطبون ،

والخطاب للمؤمنين أيضاً على الالتفات ، وكذا قرأ ابن جعفر ، وقتادة بالتحية فى يفرحوا ، والفوقية فى تجمعون فى رواية عنهما .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ، وابن القعقاع ، وابن عامر ، والحسن : تفرحوا وتجمعون بالفوقية ، وعن الحسن أيضا بالتحتية فيهما .

ويكتب : « قل يا أيها الناس » إلى « يجمعون » ويمحا بماء ، ويضاف إليه سكر لألم البطن ، والخفقان ، والرجيف ، ويشرب فيزول ذلك بإذن الله تعالى .

(قلْ) يا محمد لكفار مكة (أرأيتم) أخبرونى (ما) مفعول مقدم بقوله : (أنزلَ) وهى استفهامية ، وجملة أنزل (اللهُ) مفعول لأرأيتم معلق عنها بالاستفهام ، كما تقول : أخبرنى هل قام زيد ؟ أو ما مفعول لأرأيتم ، وهى موصولة ، والجملة بعدها صلة ، والرابط محذوف أى مـــا أنزله الله .

(لكُم مِنْ رِزْقٍ) بيان لما على الوجهين ، أو من الرابط المحذوف ، فهو حال من ما أو منه ، أو نعت لما ، فإنه لا مانع عندى من نعت ما الاستفهامية ، وكم الخبرية والاســـتفهامية ، ووجه كونه حال مـــن ما الاستفهامية ، مع أنها نكرة ، أن تقدم الاستفهام مسوغ بمجىء الحال من اسم الاستفهام نفسه ، بل قد تقدم عليها استفهام آخر ، فإن لفظ أرأيتم استفهام ، والمراد بإنزال الرزق خلق الرزق ، أو إنزال الرزق بالواسطة ، لأنه بوسائط سماوية كالمطر وحرارة الشمس ، فجعله كأنه

منزل بنفسه ، ولأنــه مقدر فى اللوح المحفوظ ، وعلى أيــدى ميكائيل وأعوانه ، والمراد من الرزق ما حل منه ، فإنه يطلق على الحلال والحرام ، ودل على هذه الإرادة بقوله : « لكم » فلذلك وبخهم على تحريم بعضه إذ قال : (فجَعَلْتُم مِنْه حَراماً) كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والنصيب من الحرث لشركائهم وترك ما فى بطون الأنعام يحرمونه على أزواجهم .

(وحَلالاً) هو غير ذلك مما قالوا بحليته ، وهو حلال ، أو أراد بالحلال حلال شرعا ، والميتة ونحوها من المحرمات ، فإنها عندهم حلال فيكون المعنى إن الله سبحانه وتعالى أنزل لهم الرزق الحلال ، وبين لهم الحرام ، كالميتة ، وتركوا هذا التشريع واخترعوه شرعا ، بأن حرموا بعض ما أحل الله ، وحللوا ما حرم ، ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف مفعول ثانٍ مقدم ، وقيل : هى ومدخولها فى مقام المفعول الأول ، لأن المعنى فجعلتم بعضه ، وقيل : اسم مضاف للضمير المفعول الأول .

(قُلْ آللهُ أذِنَ لَكُمْ) فى التحليل والتحريم ، هذا إنكار وتوبيخ واستفهام على الأسلوب الحقيقى (أمْ عَلى اللهِ تفْتَرونَ) إذ كانوا ينسبون ذلك إلى الله ، أو يعتقدون إصابة الحق فى ذلك عند الله ، وذلك افتراء منهم فى الحقيقة ، وأم متصلة عاطفة لتفترون على أذن لكم ، ويجوز كونها منقطعة ، أى بل تفترون على الله ، أو بل لتفترون على الله ، فهى بمعنى بلا وبل وهمزة التقرير ، ويجوز أن يكون قل توكيد للأول ، وقوله : « آلله أذن لكم أم على الله تفترون » عائد إلى قوله : « أرأيتم » مستأنف علي جعل ما موصولة ، أو مفعول ثان معلق عنه ، وبدل من ما على

جعلها استفهامية ، ولذلك قرن بهمزة الاستفهام ، وبدلوا لمضمن الهمز يلى همز ، أو صح جعل الجملة بدلا من مفرد لتأويلها بالمفرد ، ومن قال شيئا فى أمر الحلال والحرام والحكم ، غير مستند إلى مجتهد ، ولا إلى اجتهاد نفسه إن كان مجتهدا دخل فى الآية .

(وما ظنُّ الذينَ يفتَرون عَلى الله الكَذبَ) ظن مصدر مضاف لفاعله (يَومَ) متعلق بظن أى ما ظن المفترين على الله يوم (القيامة) أيظنون أن لا يعاقبوا على الافتراء ، وهذا وعيد عظيم حيث أبهم الأمر ، فإنه قال بعد ذلك يعاقبهم أهول عقاب ، وظنهم إن ظنوه فى ذلك اليوم باطل فى غاية الرداءة .

وقرأ عيسى بن عمرو : وما ظن الذين بفتح نون ظن على أن ما مفعول لظن ، وظن فعل ماض ، أى به لأنه يوم القيامة واقع لا محالة ، والذين فاعل ، والاستفهام على كل حال توبيخ ، ويجوز أن يكون يوم القيامة متعلق بمحذوف ، أى ما ظنهم اليوم أن يفعل بهم يوم القيامة ، فيكون الظن على هذا فى الدنيا كذا ظهر لى فتأمله .

(إنَّ اللهَ لذُو فَضْلٍ) إنعام بالعقل والرسل ، والكتب المبينة للحلال والحرام وبالإمهال (عَلى النَّاسِ ولكنَّ أكثَرهم لا يشكُرونَ) النعم بالائتمار والانتهاء .

(ومَا) نافية (تَكُونُ) يا محمد (فى شأنٍ) بهمزة ساكنة ، وقرأ بألف أى لا تكون فى أمر من الأمور عظيم أو غير عظيم ، وقيل : لا يطلق إلا على الأمر العظيم ، وقيل : المراد هنا من الآخرة ، وعليه ابن

العباس ، وقال الحسن : أمر الدنيا ، وأصله شأنت شأن زيد أى قصدت قصده ، وقد قال بعض : إنه فى الآية مصدر على هذا الأصل .

(ومَا) نافية (تَتْلُوا منْهُ) أى من شأن متعلق بمحذوف وحال من قرآن لتقدمه ولتقدم النفى (مِنْ) صلة للتأكيد (قُرآنٍ) مفعول تتلوا ، ومن الأولى للتبعيض ، وذلك أن من جملة الشأن القرآن ، بل هو معظمه ، فيكون ذكره بعد تعميم الشأن تشريفا له بتخصيصه بالذكر ، والمراد بقرآن ، بعض القرآن ، فإن لفظ القرآن يطلق على كله وبعضه .

ويجوز كون من الأولى تعليلية أى وما تتلوا قرآنا لشأن ، ويجوز كون من الأولى أيضا ابتدائية متعلقة بتتلوا ، فإن التلاوة من الشىء جلب منه ، ومن زعم أن من التبعيضية اسم مضاف ، أو أنها وما بعدها نائبان عن اسم ، أجاز أن يكون من الثانية تبعيضية مفعولا وحدها ، أو مع ما بعدها لتتلوا ، وقيل : الهاء للقرآن أضمر له ، قيل : ذكره تفخيما له ، أو أضمر له لتقدمه فى قوله سبحانه وتعالى : « قل فبفضل الله وبرحمته » وقد مر أن القرآن يطلق على البعض أيضا ، فمن الأولى تبعيضية متعلقة بمحذوف حال من قرآن ، أو ابتدائية متعلقة بتتلوا ، والثانية صلة للتأكيد ، وقيل : الضمير لله سبحانه وتعالى ، فمن الأولى أيضا تبعيضية متعلقة بمحذوف حال من قرآن ، أو ابتدائية متعلقة بتتلوا ، والثانية صلة .

(ولا تعْملُونَ مِنْ عَمَلٍ) خطاب للأمة بما يتناول الأمر العظيم وغير العظيم ، بعد تخصيص رئيسها صلى الله عليه وسلم بالخطاب المتناول لذلك ، أو للأمر فقط على ما مر ، ويجوز أن يكون الخطابان الأولان شاملين معنى للأمة ، ولو كان اللفظ لرئيسها ، كما تخاطب الرعية

بخطاب رئيسها ، ويدل لذلك هذا الخطاب الثالث ، وعمل مصدر على معنى الحدث ، أو مفعول به على معنى المعمول أو على تضمين تعملون معنى توقعون .

(إلاَّ كنَّا عليْكُم شُهوداً) رقباء ، والمراد الله أو هو وملائكته (إذْ تفيضُونَ فيه) تشوعون ، وأصل الإفاضة الاندفاع ، وأجاز بعضهم كون همزة أفاض للتعدية ، فالمفعول محذوف ، أى تفيضون أنفسكم وهو غير محتاج إليه ، وتكلف وضعيف .

(وما يعزُبُ) وقرأ الكسائى هنا وفى سبأ ، وابن وثاب ، والأعمش ، وطلحة بن مصرف بكسر الزاى ، قال أبو حاتم هو لغة أى وما يبعد وما يغيب (عَنْ ربكَ مِنْ) صلة للتأكيد (مِثْقالِ) فاعل أى وزن (ذَرَّةٍ) النملة الصغيرة جداً ، أو حبة هباء ، مثل بذلك لأنه مما ظهر صغره .

(فى الأرْضِ) قدمها هنا ، لأن الكلام فى حال أهلها ، وأنه لا يخفى من عملهم شيء ، فهو مجازيهم على أعمالهم ، وذلك بالنظر للذكر ، وإلا قالوا ولا تفيد الترتيب ، بل هى عند عدم القرينة كالآتيان بالتثنية .

(ولا فى السَّماءِ) خصهما لأن العامة لا تعرف يومئذ سواهما ، ولو عرفت العامة اليوم سواهما ، والمراد بذلك البرهان على إحاطة علمه تعالى بكل ما عملوا .

(ولا أصْغَرَ مِنْ ذَلكَ) مثقال أو المذكور من الذرة ، وقدم

المصغر والأصغر ، لأنه إذا علمهما فأحرى أن يعلم غيرهما (وَلا أكبرَ) أى كبير ، لأن مثقالها غير كبير ، فضلا عن أن يقال : ولا أكبر منه ، فأكبر خارج عن معنى التفضيل ، ويجوز بقاؤه عليه ، فتقدر من التفضيلية ، أى ولا أكبر منه ، فإن مثقالها كبير بالنسبة إلى ما دونه كذا ظهر لى ، والفتحة فى أصغر وأكبر نائبة عن الكسر للعطف على لفظ مثقال ، وقرأ حمزة برفعهما عطفا على التقدير .

(إِلَّا فى كِتابٍ مُبينٍ) اللوح المحفوظ ، أو فى علم الله ، والمبين الظاهر أو المظهر لما فيه ، والاستثناء منقطع أى لكن جميع الأشياء فى الكتاب المبين ، ويجوز أن يكون أصغر بالفتح اسما للا ، وأكبر اسما للا الثانية ، وما بعد الأخير لإحداهما ويقدر مثله للأخرى ، أو أكبر معطوف على أصغر ، ففتحته إعراب على هذا ، لأن أصغر على جعله اسما للا معرب لعمله فى المجرور ، فالخبر للا الأولى ، وأن يكون أصغر بالرفع مبتدأ وأكبر بالرفع معطوف عليه ، والخبر ما بعد إلا ، وعلى هذه الأوجه يكون الكلام مستأنفا يوصف على ما قبله مقرر لمقابله ، والاستثناء متصلا ، ولو جعلناه متصلا على الوجه الأول الذى هو العطف على مثقال لكان المعنى : إنما فى الكتاب يعرف عنه وهو فاسد ، وكذا إن جعلنا متصلا ، وجعلنا العطف على ذرة .

ويجوز أن يكون متصلا على معنى إنما أيخرج عن ربك إلى الوجود من مثقال ذرة الخ ، إلا وهو فى كتاب مبين ، ويقوى العطف على مثقال أنه لم يقرأ أحد فى سبأ إلا بالرفع ، إذ لم يكن حافظ ، وأجيز أن يكون

لا عاملة عمل ليس فى قراءة الرفع ، وخبرها محذوف ، أى يعزب ذكر بعض ذلك ابن هشام .

(ألاَ إنّ أولياءَ اللهِ) وهم الذين تولوا الله بالطاعة ، واشتغلوا بها ، والدعاء إليها ، وتولاهم الله بالكرامة والهداية ، وفى الحديث : « إنهم الذين يُذكَر الله برؤيتهم وبذكرهم » وذلك أن هيئتهم فى أعمالهم تدل على الله ويخشعون ، وزيد فى رواية : ويذكرون بذكر الله وفى حديث : « إنهم المتحابون فى الله ، لا فى مال ولا نسب ولا دنيا ، يكونون تحت ظل العرش ، على منابر من نور ، وعلى وجوههم نور ، يتمنى حالهم الأنبياء والشهداء » وقيل : من استغرق فى الله إذا رأى دلائل قدرة الله ، وإذا سمع سمع آيات الله ، وإذا نطق نطق بالثناء على الله سبحانه وتعالى ، وإذا تحرك أو اجتهد أو فكر ففيما يقربه إلى الله ، وقال ابن زيد : أو المتكلمون من صح اعتقاده ، وأدى الفرض واجتنب المعصية كما أشار إليه بقوله : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

(لا خَوفٌ عَليْهم) من لحوق مكروه (ولا هُم يحزَنُون) بفوات مأمول ، لأنهم لا يفوتهم ، ولا بما فاتهم من الدنيا ، لأنهم لم يضيعوها ، بل اشتروا بها الجنة ، ولا بعذاب يلحقهم ، إذ لا عذاب عليهم ، وذلك فى الآخرة .

وقيل : لا يخافون فى الدنيا أحدا ، ولا يحزنون على فوات شىء منها ، لأن الولاية والمعرفة منعهم من ذلك ، فهم لقربهم من الله ، ونصر

الله لهم على النفس والشيطان ، لا يخافون ولا يحزنون بذلك ، وهــذا إنما يصح فى خواص المؤمنين ، وأما إذا فسرنا الأولياء بالمؤمنين المؤدين للفرائض ، المجتنبين للمعاصى ، فذلك فى الآخرة ، لأنهم لا يخافون فى الدنيا من خوف وحزن ، لأنها مخلوقة على نكد وهم وغم ، قال بعضهم : الآية مجملة فسرت بقوله :

(الذِينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقونَ) فيكون منصوبا ، أو مرفوعا على المدح ، أعنى الذين ، أو هم الذين ، أو نعت لأولياء ، وعلى أنهم غير الأولياء المذكورين يكون مبتدأ خبره (لَهم البُشْرى) وقيل : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » بيان لتوليهم الله ، وقوله : « لهم البشرى » (فى الحَياةِ الدُّنيا وفى الآخرةِ) بيان لتوليه إياهم ، أما البشرى فى الدنيا فهى تبشيرهم فى القرآن ، وأمره الله بتبشيرهم ، مثل : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم » الخ و : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » الخ « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .

وعلى لسان نبيه عموما وخصوصا وتبشير الملائكة لهم بالجنة عند الموت ، وفى الرؤيا الصالحة ، وفيما يمنح لهم من المكاشفة ، وفى الثناء عليهم من غير تعرضهم له ، بل يخلصون لله ويخافون ، فيضع الله لهم المحبة فى قلوب الخلق ، ويفيض نور قلوبهم على وجوههم ، وفى حديث عن أبى ذر : « إن ذلك عاجل بشرى المؤمن » .

وروى أبو الدرداء ، وعبادة بن الصامت ، وعمران بن حصين ،

وابن عباس ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » .

قال عمرو بن دينار : قدم علينا فقيه من أهل مصر ، فسألته فقال : سألت أبا الدرداء ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « رؤيا المؤمن الصالحة يراها أو يرى له » وما سألنى عنها أحد غيرك منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروت عنه أم كرز : ذهبت النبوة ، وبقت المبشرات يعنى الرؤيات ، وورد أنه إذا قرب الزمان لم تكدر رؤيا المؤمن كذب ، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، وأن رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، خصت بالمسلم لأنه الذى تفرغ قلبه لله ، فما رآه أو رئى له فمن الله ، والمعنى أنها تأتى على موافقة النبوة ، أو أن فيها إخبارا بغيب لا جزء من النبوة حقيقة .

ووجه العدد أنه صلى الله عليه وسلم رأى الوحى فى المنام ستة أشهر ، وفى اليقظة عقب ذلك ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح ، وستة الأشهر جزء من الستة والأربعين جزءا المنقسم إليها الثلاث والعشرون ، وعلى كل حال فأمر الرؤيا متأكد .

وقد تكون الرؤيا تخزينا من الشيطان ، وقد تكون مما يحدث المرء نفسه ، وتفسير البشرى فى الحديث بالرؤيا الصالحة يحتمل أن يكون تمثيلا ، ولذا جعل الثناء من البشرى العاجلة ، فنص على أن البشرى العاجلة على أقسام منها هذا .

وأما رواية أبى هريرة : لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة ،

فمعناها من المبشرات الغيبية كالنبوة ، وقول بعض : إن الرؤيا جزء من النبوة فى حق الأنبياء دون غيرهم صحيح ، على أنه أراد أنها جزء منها حقيقة ، والأنبياء يوحى إليها فى المنام ، كما يوحى إليهم فى اليقظة ، بل وحى بعضهم رؤيا فقط .

والبشرى فى الآخرة ، والبشرى فى الجنة بعد الموت زيادة على البشرى قبلها ، زيادة فى الفرح ، ولأنه ينسى للهول ، وبياض الوجوه ، وإعطاء الصحائف بأيمانهم ونحو ذلك .

(لا تبْديلَ لكلمات اللهِ) لا خلف لمواعيده مما أنزله على رسله ، وما لم ينزله ، وهذه تهنئة للمؤمنين تتضمن تهديدا للكافرين ، إذ يلقون وعيدهم لا محالة ، وعن ابن عباس ، وابن عمر : المراد كلمات القرآن ، أطال الحجاج الخطبة وقال : إن عبد الله بن الزبير قد بدل كتاب الله ، فقال له ابن عمر : إنك تطيق ذلك أنت لابن الزبير ، لا تبديل لكلمات الله ، فقال له الحجاج : لقد أعطيت علما .

(ذَلِكَ) المذكور من البشرى فى الدنيا والآخرة ، أو ما يقع به التبشير (هو الفوز العظيم) ومعنى تسمية جار الله هاتين الجملتين المعترضتين مع أنهما لم تقعا بين متلازمين ، كالفعل والفاعل ، والفعل والمفعول ، لأنهما ليستا من جنس ما قبلهما ، لكن جىء بهما تتميما له وتقوية ، وهذا ما ظهر لى ، فليس من الاعتراض النحوى .

(ولا يحزُنك) وقرأ غير نافع بفتح الياء ، يقال : أحزنه وحزنه

بالتخفيف بمعنى واحد (قَوْلهم) محكية محذوف ، أى أنك مجنون ، أو شاعر ، أو ساحر ، أو كاذب ، ولست مرسلا ، وإن الأوثان آلهة ونحو ذلك ، أو القول بمعنى المقول ، وهو أيضا ما ذكر أو تهديدهم وتشاورهم ، أو الحديث فى تدبير هلاكك ، وإبطال أمرك ، وينبغى الوقف عليه بأن قوله :

(إنَّ العزَّةَ لله جَميعاً) ليس محكيا به ، بل مستأنفا للتعليل ، فهو استئناف بيانى كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فأجيب بذلك ، وعلى طريقة كلام العرب والعادة ، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول بعد النهى عن الحزن : مالى لا أحزن ، ويدل لذلك قراءة أبى حيوة بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل ، أى لأن العزة وهى الغلبة لله كلها ، لا يملك غيره شيئا منها ، فهو ينصرك ويعزك .

وقول ابن قتيبة : لا يجوز فتح إن فى هذا الموضع ، وإن فتحها كفر غلو باطل عندى ، بل فتحها عندى أولى ، لأنه لا يوهم الحكاية بخلاف الكسر ، ولعله أراد الفتح على اعتقاد البدلية من القول ، وإن ثبوت العزة لله لا يحزنه ، وجميعا حال من الضمير المستتر فى قوله : « لله » .

(هو السَّميعُ) لأقوالهم (العَليمُ) بما فى قلوبهم وأفعالهم فيجازيهم على ذلك ، فلا تكترث بقولهم ، فذلك تتميم للنهى عن الحزن ، وقيل : يفتخر المشركون بكثرة الأموال والأولاد والعبيد ، فنزل : « إن العزَّة لله جميعا » فالعزة به لا بكثرة ذلك ، وهو قادر على سلب ذلك ، وعلى الإذلال ، وسامع لافتخارهم ، وعالم بما يصلح .

(ألا إنَّ لله مَنْ فى الأرْض) من الملائكة والإنس والجن ، مملوكين

ومربوبون له ، ليس فيهم رب ، فكيف تكون الجمادات أربابا شركاء لله ، فلا شريك له على الحقيقة كما قال .

(وما) نافية (يَتَّبِعُ الذِينَ يَدْعُون مِنْ دُون اللهِ) الذين فاعل ، ومفعول يدعون محذوف ، أى آلهة من دون الله فى زعمهم (شُرَكاءَ) مفعول يتبع ، أى لم يتبعوا شركاء حقيقة ، وإن سموهم شركاء ، ويجوز أن يكون شركاء مفعول يدعون ، ومفعول يتبع محذوف ، أى ما يتبعون يقينا ، وإنما يتبعون ظنهم أنهم شركاء ، ويدل لذلك قوله :

(إنْ يَتَّبِعُون إلاَّ الظَّنَّ) ظنوهم شركاء فعبدوهم ، وظنوها تشفع لهم ، ويجوز كون ما استفهامية مفعولا ليتبع استفهام إنكار وتوبيخ ، وشركاء مفعول يدعون ، وكونها موصولة على من الأولى أو الثانية ، والرابط محذوف ، وتقديره وما يتبعه ، وشركاء مفعول يدعون ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : تدعون بالفوقية على استفهامية مفعول يتبع ، والذين واقع على آلهتهم ، وواو تدعون للمشركين ، والرابط محذوف مفعول به أول ، وشركاء مفعول ثانٍ ، على أن تدعون بمعنى تسمون ، أو الرابط مفعول ، وشركاء حال منه ، على أن تدعون بمعنى تعبدون ، أو تطلبون .

والمعنى أى شىء يتبع آلهتكم الذين تدعونهم شركاء ، وهـــذا إنكار لأن تكون آلهة تابعة بغير الله ، إذ هى فى نفسها تابعة لله لا لغيره ، موحدة له ، فكيف تدعونها شركاء ، فهذا إلزام بعد احتجاج بأن له من فى السموات ومن فى الأرض ، والغيبة على هذا فى قوله : « إن يتبعون إلا الظن » .

(وإن هم إلا يخرصون) ملتفت عن الخطاب إليها ، لبيان أن المستند الظن ، والخرص على الله أى الكذب عليه ، أو التقدير والتحرير أنها شركاء تقديرا وتحريرا باطلا ، ونبه على كمال قدرته ، وعظيم نعمته ، والمنفرد هو بهما ، ليدل على تفرده في العبادة بقوله :

(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى خلقه لكم ، فجعل متعد لواحد ، أو جعله مظلما فهو متعد لاثنين ، والظلمة جامعة للبصر ، فلا تتعب العين ، فيكون النوم ، فيستريحون فى الليل من تعب النهار ، ولا يمكن فيه التصرف .

(والنهار مبصراً) أى جعل النهار مبصرا ، حال من النهار بمعنى خلق النهار مبصرا مفعول ثان ، على أن الجعل على بابه ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز ، لوقوع الإبصار فيه ، أو لأنه سبب للإبصار ، أو مبالغة كأنه فى نفسه مبصرا ، وبمعنى ذا إبصار ، أو هو من أبصر المتعدى ، أى مبصر إياكم ، أى جاعلا لكم باصرين ، قال القاضى : ولم يقل لتبصروا فيه للفرق بين المجرور والظرف ، الذى هو سبب وهو الليل ، ونقول : ذكر من الليل السكون ، وحذف الإظلام ، ومن النهار الإبصار ، وترك ذكر التصرف فيه ، فحذف من كل ما ذكرها فى الآخر مقابلة ، وذلك السكون مسبب عن الإظلام ، فدل عليه ، والإبصار سبب التصرف فدل عليه .

(إن فى ذلك لآيات) دلائل على وجود الله ووحدانيته ، وتفرده بالربوبية والعبادة (لقوم يسمعون) سماع تفهم ، وخصهم لأنهم المنتفعون بالآيات ، وأراد بالآيات ما دلهم وأوصلهم ، وهذا مختص بهم .

(وقالوا) أى اليهود والنصارى ، وطائفة من العرب قائلون : الملائكة بنات الله ، وقيل : نزلت الآية فى هذه الطائفة ، وتعم غيرهـا (اتخذ الله ولداً) اتخاذ الولد ولادته ، وقيل : المراد تبنيه وهـو أنسب لقوله : « اتخذ » .

(سبحانه) تنزيها وتبرئة له عـن الولادة ، لأنها من صفات الأجسام ، ومستلزمة التخيير ، أو عن التبنى ، فإنه إنما يصح معنى يتصور له الولد ، وذلك متضمن أيضا للتعجب مع ما أفاده من التنزيه والتبرئـة .

(هو الغنى) على الإطلاق ، لا يحتاج إلى الصاحبة ، ولا إلى ولد ، ولا إلى تبنيه ، فهذا تعليل للتبرىء عن الولد ، أو عن تبنيه إذ ذلك للاحتياج ، والله منزه عن الاحتياج .

(له ما فى السموات وما فى الأرض) فهو مستغن بهم عن الولد ، وعن تبنيه ، وما للعاقل وغيره ، فكل ما فيهن ملك له وعبيد (إن) مـا (عندكم من) صلة للتأكيد (سلطان) برهان (بهذا) أى على الذى قلتم ، أو فى هذا متعلق بمحذوف نعت لسلطان ، أو متعلق بـه كأنه قيل : احتجاج صحيح على هذا ، أو فى هذا بالخبر المتعلق بـه عندى ، إن جعل سلطان مبتدأ ، وبفعل إن جعل فاعلا ، أو بعند بنيابته عن ذلك ، فما أجهلهم ، وأبطل قولهم يتثبتوا بما لا حجة عليه .

(أتقولون على الله ما لا تعلمون) توبيخ لهم على اعتقاد ما علم لهم بصحته ، بل قامت دلائل بطلانهم ، فإن التقليد فى العقائد لا

يجوز ، بل يجب الإدراك ، ولو كانت ابتداءة فيها بالتقليد ، وكل قول لا دليل له جهل كما تخبر بذلك الآية •

(قُلْ إِنَّ الذِينَ يفْتَرونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ) بنسبة الولد ، أو تبنيه إليه ، وإضافة الشريك إليه (لا يُفْلِحُون) لا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنة ، ولا يظفرون ببغيتهم ، وهنا وقف تام •

(متاعٌ فى الدُّنيا) خبر لمحذوف ، وتنكيره للتحقير ، أى ذلك المذكور من افترائهم تمتع قليل متنقص حقير فى الدنيا ، يقيمون بــه رئساتهم بالكفر ، ومعاداتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حياتهم متاع ، أو تقلبهم متاع ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى لهم متاع فى الدنيا يليه الشقاء المؤبد كما قال •

(ثمَّ إلينا مَرجِعُهم) أى رجوعهم بالبعث بعد الموت (ثُم نُذيقُهم العَذابَ الشَّديد بما كانُوا يكْفُرونَ) بسبب كونهم يكفرون ، أو بسبب الكفر الذى يكفرونه ، وذلك جحود النعم ، والوصف بما لا يليق •

(واتْلُ اقْرأ (عَليْهم) أى على كفار مكة وغيرهم (نَبَأَ) خبر (نوحٍ) مع قومه لتهددهم به ، وتعظهم للتسلى بــه (إذْ) بدل من نبأ بدل اشتمال ، باعتبار الجملة المضاف هو إليها بعد (قالَ لقَومِه يا قَوْم) هم بنو قابيل فيما قيل ، والواضح أن فيهم سواهم ، لكن الكل كفار •

(إنْ كانَ) أى هو ، أى الشأن ومقامى فاعل كبر ، ويجوز كون مقامى اسم كان ، وفى كبُر ضميره ، لأنه فى نية التقديم ، ولا بأس

بتأخيره الاسم عن الخبر الفعلى ، إذ لم يكن ليس أو كان زائدة (كَبُرَ عَلَيْكم) ثقل عليكم وشق (مَقامِى) لبثى فيكم مدة طويلة ألف سنة إلا خمسين عاما ، وكان كلامه عليه السلام هذا فى آخر المدة فيما قيل ، وقيل : إنه لم يتعرض لهم بعد الأمر باتخاذ السفينة ، أو مقامى نفسى كما يقال : إلى حضرة فلان ، وإلى جناب فلان ، وفعلت كذا لمقام فلان ، أى لفلان وإلى فلان ، ومنه : « ولمن خاف مقام ربه » أى خاف ربه ، أو قيامى على الدعوة وعلى رجلى كعادة الخطباء .

(وتَذْكِيرِى) إياكم أى وعظى (بآياتِ اللهِ) حججه وبيناته (فَعَلَى اللهِ) لا على غيره (توكّلتُ) وهذا نائب عن جواب محذوف ، أى فافعلوا أى ما شئتم من ضر ، أو فلن أبالى بضركم ، ودل على ذلك أن من شق عليه من إنسان أمر يعاقبه .

(فأجْمِعُوا) بقطع الهمزة وكسر الميم عند نافع وغيره (أمْرَكُم) أى فأحكموا أمركم ، واعزموا عليه ، يقال : أجمع أمره أى أحكمه وعزم عليه (وشُرَكاءَكُم) مفعول معه لا معطوف على أمركم ، لأن أجمع بالهمزة لا يتعلق بالذوات كالشركاء ، بل بالمعانى كالأمور ، تقول : أجمعت رأيى ، ولا تقول : أجمعت شركائى لنقسم ما اشتركنا ، ويجوز العطف بتقدير مضاف ، أى وأمر شركائكم ، وأن يكون مفعولا لمحذوف ، أى وأجمعوا شركاءكم بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع الثلاثى ، فإنه يتسلط على الذوات والمعانى ، أو ادعوا شركاءكم ، كقوله : علفتها تبنا وماء .

وفى مصحف أبىّ فاجمعوا أمركم ، وادعوا شركاءكم ، وهو دليل

على تقدير ادعوا ، وقرأت فرقة وشركائكم بالخفض ، وأمر شركائكم كقوله :

أكل امرىء تحسبين امرأ
ونار توقد بالليل نارا

أى وكل نار ، وهو دليل على عطف شركاء بالنصب على أمركم بتقدير مضاف كما مر ، وقرأ أبو عبد الرحمن ، والحسن ، وعيسى ، وسلام ، ويعقوب ، وأبو عمرو ، وفى رواية ضعيفة عنه بالرفع عطفا على الواو ، لوجود الفاعل ، وهو دليل النصب على المعية فى قراءة النصب ، وقرأ الأعرج ، وأبو رجاء ، وعاصم فى رواية ، والجحدرى ، والزهرى ، والأعمش ، ونافع فيما روى عنهم الأصمعى : فاجمعوا أمركم وشركاءكم بوصل الهمزة ، وفتح الميم ، ونصب الشركاء عطفا على أمركم بلا تقدير من جمع كذا إلى كذا ، أمرهم أن لا يألوا جهدا فى إهلاكه ، فإنه واثق بالله ، غير ميال بهم ، وإنما أمرهم أن يستعينوا بالأصنام تعجيزا لها ، وتهكما عليهم ، إذ اعتقدوا أنها تضر وتنفع .

(ثمَّ لا يَكُن أمرُكُم عَلَيكُم غُمَّة) ظاهرة أنه نهى الأمر أن يكون غمة عليهم ، والمراد نهيهم عن أن يحولوا أمرهم مستورا عليهم ، أى على بعضهم ، يعنى إعملوا كلكم فى أمركم الذى تكيدوننى بـه ، واعملوا به كلكم ، وأشهروه أو نهيهم عن أن يجعلوا أمرهم غمة عنـه عليهم ، أى سرا مقصورا عليه ، مستورا عنه ، ويجوز أن يكون المراد بالأمر حالهم فى حياتهم ، والغمة الغم والهم ، أى أهلكونى فلا تكون

معيشتكم منغصة عليكم بتذكيرى ووعظى ، وعليكم حال من غمة أو متعلق به .

(ثم اقْضُوا إلىَّ) أى امضوا فى الأمر الذى تريدونه من إهلاكى ، وأوصلوه إلىَّ ، ويجوز أن يشبه هلاكه بدين يرونه حقا عليهم ، كما يرى الرجل قضاء الدين واجبا عليه ، ورمز لذلك بلفظ القضاء ، فيكون ذلك من الاستعارة بالكناية ، كذا ظهر لى ، وقرىء ثم افضوا إلىَّ بالفاء أى انتهوا إلىَّ بشركم ، أو اخرجوا به إلى الفضاء ، كقولك أصحر الرجل أى خرج إلى الصحراء ، والمراد أظهروه إلىَّ ، ومن ذلك قولى فى عدو :

فإن كان مصحراً إلىَّ بسيفه
فإنى لمصحر إليه ومسحر

أى خارج إلى الصحراء فى شأنه ، وخارج لذلك سحراً مبكراً .

(ولا تُنْظِرُونِ) لا تمهلونى ولا تأخرونى ، فلست مباليا بكم .

(فإنْ تولَّيتُم) أعرضتم عن تذكيرى (فما سألتُكُم مِنْ) صلة مؤكدة فى المفعول (أجْرٍ) على تذكيرى ، وهذا تعليل نائب عن جواب الشرط الأصلى ، فإن توليتم لم أبال ، ولم يشق علىَّ ، لأنى ما سألتكم أجرا على ذلك يفوتنى بتوليكم .

(إنْ أجْرِىَ) بفتح الياء عند نافع ، وابن عامر ، وأبى عمرو ، وحفص ، وإسكانها عند غيرهم ، وكذا حيث وقع (إلاَّ عَلَى اللهِ) لأنى ما ذكرتكم إلا له (وأمِرْتُ أنْ أكُونَ) بأن أكون (مِنَ المسْلِمِينَ)

المؤمنين بالله ، آمنتم أو كفرتم ، أو المنقادين لحكم الله ، لا أخالف أمره ، ولا أرجو غيره ، ولا آخذ أجرة على دينه ، ولا يستفزنى ما قضاه علىَّ من مكروه يصلنى منكم فى ذاته .

(فَكَذَّبُوهُ) داموا على تكذيبه بعد إلزام هذه الحجة ، وبعد تبيين أن توليهم محض عناد ، وذلك مشعر بهلاكهم ، فكأنه قال : فكذبوه فأهلكناهم بالغرق (فَنَجَّيْنَاه) من الغرق (وَمَنْ مَعَه فى الفُلْكِ) السفينة ، وكانوا بثمانين أو ثمانية ، نوحا وامرأة معه مؤمنة ، وبوه سام وحام ويافث ونساؤهم .

(وجَعَلْنَاهُم خلائفَ) يسكنون الأرض بعد هؤلاء المكذبين الذين أهلكناهم بالغرق (وأغْرَقْنا الَّذين كذَّبُوا بآياتنا) بالماء الطائف بهم ذكر هذا ، لأن ما مر مشعر به إشعارا لا مصرح به ، فإن تكذيبهم وتنجية نوح ومن معه ، وكون التنجية فى الفلك وجعلهم خلائف دلائل على ذلك لا تصريح بالإغراق أو للتأكيد ، لأن ذلك فى قوة التصريح ، أو لإرادة معنى قولك : حقت كلمة العذاب على هؤلاء لتكذيبهم ، فنجينا نوحا ومن معه ، وأغرقنا هؤلاء .

(فانْظُرْ) يا محمد ، أو أيها الإنسان مطلقا (كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُنْذَرِينَ) إذا لم يتبعوا منذريهم ، كانت عاقبة عظيمة فى الدنيا ، يعقبها العذاب الدائم ، فاحذروا أن يصيبكم مثلها .

(ثمَّ بعثْنَا مِنْ بَعْدِه) بعد نوح (رُسُلا إلى قَوْمهم) إضافة القوم للهاء جنسية ، فالمراد الأقوام ، أى أرسلنا كل رسول إلى

قومه ، كإبراهيم ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب (فَجاءُوهُم بالبيِّناتِ) الدلائل الواضحات .

(فما كانُوا ليؤمِنُوا) انتفى عنهم لإيمان انتفاء بليغا لتمردهم فى الكفر ، وخذلان الله لهم (بمَا كذَّبُوا بهِ مِنْ قَبلُ) قبل بعث الرسل ، وذلك أنهم كانوا أهل جاهلية مكذبين بجنس ما جاءت به الرسل ، ويجوز أن تكون الباء سببية ، أى بسبب الحق الذى كذبوا به من قبل ، فإن ذلك الحق من حيث إنه كذبوا به ؛ مسبب للتكذيب بما جاءت الرسل به ، أو المعنى من قبل التفكر ، أى فما كانوا ليؤمنوا بذلك المذكور من الآيات بعد تكذيبهم به عقب مجيئه بلا تفكر ، أو فما كان تلك الأقوام ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبلهم .

(كذَلكَ نطْبعُ) أى مثل ذلك الطبع المحكم نطبع ، وقرىء بالمثناة التحتية (علَى قلُوبِ المعْتَدينَ) المنهمكين فى الضلال طبعا تابعا ، ومقتضى لكسبهم الذى هو فعل لهم ، وخلق لله لا جبرا وظلما والمعتدون كفارة هذه الأمة ، أو هؤلاء الأقوام ، أو على العموم ؛ فالمعنى نطبع عليكم كما طبعنا على هؤلاء الأقوام ، و على هؤلاء الأقوام ، كما طبعنا على قوم نوح ، أو على كل معتد ، كما طبعنا على من ذكر .

(ثمَّ بعثْنا مِنْ بَعْدهم) بعد تلك الرسل (مُوسى وهارُونَ إلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ) قومه أو عظمائه ، والبعث إلى السلطان أو عظمائه بعث إلى الرعية (بآياتنا) وهى الآيات التسع (فاستَكبرُوا) عن الإيمان بها (وكانُوا قَوماً مُجْرمينَ) ذوى آثام عظام ، فلذلك

اجترءوا على الاستكبار عنها ، وأعظم الكبر أن يتهاون العبد لما قد تحقق له أنه رسالة من ربه •

(فلمّا جاءهُم الحقُّ) الكامل الذى عرفوه حقاً (مِنْ عندِنا) لا من عند موسى وهارون (قالوا) لعجزهم عن معارضته بما يبطله أو يضعفه (إنْ هذا لسِحْرٌ مبين) ظاهر على سائر السحر ، أو ظهر أنه سحر لا يشك أنه حق •

(قالَ موسَى أتقولُون للحقِّ لما جاءكُم) محكى القول الأول هو القول الثانى ، ومحكى الثانى محذوف ، أى أتقولون للحق لما جاءكم إنه سحر ، ويجوز تقدير مفعوله مفردا فى معنى الجملة ، أى أتقولون بالحق لما جاءكم ذلك ، أى ذلك المذكور من قولهم : « إن هذا لسحر مبين » ويدل على الوجهين السياق السابق واللاحق •

ويجوز أن يكون تقولون بمعنى تعيبون وتطعنون ، فاللام بمعنى فى ، ولا مفعول القول ، يقال : فلان يخاف القالة ، أى العيب ، وبين الناس تقاول ، أي تعايب كما قيل فى : « سمعنا فتى يذكرهم » أي يعيبهم يسمون العيب قولا ، لأن العيب والطعن يكونان باللسان ، وليس المحكى هو قوله :

(أسحرٌ هذا) بل هذا من مقول موسى كما قال ابن هشام ، وقيل : من كلام الله إنكارا لما قالوا ، وتوبيخا لهم عليه ، لأنهم قالوا : إنه سحر مبين على سبيل القطع كما مر ، لا على طريق الاستفهام ، اللهم إلا

أن يكون ذلك محكيا من طريق المعنى ، على أن الهمزة تعظيم منهم للسحر الذى رأوه من موسى فى زعمهم ، فإن قولهم : « إن هذا لسحر مبين » بثلاثة تأكيدات ، والوصف بالإبانة ، وقولهم : « أسحر هـذا » بأداة التعظيم بمعنى واحد ، وإلا أن يكون محكيا مفهوما من كلامهم على أن الهمزة للتقرير ، أى أقررنا موسى بأن هذا سحر ، وقيل : إن هذا من مقول طائفة منهم جاهلة للأمر ، فهى تستفهم وهو ضعيف .

(ولا يُفْلِح السَّاحِرُونَ) من كلام موسى ، أو من كلام الله ، لأنهم يفتضحون ببطلان سحرهم ، وظهور أنه تمويه ، وكان سحرهم نوعا من تخييل بآلات وأدوية ، ولو كانت تلك الآيات سحرا لاضمحلت ، ولكانت غير مبطلة لسحرهم ، ولكانت غير مفلح ، وهذا كناية عن أنهن غير سحرة ، فإن من علم أن الساحر لا يفلح لا يسحر ، أو من كلامه عـلى جعل « أسحر هذا » محكيا بقولهم : « وجعل » الهمزة فيه للتقرير ، كأنه قيل : أجئتنا بالسحر تطلب بـه الفلاح ، ولا يفلح الساحرون .

(قالُوا أجِئْتنا) بذلك السحر (لتَلْفِتَنا) تصرفنا (عمَّا وجَدْنا عَلَيه آباءنا) من عبادة الأصنام (وتَكُونَ) وقرىء بالتحتية لظهور مرفوعة ، مع مجازية تأنيثه ومع الفصل (لكُما) لك ولهارون (الكِبْرِياءُ) الرياسة أو الملك ، فيكونون سموا الملك بالكبرياء لاتصاف الملوك بها ، وبالتكبر على الناس ، وعن الزجاج : سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من الدنيا ، ويجوز أن يكون المراد ذمهما بأنهما يريدان أن يتجبرا وحاشاهما من ذلك ، والكبرياء مصدر .

(فِى الأَرْضِ) حقيقة الأرض ، أو الأرض المعهودة بالحضور ، وهى أرض مصر (وما نحنُ لكما بمؤْمِنينَ) أى بمصدقين لكما ، فاللام للتقوية ، أو بمنقادين لكما فهى على أصلها .

(وقالَ فِرْعونُ ائْتُونى بكلِّ سَاحر عَليمٍ) مبالغا فى السحر ، وقرأ حمزة والكسائى : بكل سحار عليم ، وذلك ليقابل به ما جابه موسى ، فيلبس على الناس ، ويخيل لهم أنما جاء به سحر .

(فلمَّا جاءَ السَّحرةُ قالَ لَهم مُوسَى أَلْقُوا ما أنتُم مُلْقُونَ) الرابط عندى منفصل منصوب ، أى ملقون إياه ، وقالوا : الأصل ملقوه ، فحذف الرابط متصلا مخففا ، فرجعت النون لأنه لا فصل مع إمكان الاتصال ، وعندى أنه لا فصل مع إمكان الاتصال ، إذا كان الاتصال والانفصال على طريق واحد ، وإعراب واحد ، فليس من ذلك أن يكون الاتصال على طريق الإضافة ، والإعراب بالجر ، والانفصال على طريق المفعولية ، والإعراب بالنصب ، وملقون مستقبل أو ماض مؤول بالإرادة ، أى ما أنتم مريدون إلقاءه .

(فلمَّا أَلْقَوْا) ما هُم ملقُون (قالَ مُوسَى ما جِئْتُم بهِ) ما موصولة مبتدأ (السِّحرُ) خبر وتعريف مسند ، والمسند إليه للحصر ، أى ليس للحصر ما جئتم به إلا سحر ، وأل للحقيقة ، أى السحر متحقق فيما جئتم به صادق عليه ، لا فيما جئت به ، وسماه فرعون وقومه سحرا ، وقال الفراء ، وابن عطية : أل للعهد ، لأنه قد ذكر منكرا ، ويرده اختلاف

مدلول سحرين ، فإن المعرف سحرهم ، والمنكر ما أتى به موسى ، إلا إن أراد بالهدية ما أشعر به لفظة سحر ، فإن مدلولها حقيقة السحر ، ولو كانوا كاذبين .

وقرأ ابن مسعود : ما جئتم به سحر ، قال ابن هشام : هذه القراءة مبينة لكون السحر خبرا للمبتدأ إنتهى ، وكذا قراءة أبيّ : ما أتيتم به سحر ، وقرأ أبو عمرو : آلسحر بهمزة الاستفهام ومد الصوت ، وكذا قرأ أبو جعفر ، قال ابن هشام : فيكون ما مبتدأ استفهامية ، وجئتم به خبرا ، والسحر خبر لمحذوف ، أى هو السحر ، أو مبتدأ لمحذوف ، أى السحر هو انتهى .

ويجوز كونه بدلا من ما الاستفهامية ، وبدل المضمر الهمزة يلى همزا ، ويجوز كون ما مفعولا لمحذوف على الاشتغال ، أى أىّ شىء أتيتم جئتم به ، أو يقدر المحذوف جئتم متعدى بنفسه ، وعلى الاشتغال تمتنع البدلية والاستفهام للتحقيق .

(إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ) يمحقه ، أو يظهر بطلانه على يدىَّ ، وهذا مستأنف ، ويجوز جعل السحر مبتدأ وهذا خبره (إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ) لا يثبته ولا يحسنه ، وهذا تعليل للإبطال ، والمفسدون على عمومه ، أو أراد به السحرة ، فالأصل لا يصلح عملكم ، وعبر بالظاهر ليدل على أنهم مفسدون ، وذلك قبل أن يؤمنوا ، وكذا الكلام فى المجرمين بعد ، على أن ذلك من كلام موسى ، وأما على أنه من كلام الله ،

فالمراد من هو مفسد ومجرم لا السحرة ، لأنه فى علمه يؤمنون على أن سماهم بذلك لظاهر عملهم ، كما سمى المشرك الذى سبق فى علمه أنه سيؤمن مشركا *

(ويُحِقُّ اللهُ الحقَّ بكلماتِهِ) أو أمره قضاياه ، أو بمواعيده وقرأ كما مر بكلمته على الإفراد ، والإضافة للجنس ، فهو كالجمع ، وقيل : الكلمة الوعد (ولَوْ كَرِهَ المجْرِمُونَ) *

تؤخذ جرة ماء من مطر فى الجبل بحيث لا يراه أحد ، وجرة من ماء بئر معطلة ، ويؤخذ يوم الجمعة سبعة أوراق من سبعة أشجار ، لا يؤكل لها ثمر ، ويخلط المائين ، ويلقى فيهما الأوراق ، ثم يكتب : « فلما جاء السحرة » إلى « المفسدين » أو « المجرمين » فى طاس ويغسلها بالماء ، ويغتسل به المسحور على شاطىء بحر ليلا ، ويجعل رجليه فى بحر ، ويصب الماء على رأسه ، يبطل سحره الذى أعيا الأطباء إن شاء الله إحقاقه ، وإحقاق الحق إظهار أنه حق ، أو جعله غالبا ، وقد بلعت العصا سحرهم ، وأغرق من لم يؤمن *

(فَمَا آمنَ لموسَى) انقاد له ، أو صدق بموسى ، أو صدق له بما جاء به فى مبتدأ أمره (إلاَّ ذُرِّيةٌ مِنْ قَومِهِ) أى طائفة من قوم فرعون ، كمؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته ، وخازنه ، وامرأة خازنه ، والماشطة ، وقيل : كان هؤلاء شبانا ، فالذرية على ما يتبادر ، وقيل :

شبان منهم هؤلاء وغيرهم ، وقيل إلا أولاد من قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل اتبعوه ، ولم يتبعه الآباء خوفا من فرعون ، وقيل : شبان من قومه ، مات آباؤهم ، وقيل : شبان وهبوا حين ولدوا للقبطيات يربينهم خوفا من أن يقتلوا ، آمنوا حين غلب موسى السحرة .

وقال الفراء : كان آباؤهم من القبط ، وأمهاتهم من بنى إسرائيل ، وقيل : إلا ذرية من قوم موسى ، وهم من أرسل إليهم من نسبه وقبط ، وما آمن منهما إلا ثمانون رجلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الاهتمام بإيمان قومه ، والاغتمام بإعراضهم عن الإيمان ، فسلاه الله سبحانه وتعالى بأنه لم يؤمن لموسى إلا قليل ، وكان ما جاء بـه أمرا عظيما .

(عَلَى) أى مع (خَوْفٍ) (مِنْ فِرعَوْنَ ومَلَئِهم) أى ملا ذلك القوم المذكور ، على أنه قوم فرعون لعنه الله ، أو على أنه قوم موسى ، وكانوا يمنعون أولادهم خوفا عليهم وعلى أنفسهم ، فهم خائفون من فرعون وآبائهم أو ملأ هؤلاء الذرية ، وهو قول الأخفش ، وسعيد ابن سعدة ، وهم آباؤهم أو أشراف بنى إسرائيل للخوف على الكل أو ملأى فرعون ، وجمع ضميره على ما هو المعتاد فى ضمير العظماء ، كما يعبر عن الأصنام بما يعبر به عن العقلاء على إعادة أهلها ، أو فرعون اسم لآ له ، كما تسمى القبيلة باسم أبيها كربيعة ومضر ، فيكون ذلك بمنزلة على خوف من آل فرعون وأشراف آله .

(أنْ يفْتِنَهم) بدل اشتمال من فرعون لا من الضمير كما قيل : ولو رجع إلى فرعون ، أو مفعول للخوف ، أو مقدر بمن ، وذكر ابن هشام : أن من رد ضمير ملئهم إلى فرعون على أنه اسم للقبيلة بكون يفتن على قوله مراعا فيه اللفظ ، قال : فإن قيل : ضمير ملئهم عائد إلى مذكور وهو فرعون ، ومحذوف استلزمه المذكور وهو قوله ، والمعنى أن يعذبهم ويصرفهم عن الإيمان بما وجد ، ولم يقل أن يفتنوهم للدلالة على أن الخوف من الملأ كان لسبب فرعون ، وكان ملاه تابعا ، لأمره ، وإن قلنا : إن الملأ أشراف بنى إسرائيل أو الآباء ، فقد زعم أنه لم يحفظ عن طائفة من بنى إسرائيل أنها كفرت ، فمنعهم الاذرية خوفا منه .

(وإنَّ فِرعَونَ لَعالٍ) غالب قاهر : متكبر باغ (فى الأرْضِ وإنَّه لمنَ المسْرِفينَ) فى العلو حتى ادعى الربوبية ، واستعبد بنى إسرائيل وهم ذرية أنبياء .

(وقالَ مُوسَى) لما رأى خوفهم منه (يا قَوْمِ إنْ كنتُم آمنتُم باللهِ) قد علم أنهم آمنوا ، ولكن أراد التأكيد ، وأراد إيمانا صادقا (فَعليْهِ) لا على غيره (تَوَكَّلُوا) اعتمدوا (إنْ كُنتُم مُسْلمينَ) مخلصين الإيمان ، أو مستسلمين للقضاء ، هذا الشرط قيد للأول فكأنه قيل : إن كنتم آمنتم بالله ، وكنتم مسلمين ، فعليه توكلوا ، كقولك : إن أحسن إليك أحد فكافئه إن قدرت ، فليس ذلك من تعليق الحكم بشرطين بلا تبعية .

ويجوز أن يكون الثانى بدلا من الأول ، لكنه ضعيف بالفصل ، أو

الفاء داخلة على أن الثانية وما بينهما معترض دليل جوابها ، فكأنه قيل : إن كنتم مؤمنين ، فإن كنتم مسلمين فعليه توكلوا ، فالثانى وجوابه جواب الأول ، وكذا يقدر الجواب على الوجه الأول للشرط الثانى ، لكن مدلولا عليه بجواب الشرط الأول ، وأما على الوجه الثانى فالجواب للشرط الثانى على ما رجحوا من مراعاة البدل ، أو للشرط الأول ، وعلى الأوجه الثلاثة يكون المعلق بالإيمان وجوب التوكل ، فإنه المقتضى له ، والمشروط بالإسلام حصوله ، فإن التوكل لا يكون مع التخليط ، وقدر بعضهم للشرط الثانى جوابا هكذا فامضوا على ما أمركم الله به •

(فقَالُوا عَلَى اللهِ تَوكّلْنا) كانوا مخلصين ، فأجاب الله دعاءهم فنجاهم من فرعون ، فلم يهلكهم وأهلك من خافه ، وجعلهم خلفاء فى الأرض ، فمن أراد التوكل فليرفض التخليط ، وفضلت الخاصة فى التوكل على العامة بدوام سكون القلب عن الاضطراب ، فاستراحوا من عذاب الحرص ، وفكوا من أسر الطمع ، وأعتقوا من عبودية الدنيا وأبنائها ، وخصوا بالروح فى الدارين ، ويتولد ذلك من لزوم المعرفة ، وترك الحيل ، ومن الممارسة حتى يألف ويختار •

(ربَّنا لا تَجْعلنا فِتنةً للقَوم الظَّالمِينَ) فرعولا ومن على دينه ، أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا أو يضرونا بالعذاب ، فالمعنى موضع فتنة ، أو مفتونين ، أو لا تجعلنا سبب افتتانهم فى الدين ، بأن تعذبنا أو يعذبونا ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما عذبوا ، أو لما سلطنا عليهم ، وفسره مجاهد بهذا المعنى الأخير بوجهيه المذكورين •

(ونجّنا برحمْتِك مِنَ القَوم الكافِرينَ) فرعون ومن علـى دينه ، وكانوا يستعملون بنى إسرائيل فى الأمور الشاقة ، ويعنفونهم على ما تخيل لهم من مخالفة دينهم ، فالمراد نجنا من كيدهم ، وشؤم مشاهدتهم ، وقد أجاب الله دعاءهم ، فينبغى للداعى أن يقدم على دعائه التوكل ليجاب كما فعل هؤلاء •

(وأوْحَينا إلى مُوسَى وأخِيهِ أنْ تبَوّءا) أى أن يتخذا يقال تبوأ مكانا ، أى اتخذه مباءة أى مرجعا يلجأ إليه ، وأفردهما لأن التبوأ للقوم واتخاذ المواضع للعبادة مما يتعاطاه رؤساء القوم بتشاور (لِقَوْمكما بِمِصْرَ) فى مصر وهو دار المملكة فى تلك الجهة ، وعن مجاهد : مصر ما بين أسوان والإسكندرية معهما ، وقيل : المراد هنا الإسكندرية (بيُوتاً) للسكنى أو للعبادة ، وقيل : من بوأت مباءة أى موضعا يرجعون إليه ، وهذا الاشتقاق صالح فى كل بيت للسكنى ، أو للعبادة أو لغيرهما •

(واجْعَلُوا بيُوتكُم) الإضافة للعهد الذكرى ، فهى البيوت المأمور باتخاذها (قِبْلةً) أى مصلى ، لأن موضع الصلاة تستقبل فيه الجهة المأمور باستقبالها ، وقال ابن عباس : موجهة إلى القبلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير بيوتكم ما استقبل به القبلة » وعن ابن عباس وجماعة : مساجد متوجهة نحو القبلة ، وهى بيت المقدس ، وقيل : الكعبة ، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة ، بل قيل عن الحسن : إن قبلة النبيين كلهم الكعبة ، إلا ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، ثم صرف عنه إلى الكعبة ، أمر قوم موسى

بالصلاة فى بيوتهم خفية فى أول الأمر بعد رسالة موسى ، لأن فرعون والقبط يؤذونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، وكانوا قبلها فى مساجد ظاهرة ، فخربها بعدها •

وقيل : اجعلوا فى بيوتكم قبلة تصلون إليها ، وقيل : ابنوا بيوتكم متقابلة ، أو اشتروها كذلك ، فلا يكون فيها سواكم ، وإنما خاطب الكل هنا ، لأن الصلاة والاستقبال مما يفعله كل مسلم لا يختصان بالرؤساء ، وكذا اتخاذ بيوت السكنى أو المساجد ، وكذا الخطاب فى قوله :

(وأقيمُوا الصَّلاةَ) فى البيوت خفية لئلا تفتنوا ، وقيل : المراد بالبيوت مساجد ظاهرة ، وضمن الله لهم أن لا يصلهم مكروه من فرعون على ذلك (وبشِّر المؤمِنينَ) بالنصر والجنة ، لم يجمع هنا لأن التبشير فى الأصل من وظيفة صاحب الشريعة ، ولـم يخاطب معها هارون لأن الرسالة لموسى أعظم وأغلب ، وهارون تابع له وقال الطبرى ، ومكى : « وبشر المؤمنين » خطاب للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول ضعيف •

ينقش « وأوحينا » إلى قوله : « وبشر المؤمنين » « وإن يمسسك الله بضر » إلى « الرحيم » فى قطعة سكر بإبرة حديد ، ويقرأ : وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو الشافى ، ويذاب بماء عذب أخذ من النهر ليلا عند طلوع الفجر ، ويشر به المريض فيبرأ بإذن الله تعالى ، وعن هبيرة ، عن حفص : أنه وقف على تبوآا بإبدال الهمزة ياء ، والصحيح أنه وقف بالهمزة كما هو الواضح •

(وقالَ موسَى ربَّنا إنَّكَ) وقرأ الفضل الرقاشى أءنك على الاستفهام (آتيْتَ فِرعَوْنَ ومَلاه زِينةً) ما يتزين به من لباس ودواب ، وغلمان وفرش ، وأثاث البيت الفاخر ، والأشياء الجميلة (وأمْوالاً فى الحياةِ الدُّنيا) قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانت لهم من فسطاس مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة ، وزبرجد وياقوت ، وقيل : كان لفرعون وأصحابه من الذهب والفضة ، والياقوت والجواهر والحلى ، ما لا يحصيه إلا الله ، وكان ذلك مما جمعه يوسف فى زمانه فى أيام القحط ، أراد موسى الدعاء عليهم ، لإصرارهم ، فقدم ذكر ما كان سببا لكفرهم وإصرارهم وهو الزينة والمال .

(ربَّنا) نداء آخر مؤكد بالأول ، أو لا يقدر حرف النداء فيه ، لكنه تأكيد لقوله : « ربنا » لا له لحرف النداء (ليضِلُّوا) متعلق بآتيت ، ويجوز تعليقه بآتيت محذوفا داخل عليه قوله : « ربنا » فيكون منادى بحرف محذوف ، وغير تأكيد للأول ، وسواء فى ذلك كله جعلت اللام للتعليل أو للعاقبة أو للدعاء ، ومعنى التعليل أنك آتيته زينة وأنواعا من المال استدراجا للضلال ، وبه قال الفراء .

ومعنى العاقبة : أنك آتيتهم ذلك ، فكانت عاقبتهم الضلال ، وبها قال الأخفش ، وفى معنى ذلك جعلها للتعليل المجازى لمَّا تسببوا بها إلى الضلال ، فكأنهم أوتوها ليضلوا .

ومعنى الدعاء : أنه لما علم بالوحى ، أو بممارسة أحوالهم أنهم لا يؤمنون ، دعا عليهم للضلال على طريق قولك : لعن الله إبليس ، وبه

قال ابن الأنبارى ، وعليه فيضلوا مجزوما ، وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما من الكوفيين بضم الياء ، أى ليضلوا غيرهم ، فاللام للتعليل أو للعاقبة (عَنْ سَبِيلِكَ) دينك .

(ربَّنا اطْمِسْ عَلى أمْوالهم) قال مجاهد : أهلكها ، وقيل أزل صورها وهيئتها ، وقال قتادة والجمهور : امسخها ، وقرأ الفضل الرقاشى : اطمس بضم الميم .

(واشْدُدْ عَلى قلُوبهم) اطبع عليها بالخذلان (فَلاَ يؤمنُوا) الفاء سببية فى جواب الدعاء ، ولا نافية ، والفعل منصوب ، وقال الأخفش : عطف على يضل ، ولا نافية ، والفعل منصوب ، وما بينهما اعتراض ، وقال الفراء ، والكسائى : لا للدعاء ، والفعل مجزوم ، فالفاء عاطفة على اطمس أو اشدد ، وهذا الدعاء على الطريقة المذكورة فى قوله : « ليضلوا » .

(حتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ) أراد الحقيقة ، وعن ابن عباس : هو الغرق ، وهذا إنما يصح إن كان موسى علم أنهم يغرقون ، أو أراد أنه الغرق فى نفس الأمر ، ولو لم يدر موسى أنه الذى يصيبهم ، وجعل رواية العذاب غاية نفى الإيمان المطلوب شرعا ، فإنه لا ينفصل حين رأوا به العذاب ، لأنه مطلوب قبلها ، وأما بعدها فلا ينفع ، وإن وجد فليس بالمطلوب ، أو أراد إثبات الإيمان عندها ، لأنه لا ينفع ولا يخرج عن الكفر ، قال محمد بن كعب : وكان الداعى موسى وهارون ، وهارون يقول :

آمين ، والتأمين دعاء ، لأن معناه استجب ، ولذلك أضاف الدعاء إليها فى قوله :

(قالَ) الله (قَدْ أجِيبَتْ دَعْوَتُكما) ويجوز أن يكونا جميعا يدعون ، ولم يذكر إلا دعاء موسى ، وقرىء دعواتكما بالجمع ، قال ابن جريج : كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة ، أقامها فيهم بعد الدعاء ، مسخ الله سكرهم ، ودنانيرهم وأموالهم حجارة .

أوحى الله إلى موسى : أنى مورث بنى إسرائيل ما فى أيدى فرعون من العروض والحلى ، وجاعله لهم جهازا وعمارا إلى الأرض المقدسة ، فاجعل لذلك عيـــدا تعتكف أنت وقومك وتذكروننى فيه ، وتظموننى ، وتعبدوننى ، لما أريكم من الظفر ، ونجاة الأولياء ، وهلاك الأعـــداء ، وتستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلى ، وأنواع الزينة ، فإنهم لا يمتنعون عليكم بالبلاء النازل عليهم فى ذلك الوقت ، ولما قذف فى قلوبهم من الرعب .

فاستعاروا فأعارهم فرعون وقومه ما فى خزائنهم ، وفى أيـــدى أهليهم من الحلى كله ، وأتم موسى الدعاء ، فمسخ الله ما بقى فى أيديهم من مال ودنانير ، ودراهم وخيل ، ورقيق وزروع ونخل حجارة .

قال محمد بن كعب القرظى : كان الرجل مع أهله فى فراشه ، فصارا حجرين ، والمرأة قائمة تخبز صارت حجرا ، وذلك من عبيدهم وإمائهم ، لأنهم مال ، وكما دعى موسى بطمس الأموال .

قال رجل من أهل الشام كان بمصر : رأيت نخلة مصروعة ، وإنها لحجر ، ورأيت إنسانا وما أشك أنه إنسان ، وإنــه لحجر ، وكان ذلك الإنسان من الرقيق ، ولم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ، إلا ما فى أيدى بنى إسرائيل من الزينة .

قال محمد بن كعب : سألنى عمر بن عبد العزيز عن الآيات اللاتى أراهن الله عز وجل فرعون وقومه ؟ فقلت : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد البيضاء ، والطمث ، وفلق البحر .

قال عمر : كيف يكون الفقيه إلا هكذا ، ثم دعا بخريطة كانت فيها أشياء أصيبت لعبد العزيز بن مروان من بقايا مــال فرعون ، فأخرج البيضة مشقوقة نصفين وإنها لحجر ، والجوزة مشقوقة وإنها لحجر ، والحنطة والعدســة .

قال ابن عباس : أول الآيات العصا وآخرها الطمث ، قال : بلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا ، قال السدى : مسخ الله أيضا طعامهم حجارة.

(فاسْتَقيما) دوما على الاســتقامة فى الدين والدعوة ، وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ، فإنما طلبتما واقع لوقته ، داما أربعين سنة ، فأهلك الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه ، وطمس مالهم ، ولم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وهو الغرق .

(ولا تَتَّبعانّ) لا نــاهية ، نهاهما عــن الاتباع ولــم يكونا

اتبعا قط تأكيدا ، والفعل مجزوما بحذف ، ثم أكد بالنون الشديدة كسرت تشبيها بنون الرفع بعد ألف الاثنين ، وبنون المثنى ولو كان فيها نونان ، لأن الأولى مدغمة فكأن لم تكن ، وكل منهما نون زائدة بعد ألف ليست من نفس الكلمة ، واغتفر التقاء الساكنين ، لأن الأول ألف لا يمكن تحريكه ، ولو حذف لم يكن عليها دليل فى الخط ، بل ولا فى اللسان ، لأن النون تفتح من بعد حذف الألف ، ولو حذفت المدغمة لا لتبست الباقية بنون الرفع ، ومن أجاز وقوع الخفيفة بعد الألف أجاز أن تكون هذه المدغمة نون الرفع على أن لا نافية ، والواو حالية أو استئنافية ، والمكسورة نون التوكيد كسرت على أصل التخلص من التقاء الساكنين مع التشبيه بنون يقومان ، ونون الزيدان ، •

وقرأ أبو عمرو فى رواية ابن ذكوان بتخفيف النون ، على أنها نون الرفع ، ولا نافية ، وتشديد التاء ، وقيل : هى نون التوكيد الخفيفة كسرت لالتقاء الساكنة ، وتشبيها بنون يقومان والزيدان ، ولا ناهية ، وتلك الرؤية هى المشهورة عن أبى عمرو •

وروى بعض رجاله الذين يروون عنه أنه سكن التاء الثانية ، وفتح الباء الموحدة ، وشدد النون مكسورة ، وروى بعضهم أنه قرأ بهذا الضبط ، لكن خفف النون ، وهى كما مر نون الرفع ولا نافية ، والجملة حال أو مستأنفة ، وعلى النفى فإنما ساغ التوكيد على القلة ، وقاسه بعض ، أو لأن هذا النفى فى معنى النهى ، قالوا : وللعطف على هذا الوجه •

(سَبِيلَ الَّذِينَ لا يعْلَمونَ) فى الاستعجال ، أو عدم الوثوق والسكون إلى وعد الله وهم الجهلة مطلقا ، أو المشركون •

(وجَاوزْنَا) وقرأ الحسن : وجوّزنا بالتشديد بمعنى واحد كضاعف وضعف بالتشديد بمعنى واحد (ببَنى إسْرائيلَ البَحْرَ) والباء معاقبة للهمزة المعدية إلى مفعول آخر ، كأنه قيل : صيرناهم مجاوزين البحر ، حتى بلغوا الشط ، حافظين لهم ، أو الباء صلة فى المفعول الأول ، أما جاوز فتعديه إليه كالتعدية فى سايرته ، غير أن هذا متعد إلى واحد ، قيل : بخلاف سار فإنه لازم ، وأما جوّز فتعديته إليه بالتضعيف ، ويجوز كون الباء بمعنى مع •

(فأتْبعَهُم) أى تبعهم ، فهو لموافقة المجرد ، أو بمعنى أدركهم ، يقال : تبعه حتى أتبعه ، أى حتى أدركه ، ومر مثله فى الأعراف (فِرْعَون وجنُودُه بغياً وعَدْواً) حالان ، أى باغيين وعاديين ، أى ذوى بغى وعدو أو مبالغة ومفعول لأجله ، قيل : البغى الظلم ، والعدو ومعادات القلب ، وقيل : البغى طلب الاستعلاء بغير حق ، العدو والظلم ، وقيل : البغى فى القول ، والعدو فى الفعل ، وقرأ الحسن بضم العين والدال وتشديد الواو •

خرج موسى فيما قيل : من مصر فى ستمائة ألف سوى الحشم ، ولما أدركهم فرعون قالوا : أين ما وعدنا ربنا من النصر ؟ هذا البحر أمامنا إن دخلنا غرقنا ، وفرعون خلفنا إن أردر كنا قتلنا ؟ وكان فرعون على

حصان أدرهم ، وفى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه ، سوى سائر الألوان ، وكان جبريل على فرس أنثى ، ومكائيل يسوقهم حتى لا يشرك واحد منهم ، ولم يكن فى خيل فرعون أنثى ، ولما وصل البحر قال لقومه : انظروا كيف انفلق البحر لهيبتى ، حتى أدرك اعدائى الذين أبقوا منى ، فادخلوا البحر ، فهابوا ، فحضر جبريل بفرسه المذكورة ، وهى كحائل مشتهية للفحل ، عليه غمامة سوداء ، وخاض البحر ، وظنوه منهم ، وشم فرس فرعون وأفراس قومه ريحها فاقتحموا .

وروى أن هامان قال : أتيت هذا المكان مرارا ، وما فيه طريق ولا أؤمن أن يكون هذا مكيدة من هذا الرجل لهلكنا فعصاه ، فدخل ودخلوا .

وفى رواية أن فرس جبريل كانت بيضاء ، ولما هم أولهم بالخروج من البحر ، ودخل آخرهم ، انضم عليهم البحر .

قال ابن سلام : لما انتهى موسى إلى البحر قال : يا من كان قبل شىء ، والمكون لكل شىء ، والكائن بعد كل شىء ، اجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا ، فأوحى الله تعالى : أن اضرب بعصاك البحر ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أعلمكم الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حين جاوز البحر ؟ » قالوا : بلى ، قال : « قولوا اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » اهـ وكان الماء فى ذلك الوقت فى غاية الزيادة .

(حتَّى إذا أدْركَه الغَرَقُ قالَ) حين أوشك أن يغرق ، وقيل :

قال فى نفسه بعد الغرق والإدراك صالح لذلك (آمنتُ أنَّه) بأنه ، أو صدقت أنه ، وقرئ بكسر الهمزة على إبدال الجملة من آمنت ، وهى حمزة والكسائى ، أو على التفسير لآمنت ، أو على تقدير القول ، أو على الاستئناف .

(لا إله إلاَّ الَّذى آمنتْ به بنُو) أنث فعله لأنه جمع تكسير أعرب إعراب جمع السلامة (إسْرائيلَ وأنا مِنَ المسْلمينَ) أعرض عن الإيمان فى زمان القبول ولو بمرة ، وبالغ فيه وكرره حين لا يقبل ، وذلك أنه قال ذلك حين عاين ملائكة العذاب ، وهو وقت لا تقبل فيه توبة ، وقيل : لأنه لم يقل ذلك من قلبه ، بل ليدفع البلية ، وقيل : قاله على شك ، ولذا قال : « إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » .

قال العلامة أبو القاسم البرادى : اختصم ملكان بصورة رجلين أبيض وأسود إلى فرعون ، قال الأبيض : هذا عبدى اشتريته من خالص مالى ، وأسكنته دارى ، وزوجته أمتى ، وصببت فى يديه مالى ، وأحسنت إليه ، فكلفته خدمتى وطاعتى ، فأتاه عدوى فقطعه عنى ، ودعاه إلى طاعته ، وأمره بعصيانى ومخالفتى ، فأطاعه وعصانى ، وامتثل أمره ، ونبذ أمرى وراء ظهره ، وكابرنى ، وعاندنى ، فعمد إلى طائفة من مالى وعبيدى ومملكتى ، فادعاه لنفسه ، وكفر فى جميع ذلك نعمتى ، فاحكم لى عليه بواجب حقى .

فقال فرعون لعنه الله للأسود : أسمعت كلامه ، فقال : نعم ، قال : فما تقول ؟ فقال : كل ذلك فعلته ، وأنا فيه إلى الآن ، ولا أرجع عنه .

فقال الأبيض : فما يجب لى عليه ، فاحكم به •

فقال : أرى أن تعمد إلى خابية عظيمة من رصاص ، وتملؤها ملحا ، وتختم عليها ، وتذهب به إلى بحيرة كذا فى القلذم ، يعنى البحيرة التى قدر الله غرقه فيها بعد ، وتربط يديه ، وتعلق الخابية إلى عنقه ، وترسله وإياها فى البحيرة •

فقال : اكتب لى صكاً بخط يدك إلى صاحب البحر ليعيننى ، ولا يمنعنى ، فكتب له ذلك •

وروى أنه كتب يقول الوليد أبو العباس بن مصعب : جزاء العبد الخارج عن سيده ، الكافر نعماه ، أن يغرق فى البحر ، فلما انطبق عليه البحر حضره الملكان ، وأحضرا الصك بخط يده ، وحكمه على نفسه • فحينئذ قال : « آمنت بالذى آمنت » الخ انتهى بزيادة •

(آلآن) أى أتطيع الآن ، أو تقرر الآن ، أو تؤمن الآن وقد أيست من نفسك وقد عاينت (وقَدْ عَصيْتَ قبلُ) قبل ذلك مدة عمرك كلها (وكُنتَ منَ المفْسِدينَ) الضالين فى أنفسهم ، المضلين لغيرهم ، وقايل ذلك الملائكة ، وقيل : جبريل ، ويجوز أن يكون الله خلق له ذلك الكلام فسمعه ، قيل : ويدل له : « فاليوم ننجيك » الخ ، وأن يكون القول مجازا فى دلالة حاله ، وتصوير خزيه ، وفى عرائس القرآن :

تفرد جبريل بفرعون ، فأراه فتواه فقال : أما هذه فتياك التى أفتيت بهـــا .

(فاليَوْم نُنَجيكَ) مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ونجعلك فوق الماء ، وقرأ يعقوب ننجيك بالتخفيف ، ومعناهما واحد ، ويجوز أن يكونا مأخوذين من النجوة وهى المكان المرتفع ، أى نلقيك على نجوة من الأرض ، وقرىء ننحيك بالحاء المهملة ، من أنحاه بمعنى ألقاه فى ناحية ، قيل : ألقى بجانب البحر ، قال كعب : رماه الماء إلى الساحل قصيرا أحمر كأنه ثور .

(ببِدَنكَ) بمجرد جسدك لا روح فيه ، أو بجسدك لم ينقص منه شىء ، ولم يتغير ، أو بمجرد جسدك لا لباس عليه ، أو بدرعك ، وكانت عليه درع من ذهب مرصعة بالجوهر يعرف به ، وقرأ أبو حنيفة : بأبدانك ، أى بأجزاء بدنك ، وقد ورد نثرا ونظلما هوى بأجرامه ، أى بأحزاء بدنه ، أو بدروعك ، وكانت له دروع يلبسها بعضا على بعض ، والباء متعلقة بمحذوف حال من كاف ننجيك ، وهى للتعدية العامة فى حروف الجر فى تفسير البدن بالجسد ، وللمصاحبة فى تفسيره بالدرع بمعنى مع ، إلا أن بعضا ذكر أن المصاحبة بمعنى تكون ابتداء ، وبالياء تكون مستدامة ، وليس ذلك بشىء ، وقيل : إن الباء سببية على التفسير بالجسد ، والتفسير بالدرع ، أى بسبب جسدك ، أو درعك لتعرف بهما كما قال .

(لتَكونَ لمَنْ خَلْفك آيةً) على موتك ، أى لمن كان حى بعدك ،

وهم بنو إسرائيل ، كان فى نفوسهم أن فرعون أعظم شأنا من أن يغرق ، بل قيل : قالوا : ما مات ولا يموت أبدا ، حتى روى أن موسى عليه السلام أخبرهم بموته فلم يصدقوه ، وألقاه الله على الساحل ، وعليه درعه حتى عرفوه ، روى أنهم قالوا : خَلْقٍ خَلْق من لا يموت ، ألا ترى أنه يلبث كذا وكذا يوما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الإنسان ، وقيل : معنى « لمن خلفك » أنه كان مطروحا على مصر بنى إسرائيل ، وقيل : لمن يأتى بعدك من القرون يعلمون أنه عبد مهان يراه من يراه فيخبر به من بعده ، فيزدجروا عن الطغيان ، أو يعلمون أن الإنسان وإن بلغ ما بلغ بعيد عن الربوبية ، وقرىء : لمن خلقك بفتح اللام بعدها قاف مفتوحة ، أى آية خالقه كسائر آياته ، يعلم منها أنه عامد لذلك إهانة لك بمعصيتك ، وإزالة لشبهة عدم موتك ، وإظهارا لقدرته ، وهذا المعنى صحيح أيضا فى قراءة « لمن خلفك » بإسكان اللام بعده فاء .

(وإنَّ كَثيراً مِنَ النَّاس عَنْ آياتنا لغَافِلُون) لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون ، وهى على عمومه ، وقيل : أراد المشركين مطلقا ، وقيل : مشركى مكة .

مبحث ورد من طرق كثيرة ، بألفاظ مختلفة ، وبزيادة ونقص ، أن جبريل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو رأيتنى وأنا آخذ من طين البحر أدسه فى فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة ، أو قال خشية أن يقول : لا إله إلا الله فيرحمه الله ، أو لئلا تدركه الرحمة ، وذكر ذلك العلامة البرادى وأقره .

وفى عرائس القرآن : يا محمد ما أبغضت أحدا من الخلق مثل ما أبغضت رجلين : أحدهما من الجن وهو إبليس ، حين أمر بالسجود فلم يسجد ، والآخر من الإنس وهو فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، ولو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من طين البحر ، وأدسه فى فيه مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها .

وذلك مشكل ، من حيث إن المنع من كلمة الإخلاص بسد الفم إعانة على الكفر ورضا به ، والله سبحانه لا يأمر بذلك ، فأما جار الله فهجم على القوم ، بأن قولهم خشية أن تدركه الرحمة ، أى ونحوه مما هو من زيادة الباهتين لله وملائكته ، فإن الرضا بالكفر كفر ، وإن الإيمان فى القلب يكفى ، ولا يشترط له النطق ، وإلى هذا كنت أذهب ، وإنما النطق إخبار بالتوحيد الذى فى القلب لا توحيد .

وأما أنا فأقول : إن صح الحديث فإن لله أن يفعل ما شاء فعله ، أمر جبريل أن يسد فمه لئلا يقول ذلك مرة أخرى فيرحم ، وجعل الله سده عن قول ذلك كالطبع على القلب بالخذلان ، وأنه لو أعاده لأثر من قلبه كما هو فى لسانه ، وأما المرة الأولى فقاله من لسانه فقط ، فكأن جبريل يخاف أن يدرك ما أمر الله به من سده فمه ، هذا ما يتعلق بنحو قوله : مخافة أن تدركه الرحمة ، وأما مجرد سد الفم مع إسقاط تلك الزيادة ، فلأن الله أمره ، ولأنه لا ينفعه الإيمان والقول ، فيكون كقوله

لأهل النار : « اخسئوا فيها » ولصون اسم الله عن لسانه جزاء بكفره وليعذبه بذلك .

(ولقد بوأنا بنى إسرائيل) أنزلناهم (مبوأ) اسم مكان ظرف مكان ، أى منزل (صدق) أى منزلا صالحا مرضيا ، ومن عادة العرب إذا أرادت مدح شىء أضافته للصدق ، والمراد بلاد الشام ، ومنها الأردن ، وهو قول قتادة ، وابن زيد ، وقال الحسن : مصر ، وقيل : الشام ومصر ، والأول أصح ، فإن الصحيح أنهم لما غرق فرعون رجعوا إلى مصر ، فأخذوا باقى الأموال ، وجمعوها ، وما لم يقدروا على حمله باعوه لمن بقرب مصر ، على أن المطموس عليه من أموالهم رده الله تعالى بحاله بعد الغرق ، لينتفعوا به وبقى على الطمس بعضه عبرة لمن يأتى لو كان المطموس عليه بعض أموالهم لا محلها ، ثم رحلوا إلى الشام .

قيل : بعث موسى جندين كل جند اثنى عشر ألفا ، وأمر عليهما يوشع وكالب إلى مدائن فرعون ، ومـا فيها إلا النساء ، والصـبيان ، والمرضى ، والهرما ، فحملوا المال كما مر .

وروى أنهم لما خرجوا إلى الشام ، أظلم الطريق ، فدعا موسى مشيخة بنى إسرائيل فسألهم فقالوا : إن يوسف لما مات بمصر أخذ على إخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم إلى الأرض المقدسة ، وسألهم أين قبره ؟ فلم يعلموا ، فقال موسى ينادى أنشدتكم

الله ، من علم موضع قبر يوسف فليخبرنى به ، ومن لم يعلم فصمت أذناه فكان يمر برجله ينادى فلا يسمع ، حتى سمعته عجوز فقالت : إن دللتك عليه فهل تعطينى ما أريد ، فقال : حتى أسأل ربى ، فسأله فأمره أن يعطيها مناها ، فأعطاها فقالت : أريد أن لا تنزل غرفة فى الجنة إلا نزلتها معك ، فقال : نعم ، قالت : فإنى عجوز لا أستطيع أن أمشى ، فحملها ولما دنت من النيل قالت : إنه فى جوف النيل ، فادعو الله أن يحبس عنه الماء فدعا وحبس عن القبر ، فقالت : احفروا ها هنا فاستخرجوه فى صندوق من مرمر ، فحمله معه فدفنه فى الأرض المقدسة ، ومن ثَمّ تحمل اليهود موتاهم إلى الأرض المقدسة .

جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه فقال : « ما حاجتك ؟ » فقال : ناقة يا رسول الله برحلها ، وأعنز يحلبها أهلى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا : « ما حاجتك ؟ » فقال : مالى حاجة غيرها ، فقال : « إن عجوزا فى بنى إسرائيل كانت أحسن منك مسألة » وروى أنها شرطت ذلك ، وأن يرد عليها الله رجليها ، وكانت مقعدة وشبابها وبصرها ، فقال له الله أعط له ذلك فإنك تعطى على كريم ، فلما أطلعوا تابوته أضاء الطريق كالنهار ، وأضاء القمر ، وقيل : كان ذلك نهارا وأظلم كالليل ، ولم أطلعوه أضاء .

(ورَزَقْناهُم مِنَ الطَّيباتِ) اللذائذ (فَمَا اخْتَلَفُوا) فى أمر دينهم (حَتَّى جاءَهُم العِلْم) ، وهو التوراة ، كما يطلق العلم على المسائل ، والمراد من بعد ما جاءهم إدراك الحق وفهمه بنزول التوراة ، وكان نزولها بعد الغرق ، ولما نزلت آمن بعضٌ ، وكفر بعضٌ ، وعمل بها

بعض ، ولم يعمل بها بعض" ، وقيل : القرآن ، وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا قبل بعثه متفقين على نبوته ، وصدق كتابه ، ويفتخرون على المشركين بأنه سيبعث آخر الأنبياء نقاتلكم معه ، فلما بعث وعلموه مبعوثا ، آمن به بعض كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وكفر به بعضهم إيثارا لرياسة وحسدا وبغيا ، وأجاز بعض أن يكون المراد اختلافهم على أنبيائهم موسى وغيره ، ونبينا صلى الله عليه وسلم فى زمان كل واحد على حدة بعد مجىء علمه على حدة •

(إنَّ ربَّكَ) يا محمد (يقْضِى بيْنَهم يَومَ القِيامةِ فيمَا كانُوا فيهِ يخْتلفُونَ) من أمر الدين بتمييز المحق وإنجائه ، والمبطل وإهلاكه •

(فإنْ كُنتَ فى شكٍّ) تردد وقد استعمل فى الظن وهو محتمل هنا ، والشك ضرب من الجهل ، وكل شك جهل ، وليس كل جهل شك ، فبينهما عموم وخصوص مطلقان (ممَّا أنزَلنا إليْكَ) أى القرآن والقصص ، والصحيح عندى الأول ، ولو ضعفه بعض ، وهذا الشك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على إثبات أنه شاك حاشاه •

(فاسْأل الَّذينَ يقْرءُونَ الكِتابَ) التوراة ، أو حقيقة الكتاب فيشملها ، والإنجيل جميعا (مِنْ قَبلكَ) كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ونحوهما ، ممن آمن من علماء أمر الكتاب ، فإنهم الموثوق بجوابهم لإيمانهم ، قاله الضحاك ، ونسب للمحققين ، وقيل : المراد علماؤهم مطلقا ، فإن أمرك محقق فى كتبهم ، على نحو ما ألقينا إليك ، أقروا أو جحدوا •

روى أنه لما نزل ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا أشك يا رب ولا أسأل أهل الكتاب ، بل أكتفى بما أنزلت علىّ » فالمراد تهييج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيادة تثبيت له ، وتحقيق أمره ، والاستشهاد عليه بما فى

الكتب المتقدمة ، وليس كما قيل المراد ، فالتحقيق للأمر ، والاستشهاد ، وأما التهييج بل المراد كلاهما ، فإن قوله : « إن كنت فى شك » تهييج وقوله : « فاسأل » الخ تحقيق واستشهاد ، ويجوز أن يكون المراد التهييج ، وبيان أن أمرك عِلْم قد رسخ فيه أهل الكتاب .

وقيل : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد من شك ، ويناسبه : « قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى » وقيل الخطاب للشمول ، أى فإن كنت فى شك يا من يمكن منه الشك ، والآية تشير إلى المسارعة إلى أهل العلم إذا اعترت شبهة .

(لَقَد جاء الحقُّ مِنْ ربِّكَ) أى ما لا يقبل الشك (فلا تكونَنَّ مِنَ المُمتَرِينَ) الشاكين ، والامتراء افتعال من المرية .

(ولا تَكونَنَّ مِنَ الذِينَ كذَّبوا بآيَاتِ اللهِ) دلائله ، أو آيات القرآن ، أو آيات الكتب مطلقا ، ومعنى النهيين الأمر بالدوام على عدم الكون من الممترين ، وعدم الكون من المكذبين ، أو ذلك مع التهييج والإلهاب ، وقطع الأطماع عنه ، وقيل : المراد خطاب غيره ، ولو كان اللفظ خطابا له ، وقيل : الخطاب لغيره على سبيل الشمول ، وفائدة توجيه الخطاب له ، وإرادة غيره فى القول الثانى ، التنبيه بأنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا من هذا فغيره أولى بأن يتقى ذلك ، فإنه قريب الوقوع فيه ، وذلك لظاهر اللفظ وإلا فذلك تحذير لغيره لا له (فتَكونَ مِنَ الخَاسِرِينَ) هو فى الخطاب تابع لما قبله بأوجهه .

(إنَّ الذِينَ حقَّتْ) وجبت فى الأزل (عَلَيْهم كَلِمَةُ ربِّكَ)

أى أقضيته أنهم أشقياء ، أو مواعيده ، والجمع باعتبار معدد المقتضى عليهم ، والموعدين أو تعدد ما قضى على يد فرد ، وأوعده ككونه يفعل كذا ، وكونه من أهل النار ، وإن دركته كذا ، وفسره قتادة بالسخط ، وبعض باللغة ، وما صدق ذلك واحد وقرىء بالجمع [كلماتُ] (لا يؤمِنُونَ ولَو جاءتْهُم كلُّ آيةٍ حتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ) حين لا ينفع الإيمان على ما مر فى نظيره ، فإن الله سبحانه لا يبدل القول لديه ، ولا يفعل إلا ما أراد فى الأزل .

(فلَوْلا) للتوبيخ والتنديم (كانَتْ قَرْيَةٌ) أى أهل قرية ، أو أطلق القرية على أهلها للحالية والمحلية (آمنَتْ فَنَفَعَهَا إيمانُها) وبخ أهل القرى وندمهم على ما فاتهم من أن يؤمنوا ، فينفعهم إيمانهم ، بأن يوقعوه قبل معاينة عذاب وجه إليهم ، وذلك أنهم لم يؤمنوا إلا بعد المعاينة ، هذا ما ظهر لى فى تفسير الآية ، ولولا على الصناعة .

وقرأ ابن مسعود : فهلا كانت ، وكذا فى مصحفه ، وليست هلا التحصيصية بل التوبيخية والتنديمية ، لأن التحضيض على أمر مستقبل لا ماض فائت ، وقد تجعل لولا وهلا فى الآية للتحضيض على تنزيل ما مضى منزلة المستقبل ، كأن أهل القرى الموتى أحياء حضهم على الإيمان وقت ينفع ، ثم رأيت ابن هشام قال : إنها للتوبيخ كما قلت ، قال : والظاهر أن المعنى على التوبيخ ، أى فهلا كانت قرية واحدة من القرى المهلكة تابت عن الكفر قبل مجىء العذاب ، فنفعها ذلك ، وهو تفسير الأخفش ، والكسائى ، والفراء ، والنحاسى ، ويؤيده قراءة أبىّ ، وعبد الله بن مسعود فهلا انتهى .

(إلاَّ قَوْمَ يُونسَ) استثناء منقطع ، ويجوز أن يكون متصلا ، لأن التوبيخ يقتضى عدم الوقوع ، والمراد الناس فى قوله : « كانت قرية » كما مر ، فكأنه قيل : ما كانت قرية آمنت بعد معاينة العذاب ، فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، فلمراعاة معنى النفى من التوبيخ كانت النكرة ، وهى قرية للعموم ، وذلك أولى من قول الهروى : إن لولا هنا حرف نفى ، ولا دليل له فى قراءة بعض برفع قوم على البدلية ، لأن البدلية كما تجوز بعد النفى الصريح نحو : ما قام أحد إلا زيد ، تجوز بعد غير الصريح كقولك : تغير المنزل إلا النوء والوتد ، فباعتبار الظاهر يجب النصب بذكر المستثنى منه ، وكذا حيث استتر ضميره ، والكلام إيجاب لكن رفع نظرا إلى أن المعنى : لم يبق المنزل على حاله إلا النوء والوتد .

(لمَّا آمَنُوا) بعد معاينة عذاب وجه إليهم (كَشَفْنَا) أنزلنا (عَنْهم عَذابَ الخِزْى فى الحَيَاةِ الدُّنْيا ومَتَّعْنَاهُم) أحييناهم فى منفعة لهم دنيوية وأخروية (إلىَ حِينٍ) هو حين آجالهم ، والأكثر أنهم رأوا العذاب ، فلذلك صح استثناؤهم ممن رآه فلم ينفعه إيمانه : وقيل : لم يروه ، وعليه فالاستثناء منقطع ، وكذا هو منقطع على قول من قال : إن أهل تلك القرى آمنوا بعد معاينة العذاب ووقوعه عليهم ، لأن قوم يونس عاينوه ، ولم يقع عليهم ، لكن الظاهر أن العذاب الموجه إلى قوم لكفرهم إذ رأوه ، ولو لم يقع عليهم فى حينهم ، كالواقع فى أنه لا يرد ، ولا تنفع التوبة إلا قوم يونس ، فإن لله الحكم بما شاء ، وحكمه كله حكمة وعدل .

وقيل : نفعتهم توبتهم بأنها قبل نزوله عليهم ، بخلاف توبة فرعون ، فإنها بعد المباشرة ، وقيل : لصدق نيتهم ، بخلاف فرعون ، فإن نيته

لم تصدق فيما قيل إنما أراد دفع البلية الحاضرة ، أو كانت فى شك كما مر .

قال صاحب عرائس القرآن وغيره : لم ينسب أحد إلى أمة إلا عيسى ويونس بن متى ، وقيل : متى أبوه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى ، قال الله عز وجل : « وذا النُّون إذْ ذهب مُغاضباً » » .

وكان رجلا صالحا يتعبد فى جبل كان من أهل قرية من قرى الموصل تسمى نينوى ، كان قومه يعبدون الأصنام ، فبعثه الله إليهم ، وكان لا يصبر مع الناس ، فلحق بالجبل يعبد فيه ، وكان حسن القراءة تستمع الوحوش إلى قراءته كداود ، وكانت تعتريه حدة ، وكان قليل الصبر على قومه ، قليل المداراة لهم ، ولذلك نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله ، لعجلة ظهرت منه ، ولا تكن كصاحب الحوت .

زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كانت فى يونس خفة وعجلة ، فلما حمل أعباء النبوة تفسح تحتها تفسح الرابع تحت الحمل » .

قال على بن أبى طالب : بعث الله تعالى يونس إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، وقام يدعوهم ثلاثا وثلاثين سنة فلم يؤمنوا ، إلا رجلان : روبيل وكان عالما حكيما ، وبنوحا وكان زاهدا عابدا ، قال ابن مسعود : لما أيس منهم دعا عليهم ، فقيل له : ما أسرع ما دعوت على عبادى ، ارجع إليهم وادعهم أربعين ليلة ، فإن أجابوك وإلا فإنى مرسل عليهم العذاب ، فرجع فدعاهم سبعا وثلاثين ليلة فلم يجيبوه ، فقام خطيبا فيهم ،

فقال : إنى محذركم العذاب إلى ثلاثة أيـام إن لـم تؤمنوا ، وقيل : حذرهم العذاب من أول الأربعين إن لم يؤمنوا لتمامها وآية ذلك : أن تغير ألوانكم ، فقالوا : إنه رجل لم يجرب عنه كذب قط ، فانظروا فإن بات فيكم ليلة الثالثة فليس ذلك بشىء ، وإلا فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، فآمنوا قبل أن ينزل عليكم ، فتغيرت ألوانهم ليلة الثالثة ، فرأوا تغيرها ، وخرج ولم يبت فيهم .

فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، قال سعيد بن جبير : كما يغشى الثوب القبر إذ أدخل فيه صاحبه ، وقال مقاتل : كان فوقهم قدر ميل ، وقيل : أربعة أميال ، وعن ابن عباس : قدر ثلث ميل ، وعنه ثلثى مثل ، وعن قتادة ، ووهب : أن السماء غامت غيما أسود هائلا يرى منه دخان شديد ، وهبط حتى غشا مدينتهم ، واسودت سطوحهم ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا بالهلاك ، وبصدق يونس ، فقذف الله فى قلوبهم التوبة ، وألهمهم حتى خرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ، ونسائهم ، وصبيانهم ، ودوابهم ، ولبسـوا المسـوح ، وأظهـروا الإيمـان والتوبـة ، وأخلصوا النية ، وفرقوا بين كل امرأة أو دابة وولدها ، ليزدادوا ضجيجا ؛ ويحن بعضهم إلى بعض ، فعلت أصواتهم ، واختلطت ، وتضرعوا وقالوا : آمنا بما جاء به يونس ، فرحمهم ربهم ، وقبل توبتهم ، وكشف العذاب عنهم يوم عاشوراء يوم الجمعة ، وقيل : نصف شوال يوم الأربعاء .

قال ابن مسعود : بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادوا المظالم حتى كان الرجل يأتى حجرا ووضع عليه أساس بنيانه فيقلعه ويرده لصاحبه .

وروى صالح المرى ، عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الخلد :

لما غشيهم العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ قال : قولوا : يا حيّ حين لا حي ، ويا حيّ محي الموتى ، ويا حيّ لا إله إلا أنت ، فقالوا ذلك ، فكشف عنهم .

وقال الفضيل بن عياض : قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، فافعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، وجعل ينتظر العذاب فلم ينزل بهم ، فقيل له : ارجع إليهم ، فقال : كيف أرجع إليهم وقد وعدتهم بالعذاب ولم يعذبوا ، وكانوا يقتلون من كذب .

(ولَوْ شاء ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرْض كلُّهم جَميعاً) حال مؤكدة لصاحبها ، والظاهر أنه ليس المراد مشيئة إلجاء وقهر ، بل المراد لو شاء لآمنوا باختيارهم ، وفسرها جار الله في غير موضع بمشيئة إلجاء ، وكما هنا ، وكنت أعرض عنه ولا أقبله ، حتى رأيت القاضي فسرها بغير الإلجاء والقهر ، وذكر أن ذلك دليل على القدرية في أنه تعالى لم يشأ إيمان الناس أجمعين ، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة .

(أفأنْتَ تُكرهُ النَّاسَ) بما لم يشأ الله منهم (حتّى يكُونُوا مُؤمنينَ) ليس إيلاء المسند إليه الهمزة مشعرا بأن هناك قادرا على الإكراه وهو الله تعالى ، سوى المسند إليه وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان الله القادر عليه ، فليس المعنى أنك لست قادرا على الإكراه وأن الله لو شاء لأكرههم ، كما قال جار الله ، تبعا لتفسيره المشيئة قبل ذلك بمشيئة الإكراه ، بل غاية ذلك الإبلاء أنه يفيد أن المستفهم عنه المسند إليه لا المسند ، وإنما يشعر بذلك لو كان ذلك بالحصر مثلا

أن يقال : أفأنت المكره بتعريف الطرفين ، مرادا به نفى الإكراه عنه ، وإثباته لغيره ، وإنما المعنى إنكار أن يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، لأن ذلك مخالف لمشيئة الله أن يؤمن بعض ويكفر بعض ، فضلا عن أن تدخلهم فى الإسلام بالحث والتحريض •

وفسر جار الله الإكراه بأن يخلق الله فى قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان ، وذكر بعض أن ذلك منسوخ بآية السيف ، وليس كذلك ، إذ ليس معناه يقبل النسخ بها ، لأنه ليس المعنى أنك لا تكرههم بالسيف إلا إن التزم ذلك البعض هذا المعنى ، وكان صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمانهم ، فنزل ذلك وقرره بقوله :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) بإرادته وتوفيقه ، فخفف عنك الهم (وَيَجْعَلُ) وقرأ أبو بكر بالنون (الرِّجْسَ) العذاب أو الخذلان ، فسماه باسم العذاب ، وهو لفظ الرجس ، لأنه سببه ، أو شبه الخذلان بما هو خبيث منتن ، فسماه باسمه وهو لفظ الرجس ، وقيل : الرجس العذاب والخذلان ، وعن ابن عباس السخط ، وقرأ بالزاى قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان على ما مر ، والنفس التى تؤمن بإذن الله بقوله ؟

(عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) لا يفهمون دلائله للطبع على قلوبهم ، أو لا يستعملون عقولهم بالنظر فيها ، وهذا أنسب بقوله :

(قُلِ انْظُرُوا) أى تفكروا (مَاذَا) اسم استفهام مركب مبتدأ

خبره ما بعده ، أو ما خبر وذا مبتدأ ، وجاز العكس ، وما بعد ذلك صلة ذا ، وعلى كل حال فالجملة مفعول لانظروا ، علق عنها النظر ، وأجاز بعض أن يكون ماذا كله اسما واحدا موصولا مركبا مفعولا لانظروا .

(فى السمٰوات) كالشمس والقمر ، والنجوم والملائكة ، فإنهم معترفون بالملائكة ، ومثل بعضهم بعض بالمطر ، إما على أن أصله من السماء ، وإما على أن المراد فى جهة السموات ، سواء فيهن أو خارج عنهن .

(والأرْضِ) كبحر ونهر ، وشجر ونبات ، وجبل ومعدن ، كل ذلك دليل على وحدانية الله تعالى ، وكمال قدرته .

(ومَا) نافية أو استفهامية إنكارية فى معنى النفى ، أو مفعول مطلق لقوله : (تُغْنِى) وقرئ يغنى بالتحتية (الآياتُ والنُّذرُ) جمع نذير بمعنى إنذار ، أو جمع نذير بمعنى منذر ، وهو الرسول من الرسل ، فالمعنى وما تغنى الآيات والإنذارات ، أو الرسل ، ومفعول تغنى على أن ما نافية أو استفهامية مفعول مطلق محذوف ، أى ولا تغنى الآيات والنذر شيئا ، أو أى إغناء تغنى شيئا .

(عَنْ قَوم لا يؤمنُونَ) أى عن قوم سبق فى علم الله أنهم لا يؤمنون ، وهم الذين لا يعقلون ، لا يتدبّرون .

(فَهَلْ ينْتَظرُونَ) أى ما ينتظرون ، والمراد هؤلاء القوم المذكورون ، وهو أهل مكة أو العموم (إلاَّ مِثْلَ أيامِ الَّذينَ خلَوْا)

مضوا (مِنْ قَبْلِهم) أى وقائع الله فيهم ، لأنهم لا يستحقون سواها ، والعرب تطلق اليوم على يوم العذاب ، يقولون : يوم بنى فلان ، أى وقت حربهم ، وذلك تهديد من الله سبحانه أنه قد فرغ رسوله من أمرهم ، ولا بقى لهم إلا يوم كيوم قوم نوح ، أو عاد أو ثمود يعاينون فيه العذاب .

(قُلْ فانْتَظِرُوا) إهلاكى ، أو مثل تلك الأيام (إنِّى مَعَكم مِنَ المنتَظِرِينَ) إهلاككم ، أو مثل تلك الأيـام ، وإن قلت : كيف ينتظرون مثل تلك الأيام ؟

قلت : لما كان هلاكهم بمثل تلك الأيام واقع لا محالة ، وكان انتظارهم سواه باطلا ، وأنه لا محالة عنه جعلوا كأن انتظارهم انتظار له ، زعم بعض أن هذه منسوخة بآية السيف .

(ثمَّ ننجِّى) من إهلاك (رُسُلَنا) عطف على محذوف ، أى نهلك الأمم ، أى نوجه إليهم الهلاك ، أو نريده بهم ، ثم ننجى رسلنا دل على ذلك قوله : « مثلَ أيام الذين خلوا من قبلهم » جعلَ حال هؤلاء الأمم الماضية كأنها حاضرة ، هذا كله هو ما ظهر لى ، ثم رأيت مثله للقاضى وغيره والحمد لله .

(والَّذِينَ آمنُوا) برسلنا (كَذَلِكَ) مفعول مطلق بالتنجية بعده إنجاء مثلَ ذلك الإنجاء ، أو إنجاء ثابتا كذلكَ الإنجاء ، أو متعلق بـ : ينجى بعده (حقًّا) أى حقَ حقا ذلكَ ، أىَ سبقَ به وعدنا وهو واقع لابد ، وهذا من قوله : (علَيْنا) ويجوز كونه حالا ، وقيلَ : بدلَ من

كذلك ، والجملة على ما ذكرته أولا معترضـــة بين المشبه وهو تنجية المؤمنين ، والمشبه به وهو تنجية الرسل ، لا بين العامل وهــو ننجى الثانى ، والمعمول وهو كذلك ، لأن هذا المعمول فى نية التأخير .

(نُنْجِى) موجود فى المصاحف بلا ياء تبعا للإمام ، ولست معتبرا بمثل ذلك فى خط التفسير ، بل أكتبه على قاعدة الكتابة للبيان ، والقراء يقفون على هذا ونحوه مما رسم بغير ياء على حال رسمه فيسكتون ، ولا يردون الياء إلا ما جاءت فيه رواية عنهم ، فإنه يرجع إليها ، وقرأ الكسائى وحفص عن عاصم بإســكان النون الثــانية وتخفيف الجيم (المؤْمِنينَ) محمداً وأصحابه من الهلاك ، ونهلك المشركين .

(قُلْ يا أيُّها النَّاسُ) أهل مكة (إنْ كُنتُم فى شكٍّ مِنْ دِينى) أنه حق ، ومن صحة دينى وهو دين إبراهيم الذى تعرفونه ، وأنتم من ذريته ، وهو دينى مقبول معروف غير منكر فى العقول ، ليس قابلا للشك ، والجواب محذوف أى عوقبتم على ذلك ، أو فلكم دينكم ولى دينى ، وأناب عن ذلك قوله :

(فَلا أعْبُدُ الَّذينَ تعْبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) وهم الأصنام التى عبادتها منكرة فى العقل ، ينبغى لكم الشك فيها ، إذ لا تضر ولا تنفع ، بل أدوم على الدين المعروف دين إبراهيم ، الذى لو نظرتم فيه بالإنصاف لوجدتموه الحق دون غيره ، فاقطعوا عنى ، أطماعكم كما قال فى الدوام على هذا الدين .

(ولكِنْ أعْبُدُ اللهَ الَّذىَ يتوفَّاكُم) وصفه بالتوفى الذى هو

أشد شىء على النفس تهديدا لهم ، وزجرا وإيذانا بأنه الحقيق أن يخاف ويعرف ويعبد ، أو مطابقة لاستعجالهم العذاب ، أو لانتظارهم ، أى ولكن أعبد الله الذى هو قادر على إهلاككم ، ونصرى عليكم ، أو إشارة إلى ما يترتب على التوفى من جزائهم بأعمالهم وأقوالهم واعتقادهم ، أو لأن القادر على التوفى وهو إزالة الروح قادر على الإحياء وإجراء الروح ، أولا وبعد الموت ، فهو مغن عن ذكر الإحياء الأول والثانى ، وخص بالذكر لما مر ، وعلى كل حال ففى ذلك تعريض بأن الذين تعبدون من دون الله لا يقدرون على شىء من ذلك .

(وأمِرْتُ أنْ أكُونَ) أى بأن أكون ، وحذف الجار قبل أن مطرد عند أمن اللبس ، وعند قصد الإجمال ، ويجوز أن يكون ذلك مما ورد فيه أمر ناصبا بلا ذكر باء كقوله : أمرتك الخير ، وهو غير مطرد ، كذا قالوا ، وأقول الذى عندى أنه غير مطرد إذ أتى باسم صريح ، وأما إذ أتى بأن أو إن فمطرد مطلقا .

(مِنَ المؤمِنينَ) بالدين المدلول عليه بالعقل والوحى ، وذلك ذكر للإيمان القلبى بعد ذكر العبادة البدنية .

(وأنْ) مفسرة لوقوعها بعد عاطفة علـى معمول ما فيه معنى القول دون حروفه ، ومصدرية كالتى قبلها بناء على جواز دخولها على الأمر لتضمنه معنى المصدر ، كما يتضمنه الاخبار فباعتبار معنى المصدر صح ، أو حسن العطف فيما بين الإخبار والطلب ، لأن المقصود مصدراهما (أقِمْ وجْهكَ للدِّين) أى الدين ، واللام على أصلها ، أو بمعنى إلى ، والمراد لوجه النفس ، وقيل : العمل ، ولعل المراد بهذا القول أقم عمل

وجهك ، أى عمل نفسك ، أى ذاتك ، والمراد على كل الدوام على دين الإسلام أداء فرائضه وقيل : المراد استقبال القبلة فى الصلاة .

(حَنيفاً) حالٌ من الوجه ، لأن المراد به الذات أو الوجه الحقيقى فى الصلاة ، أو من الكاف على هذا لأن المضاف بعضه أو من الدين ، أى مائلا عن كل دين سواه ، أو مائلا ذلك الدين عن سواه منحرفا عن الأباطيل التى فى سواه .

(ولا تكونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ * ولا تَدْعُ) لا تطلب أو لا تعبد (مِنْ دُونِ اللهِ ما لا ينْفَعُكَ) إن دعوته (ولا يضرُّكَ) إن لم تدعه وهو الأصنام ، وحكم النهى هنا حكمه فى قوله : « لا تكونن من الممترين » ونحوه ، وقيل : معنى نهيه عن الشرك النهى عن الالتفات إلى غير الله بالكلية ، ويسميه بعض بالشرك الخفى ، ورسول الله منزه عنه أيضا .

(فإنْ فَعَلْت) أى دعوت ما لا ينفعك ولا يضرك (فإنَّكَ إذاً مِنَ الظَّالمينَ) لنفسك بوضع الدعاء فى غير موضـــعه ، والشرط والجواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : ما يلزم على دعاء الأصنام .

(وإنْ يمسَسْكَ اللهُ) يصبك (بضُرٍّ) كمرض وفقر (فَلا كاشِفَ لهُ) لا مزيل لذلك الضر (إلا هُوَ) عبر هنا بالمس ليكون إشارة ، إلا أن الضر غير مقصود بالذات ، بل بالعرض ، وأنه كالمصادمة للشىء لعارض الخروج عن الطريق .

(وإنْ يُرِدْكَ بخَيْرٍ) عبر هنا بالإرادة إشارة إلى أن الخير

مقصود بالذات ، أو إشار بها إلى أنها مرادة فى الأول ، وأشار بالمس فيه إلى أنه مراد هنا ، فذكر فى كل ما حذف من الآخر إيجازا ، ففى كل منهما إرادة ومس ، ولكن أوجز بالحذف .

(فَلَا رَادَّ) دافع (لِفَضْلِهِ) لم يقل إلا الله كما فى الأول ، لأن إرادة الله لا ترد بحذف المس ، فإن الله يمس الإنسان بضر ثم يصرفه عنه ، فإن المس صفة فعل ، والإرادة صفة ذات ، والأصل فلا راد له ، فوضع الفضل موضع الضمير ، ليدل على أن ما أراده من خير فضل لا وجوب عليه .

(يُصِيبُ بِهِ) بالفضل وهو الخير ، بواحد من الضمير والخير ، ووجه هذا أن الكلام كان بأن الموضوعة للشك ، تعالى عنه ، فكأنه بأو ، وأفراد الضمير بعد أو أحسن (مَنْ يَشَاءُ) بالمصلحة (مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) فأطيعوا راجين الرحمة ، غير آيسين من الغفران بالمعصية ، فإن جانب الخير راجح .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ) بيان الحلال من الحرام والقرآن ، قيل : أو رسول الله صلى الله عليه وسلم (مِنْ رَبِّكُمْ) فلا عذر لكم ، ولا حجة على الله (فَمَنِ اهْتَدَى) تبع الحق (فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) فإن نفع اهتدائه لها .

(وَمَنْ ضَلَّ) عن الحق ، أى زاغ عنه بعد وضوحه عنادا (فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) فإن وبال الضلال عليها (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) حفيظ ، وكل أمركم إلىَّ ، بل بشير ونذير ، قال ابن عباس : الآية منسوخة بآية السيف ، ولا يصلح إلا إن أريد بها إلاّ من بالمسالمة ، وعدم القتال ،

وليس ذلك بمتعين الجواز ، أن يراد مجرد إخبار أن للإنسان ما سعى من خير أو شر ، وأن الرسول بشير ونذير ، وهذا ثابت قاتل ، أو ترك القتال فلا نسخ هنا وهو الصحيح .

(واتَّبِع ما يُوحَى إليكَ مِنْ ربِّكَ واصْبِر) على تبليغه وإيذائهم بنحو قولهم : إنك مجنون ، وإنك ساحر ، وإنك شاعر ، وعلى إعراضهم (حتَّى يحكُم الله) بنصرك ، وإظهارك ، قالوا : وذلك منسوخ بآية السيف ، وفيه ما مر آنفا مع أنه يجوز أن يكون المعنى أيضا حتى يحكم بالجهاد .

(وهُو خَيْر) أفضل وأعدل (الحاكمِينَ) بعلمه بظاهر الخصمين وباطنهما ، وقد صبر صلى الله عليه وسلم حتى نصره ، وقهر الكفار ، وضرب عليهم الجزية ، وأظهر الدين .

قال جار الله : روى أنها [لمَّا] نزلت جمع الأنصار فقال : « إنكم ستجدون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى » يعنى أمرت فى هذه الآية بالصبر على ما سامتنى الكفرة ، فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة ، قال أنس : فلم نصبر ، وظاهر قوله : جمع الأنصار أن الآية مدنية .

وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة ، وتلقته الأنصار ، ثم دخلَ عليه فقالَ له : مالكَ لم تتلقنا ؟ قالَ : لم يكن عندنا دواب ، قالَ : فأين النواضح ؟ قال : قطعناها فى طلبك وطلب أبيكَ يوم بدر ، وقد قالَ رسولُ اللهُ صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار

ستلقون بعدى أثرة » قال معاوية : فماذا قال ؟ قال : « فاصبروا حتى تلقونى » قال : فاصبر ، قال : إذن نصبر ، قال عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معـاوية بـن حـرب
أمـير الظالمين نثـنـا كـلامى

بأنا صـابرون فمنظـروكم
إلى يـوم التغابن والخصـامى

انتهى .

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبهذا ينتهي تفسير سورة
[يونس] ولله الحمد والمنّة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفســـير

سورة هود

سورة هود عليه السلام

مكية عند ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن زيد ، وقتادة ، إلا : « وأقم الصلاة طرف النهار » الآية ، وعن مقاتل إلا : « فلعلك تارك » الآية و : « أولئك يؤمنون به » والآية : « إن الحسنات يذهبن السيئات » الآية ، وقيل إلا : « فلعلك تارك بعض مـا يوحى إليك » أو « فمن كان على بينة من ربه » و « أقم الصلاة طرف النهار » نزلت هذه الثالثة فى حق أبى اليسر .

وآيها مائة واثنتان وعشرون ، وقيل : مائة وثلاثة وعشرون ، وقيل : مائة واحدى وعشرون .

وكلمها ألف وتسعمائة كلمة ، وحروفها تسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون ، قال صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من يصدق بنوح ، ومن يكذب به ، وبهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وكان يوم القيامة من السعداء بحول الله » .

قال أبو بكر : يا رسـول الله قد شبت ، قال : « شيبتنى هـود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وفى رواية قال : يا رسول الله عجل إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية » أى لما فى هذه من ذكر القيامة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار .

قال : من كتب سورة هود فى جلد ظبى ، وأمسكها أعطى قــوة ونصرا على من يحاربه ، ولو قابله مائة رجل غلبهم وقهرهم وهابوه ، وضعف أيديهم عنه ، ويرتاع من رآه ولم يتجاسر عليه ، ولم يتكلم أحد بين يديه إلا بموافقته ، وإن كتبها بزعفران وشربها ثلاثة أيام بكرة وعشية قوى قلبه ولو قاتله الجن والإنس ما فرع منهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓر) من كتبه إلى قوله : « وهـو على كل شىء قـدير » فى ورقة قلقاس أخضر ، عند طلوع الفجر بمسـك وماء ورد ، ثم محاها بماء بئر تلك الساقية التى يسقى منها ذلك القلقاس وشربه ، وفعل ذلك أربعة أيام غدوا وعشيا ، انفتح قلبه ، وتعلم القرآن العظيم ، والعلم ، وسهل له الحفظ وفهم الأشياء العويصة الحكم ، أو البلاغة ، قيل مبتدأ خبره (كِتَابٌ) وقيل : كتاب خبر لمحذوف ، أى هذا كتاب ، أو مبتدأ نكر للتعظيم خبره الجملة بعده ، وعلى غير هـذا فالجملة خبر ثان أو نعت .

(أُحْكِمَتْ آياتُه) ركبت تركيبا لا خلل فيه لفظا ولا معنى ، أو منعت من الفساد كقولك : أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحَكَمَة بفتح الحاء والكاف ، وهو ما يحيط بحنكيها من اللجام ، لتمنعها مـن الجماح ، أو أحكمت بالحجج والدلائل وقال الداودى ، عن الحسن : بالأمر والنهى ، وعنه بالثواب والعقاب ، وعن قتادة : أحكمت من الباطل ، وقيل : عن التناقض ، وقيل : عن النسخ ، فإنه ولو كان فيـه منسوخ لكنه قليل .

وقال ابن عباس : عن أن ينسخه كتاب آخر ، وقيل : إن آياته دلائل التوحيد والنبوة والبعث ، ونحو ذلك مما لا ينسخ ، وأن أحكامها أن لا تنسخ ، أو آياته آيات هذه السورة منه ، فإنها ليس فيها منسوخ ، وزعم بعض أنه نسخ بآية السيف « إنما أنت نذير » « والله على كلِّ شىء وكيل » « وقل للذين لا يؤمنون اعملوا » الخ « وانتظـروا إنا منتظرون » وليس كذلك ، إنما هى معان ثابتة بعد الأمر بالقتال وقبله .

وزعم أن قوله : « من كان يريد الحياة الدنيا » الخ منسوخة بقوله : « من كان يريد العاجلة » الخ ، وليس كذلك ، بل مبين به ، وهما إخبار ، والإخبار لا يدخله النسخ ، ويجوز أن يكون معنى أحكمت جعلت ذات حكم لاشتمالها على الحِكَم النظرية والعملية ، سواء أريد آيات القرآن أو آياته ، والتى فى هذه السورة عداه بالهمزة ، من حكم بضم الكاف أى صار حكيما .

(ثمَّ فصِّلَت) بالفوائد ، من العقائد والأحكام ، والمواعظ والأخبار ، ويجعلها سورا ، أو تنزيلها شيئا بعد شىء على النبى صلى الله عليه وسلم ، والتفصيل جعل الشىء فصولا ، أو فصل فيها ما يحتاج إليها العباد ، أى بيَّن قاله مجاهد ، وعن الحسن : فصلت بالثواب والعقاب ، وعنه : بالأمر والنهى ، وعنه : بالحدود والأحكام ، وعن بعض : بالحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، وقرأ عكرمة ، والضحاك : فصلت بالبناء للفاعل ، أى فرقت بين الحق والباطل ، وقرىء أحكمت آياته ثم فصلت بفتح الهمزة والكاف وإسكان الميم ، وضم التاء ، ونصب آيات بالكسرة وفتح الفاء والصاد ، وإسكان اللام ، وضم التاء ، أى ثم فصلتها ، وثم للترتيب والتراخى ، بالنظر إلى التفاوت بين الأحكام والتفصيل لا بالنظر إلى وقوع الأحكام والتفصيل ، إلا إن أريد أحكامها ضبطها وإتقانها قبل نزولها ، وبتفصيلها تفصيلها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمجرد الترتيب فى الأخبار أو هى بمعنى الواو .

(مِنْ لَدُنْ) هو عند ناس أخر نعت آخر لكتاب ، أو خبر آخر ، أو متعلق بفصلت ، أو أحكمت (حكيمٍ) فى أموره على العموم ،

وهو الله سبحانه وتعالى (خَبَيرٍ) بأحوال خلقه وما يصلحهم وأعمالهم ، وفى قوله : « حكيم » مناسبة لقوله : « أحكمت » وفى قوله : « خبير » مناسبة لقوله : « فصلت » فما أبلغ كلاما أحكمه من هو حكيم ، وفصله من هو خبير بكيفيات الأمور وسرها .

(ألاَّ تعْبدُوا) أى بأن لا تعبدوا ، أو لئلا تعبدوا ، فحذف الجار وهو متعلق بفصلت أو بأحكمت ، أو التقدير أمركم بأن لا تعبدوا ، أو الزموا ألا تعبدوا ، فيكون إغراء على التوحيد والتبرى عن عبادة غير الله ، ويكون مستأنفا ، أو أن مفسرة لفصلت ، فإن التفصيل فيه معنى القول دون حروفه ، وعلى هذا فلا ناهية .

(إلاَّ اللهَ إنَّنى) قل أى إننى (لكُم منْهُ) أى من الله حال من قوله : (نَذيرٌ وبَشيرٌ) أو متعلق بنذير ، والمراد نذير بالعقاب على الشرك ، وبشير بالثواب على الإيمان ، وقدم النذير لأن التحذير من النار أهم .

(وأَن) مصدرية أو مفسرة مثل ما مر ، والعطف على أن لا تعبدوا ، وهذا يؤيد كون أن مفسرة فى : أن لا تعبدوا ، ولا ناهية لأن قوله : (استْغفِرُوا) فيناسب النهى (ربَّكُم) من ذنوبكم كالشرك وغيره ، واطلبوا غفرانها ، وذلك بالإيمان .

(ثمَّ تُوبُوا إليهِ) ارجعوا إليه بالندم ، والعزم على عدم الرجوع إلى الذنوب ، وبالطاعة ، وثم لتفاوت ما بين الأمرين ، وقال الفراء بمعنى الواو ، وإن قلنا : إن المعنى ثم توصلوا إلى مطلوبكم

بالتوبة فهى على بابها ، وكذا إن قلنا : توبوا إليه بالطاعة ، كذلك قيل ، والذى عندى أنها ليست على أصلها إلا على هذا الوجه الأخير ، لأن المشرك كثيرا ما يسلم فى وقت لا فرض فيه ، ثم يأتى فرض مثل أن يسلم عند طلوع الشمس فلا فرض حتى الزوال ، فيجب الظهر .

(يمتّعكم متاعاً) اسم مصدر بمعنى التمتيع (حَسناً) قيل يحييكم فى سعة وأمن ، وربما ضاقت معيشة المؤمن رفعا لدرجته ، أو تكفيراً لسيئاته ، قلت : والذى عندى أن يفسر المتاع الحسن بطيب الحياة والأمن ، فإنه شامل لهذا الذى ضاقت معيشته ، لأن حياته مع ذلك حسنة ، لأنه راض عن الله فى جميع أحواله ، ولأنه مكتسب فى حياته الفوز الدائم ، وفرح به وبالتقرب ، وأداء الفرض ، فلا منافاة بين الآية وحاله ، ولا بينها وبين قوله صلى الله عليه وسلم : « فالدنيا سجن المؤمن » مع أن لهذا الحديث مخرجا آخر ، وهو أنها سجنه بالنسبة إلى ما له فى الآخرة ، كما أنها جنة الكافر بالنسبة إلى ما له فى الآخرة ، ويدل لتفسيرى المذكور قول بعض : إن العيش الحسن هو الرضا بالميسور ، والصبر على المقدور ، وأما الأمن فموجود عند المؤمن ، لأنه إنما يخاف من الله فقط وإياه يرجو .

(إلى أجلٍ مُسمًّى) هو حين الموت ، ويجوز أن يكون المعنى يحييكم ولا يستأصلكم بالعذاب ، واعلم أن الرزق ، والأجل وغيرهما لا تزيد عما قضى الله فى الأزل ، ولا تنقص ، وأما الآية وما ورد من أن كذا يزيد فى العمر أو فى الرزق ، أو ينقص منهما ، فمعناهما أن الله سبحانه وتعالى قضى فى الأزل بأن فلانا يطول أجله أو يقصر ، ويكثر رزقه أو يقتر ، لأنه يعمل كذا ويترك كذا ، فأمر الناس كلهم بالعمل

والترك على طريق الكسب ، كما أمرهم بالعمل والترك ، ودخول الجنة ، مع أن منهم من قضى بأنه لا يدخلها ، وأما ما تخرج به كثير من المتفقهة من أن المراد بالزيادة أو النقص البركة وعدمها ، فلا يصح ، لأن البركة وعدمها قد حف بها القلم أيضا ، وأن ما المراد أن كذا وكذا خلقه لفلان سببا للبركة وعدمها .

(ويُؤْتِ كلَّ ذى فَضْلٍ) عمل صالح (فَضْله) أى جزاء عمله الصالح فى الدنيا والآخرة ، أو الهاء لله سبحانه وتعالى ، أى يؤت الله فضله كل ذى عمل صالح ، وذلك أنه يضـعف الحسنة إلى العشر وأكثر ، ويثيبه فى الدارين ، وهذا ترغيب فى الإيمان والعمل ، ويجوز أن يكون المراد يؤته فى الآخرة ، وبه قال مجاهد .

قال أبو العالية ، وابن عباس : تزيد الدرجات فى الجنة على قدر الأعمال ، قال ابن عباس : من زادت سيئاته على حسناته دخل النار ، ومن استوت كان من أهل الأعراف ، ويدخل الجنة ، ومر فى ذلك بحث فى سورة الأعراف ، قال ابن مسعود : من عوقب فى الدنيا بسيئته بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب عوقب بها فى الآخرة ، وبقيت له تسع حسنات ، ويل" لمن غلبت آحاده عشراته ، وفيه البحث السابق ، وقيل : معنى الآية : من عمل لله وفقه الله بعد لطاعته فهى فضل الله .

(وإنْ تَوَلَّوا) أعرضوا عن الإيمان ، وأصله تتولوا ، وحذفت إحدى التاءين ، وقرىء تولوا بضم التاء واللام من ولى بالتشديد مثل « ولى مدبراً » (فإنِّى أخافُ عَلَيكم عَذابَ يَومٍ كَبيرٍ) أى عذاب القيامة ، وهو النار ، وقيل : وقت الشدة فى الدنيا ، وهو سبع سنين

القحط ، اشتد فيهن القحط حتى أكلوا الجيف والعظام ، وسكن ياء إنى غير نافع وابن كثير وأبى عمرو .

(إلَى اللهِ مَرْجِعُكُم) فى ذلك اليوم للجزاء ، والمرجع مصدر ميمى بمعنى الرجوع على غير قياس ، لأن مضارعه يرجع بالكسر ، فقياسه الفتح كما قال ابن مالك .

* فى غير ذا عينه فتح مصدر *

(وهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ) فلا يشذ عنه ما أراد من تمتيع المؤمن ، وتعذيب الكافر العذاب الشديد .

(ألاَ إنَّهم يَثْنُونَ صُدُورَهُم) عن الحق ، أى يحرفونها عنه ، أو يطوونها على الكفر والعداوة ، ويظهرون خلافهما ، أو يثنون صدورهم برءوسهم ، أى يطأطئون برءوسهم عليها إذا لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حضروه لئلا يراهم ، ويغطون أيضا وجوههم ، ويولُّونه ظهورهم ، يتواعدون على فعل ذلك ، وعن قتادة : يحنون صدورهم لئلا يسمعوا كتاب الله وذكره ، وقرىء تثنونى بمثناة فوقية مفتوحة وهى حرف المضارعة ، فثاء مثلثة مسكنة ، وهى فاء الكلمة ، فنون مفتوحة وهى عينها ، فواو ساكنة زائدة ، فنون مكسورة تكرار لعين الكلمة ، فياء مثناة تحتية هى لامها بوزن يفعوعل من معتل اللام ، وذلك مثل يحلولى بكسر اللام الأخير ، والماضى اثنونى بفتح النون بعدها ألف كاحلولى بفتح اللام بعدها ألف ، وذلك مبالغة فى الثنى ، كما بولغ فى الحلاوة بقولك يحلولى .

ونسب بعضهم هذه القراءة لابن عباس وجماعة ، وقرىء : تثنونى بمثناة فوقية مضمومة وهى حرف المضارعة ، فثاء مفتوحة مثلثة هى فاء الكلمة فواو ساكنة زائدة فنون مكسورة هى عينها ، فياء مثناة تحتية هى لامها ككوثر بكوثر .

ونسبها بعضهم لابن عباس ، وقرىء تثنوى بوزن ترعوى ، وقرىء تثنون من الثن وهو ما ضعف وهش من الحشيش ، يريد مطاوعة صدورهم للتحريف عن دين الله ، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم ، وهو بتاء مثناة فوقية مفتوحة ، فمثلثة هى لام الكلمة مسكنة ، فنون مفتوحة هى عين الكلمة ، فواو مكسورة زائدة ، فنون مشددة يقع الإعراب فيها ، والمدغمة زائدة تكرار لعين الكلمة والمدغم فيها لام الكلمة ، ووزنه تفعوعل من المضاعف ، وأصله تثنونن بإسكان الواو وكسر النون الأولى ، نقل كسرها للواو فأدغمت ، وقرىء تَثْنَئِن بمثناة مفتوحة ، فمثلثة مسكنة هى الفاء ، فنون مفتوحة هى العين ، فهمزة مكسورة زائدة أصلها ألف ، فنون مشددة المدغمة لام زائدة ، والمدغم فيها لام أصل أو بالعكس مضارع اثنانٌ بكسر الهمزة ، إذا ثبتت ، وإسكان التاء وفتح النون والهمزة وتشديد النون كاحمار ، والصدور على هذه القراءة مرفوع على الفاعلية .

(ليَستَخفوا) متعلق بمحذوف ، أى يفعلون ذلك ليستخفوا ، واللام صلة للتأكيد وما بعدها مفعول لمفعول ، أى يريدون ليستخفوا أى يريدون أن يستخفوا (منه) أى من الله ، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ما فعلوا ، قاله مجاهد ، وقيل : من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن عباس : نزل ذلك فى الأخنس بن شريق ، كان رجلا حلو المنظر حلو الكلام ، وكان يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ، وكان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجالسته ، وهو يضمر خلاف ما يظهر ، وقيل : نزلت فى منافقين كانوا يستترون عن رسول الله كراهة رؤيته ، ويرده أن الآية مكية ، والنفاق حدث بالمدينة حفظها الله ، ورد الله عليهم بأنه لا يخفى عنه شىء ، سواء أراد إخفاءه عنه أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم فيظهره له إذ قال :

(ألا حِينَ) متعلق بيعلم بعده أو بمحذوف ، أى يريدون الاستخفاء حين (يستَغْشُون ثِيابَهم) يجعلونها أغشية وأغطية ، أى يغطون رءوسهم وأبدانهم بها للنوم مثلا ، أو ليستتروا عنه أو رءوسهم لئلا يروه أو يسمعوا .

(يعْلَم ما يسرُّونَ) ما يخفونه من كلام فى قلوبهم ومن أبدانهم وأشخاصهم (وما يعْلنُونَ) من كلام وبدن وشخص ، لا يتفاوت الإسرار والإعلان فى علمه (إنَّه عَليمٌ بذَاتِ الصُّدورِ) أى بالكلمة صاحبة الصدور ، ولم ينطق بها اللسان ، أو بنفس الصدور ، وحالها فكيف بما فيها ، بل سواء عنده ، وقيل ما يسرون من الكفر والحقد وما يعلنون من الإيمان .

وقيل : كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ، ويعتقد عداوة الرسول ويقول : هل يعلم الله ما فى قلبى ، فنزل ذلك مخبرا لهم بأنه يعلم ما فى قلوبهم حينئذ ، فكيف لا يعلم ما يثنون به صدورهم ، وقد يظهرونه .

وحكى الطبرى ، عن ابن عباس : أن ذلك نزل فى قوم مؤمنين لا يجامعون ولا يقضون حاجة الإنسان ، حيث يعرون إلى السماء إلا إن استتروا بثيابهم ، وكذا حكى البخارى ، وعلى صحة ذلك كأنهم ظنوا أو تخيلوا أنهم حين الاستغشاء لا يراهم الله ، فنزلت الآية بيانا لكونه لا يخفى عنه شيء لا إباحة للتعرى إلى السماء ، ولكن ذلك بعيد عن المؤمنين إلا إن كانوا حديثى عهد بالإيمان فقلّ فقههم ، والذى عندى أن يكون الثنى والاستخفاء فى الكفار ، ومجرد الاستغشاء عند الجماع ، والقضاء لهؤلاء المؤمنين على صحة ذلك ، رد بعلم ذلك منهم على هؤلاء الثانين المستخفين .

(ومَا مِنْ) صلة للتأكيد (دَابَّةٍ) هى ما يدب على الأرض من إنسان وغيره فى العرف بماله أربع أرجل (فى الأَرْضِ) نعت لدابة ، أو متعلق بدابة ، على أن المعنى ما من نفس تدب على الأرض (إلاَّ على الله رزْقُها) وعدها به، وتكفل لها به ، فهو رازقها لا محالة ، لأنه لا يخلف الوعد ، فكأنه واجب عليه ، وإلا فهو منه فضل ، ولشبهه بالواجب من حيث إنه لابد من وقوعه ، أتى باللفظ الموضوع للوجوب ، وهو على مع ما فيه من تحقيق الوصل والحمل على التوكيل فيه ، ولا يصح أن يقال : إنه واجب عليه ولو ضمنه ووعد به ، بل يقال : إنه لا يخلف الوعد خلافا لما يوهمه كلام جار الله ، إذ قال : هو تفضل ، إلا أنه لا لما ضمن بأن يتفضل به عليهم رجع التفضل به واجبا كنذور العباد ، وزعمت الكرامية أنه واجب عليه ، وما ذكرته فى تخريج الآية أولى من قول بعض إن على بمعنى من .

(ويعلَم مُستَقرَّها) موضع استقرارها وسكناها من الأرض

فى الحياة (ومُسْتودعَها) موضع استيداعها بعد الممات ، وهو قول ابن عباس ، والحسن ، وقيل : المستقر الأصلاب ، والمستودع الأرحام ، وقيل : المستقر مكانها ومسكنها من الأرض ، والمستودع ما كانت فيه قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة .

وقال ابن مسعود : المستقر الرحم ، والمستودع المكان الذى تموت فيه ، وقيل : المستقر الجنة والنار ، والمستودع القبر ، وذكر عكرمة عن ابن عباس : أن المستقر الرحم ، والمستودع الصلب ، وقال الكلبى : المستقر مكانها الذى تأوى إليه فى الليل ، والمستودع مكانها بعد موتها ، أجاز بعض أن يكون المستقر الموضع الذى تستقر فيه ، فالفعل بعد وجودها فى الخارج ، والمستودع موادها كالمنى والعلقة ، والمقار كالصلب والرحم ، فإن الدابة قبل وجودها فى خارج البطن ليست مودعة فى ذلك بالفعل ، بل لقوة لأنها ليست حالها حين كانت نطفة أو علقة أو غيرهما كحالها حين كانت خارج البطن .

(كلٌ) من الدواب وأحوالها (فى كِتابٍ مُبينٍ) ظاهر أو مظهر وهو اللوح المحفوظ ، كتبت فيه ، وذلك بيان لكونه عالماً لأشياء كلها ، وبين به أنه قادر على الممكنات كلها ، تقريرا للتوحيد ، لما سبق من الوعد والوعيد به بقوله :

(وهُو الّذى خَلَق السّموات) مع ما فيهن ، أو أراد بالسموات بها ما فى جهة العلو والسمو (والأرْض) مع ما فيها ، أو أراد بها ما فى جهة السفل (فى ستّةِ أيامٍ وكانَ عَرْشُه عَلى الماءِ) قبلَ خلقهن ، وذلك من كمال القدرة ، إذ جعل الماء حاملا للجسم العظيم وهو العرش .

روى أن الله خلق ياقوتة خضراء فخشعت بأمر الله فصارت ماء ،

وخلق الريح وجعل عليه الماء ، ثم العرش وجعله على الماء ، ثم خلق السموات والأرضين من دخان من ماء ، ثم القلم وكتب ما كان قبله وما يكون ، ومجد ذلك الكتاب ألف عام ، ثم سائر الخلق ، وقيل : خلق العرش قبل الريح ، وليس خلقه ذلك احتياجا إليه تعالى ، بل كلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه .

وروى أنه كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض .

وسأل أبو زين العقيلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق ؟ فقال : « كان فى عمى » بالقصر وهو ماخفى ، يعنى كان ولا شىء معه ، فضلا عن أن يكون فيه تعالى عن الحلول والحيث والأين ، فما ليسه بثبات فهو عمى عن الخلق ، لكونه ليس شيئا ، ويجوز أن يكون المراد : أين كان عرش ربنا ؟ فأجابه بأنه كان فى عمى ، أى فى غير شىء ، ثم خلق الماء فجعله عليه ، وأجابه بأنه كان فى عماء بالمد وهو السحاب الرقيق أو الكثيف أو الضباب ، والمعنى أن عرشه كان عليه قبل خلق الماء ، ثم كان على الماء ، أو المعنى أنه تعالى على ذلك ، أى مستول عليه خالق لـه .

(ليَبْلُوكُم) متعلق بخلق ، وقيل : باعلم محذوفا ، أى أعلمكم بذلك : والأول أولى ، أى لم يخلقهن عبثا ، بل ليفعل بكم فعل من يختبر أحوالكم ، وقد علمها ، ولكن ليقطع معاذركم ، ففى الكلام استعارة تمثيلية تبعية ، شبه حال المكلف الممكن المختار مع تعلق علم الله بأفعاله ، بحال المختبر ، ثم استعير لجانب المشبه « ليبلوكم » الخ موضع « ليعلم أيكم » الخ ، والقرينة أن الله لا يخفى عنه شىء .

(أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً) أطوع لله فى الاستدلال بهن على وجوده ، وكمال قدرته ، واشكر لنعمه التى منهن كالماء والنجـوم ، والشمس والقمر ، والنبات والسكون ، والجملة مفعول ليبلو معلق عنها بالاستفهام ، لأنه بمعنى العلم من حيث إنه طريق إلى العلم ، وكما يكون التعليق عن المفعولين يكون عن المفعول ، فيبلوا متعدٍ لاثنين ، لأنه بمنزلة يعلم هنا ، فعلق عن الثانى بمعنى أنه عطل عن أن يكون ثانية مفردا ، هذا تحقيق المقـــام .

ولم يذكر عمل الشر ، مع أن الابتلاء والاختبار عم المؤمن والكافر إعراضا عن المعصية ، وتنبيها على أنه لا سبيل لأحد إلى شىء ما منها ، وقال : أحسن بصيغة التفضيل ، ولم يقل حسن بصيغة الصفة المشبهة تحضيضا على معاطاة المقام الأعلى فى العمل الشامل لعمل الجوارح ، وعمل اللسان ، وهو التكلم بخير ، وعمل القلب وهو اعتقاد الخير ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » .

(ولَئِن قُلْتَ) يا محمد لكفـــار قومك (إنَّكم) وقرىء بفتح الهمزة لتضمن القول معنى الذكر ، أو إن بمعنى لعل ، أى ولئن قلت لعلكم (مبْعُوثونَ) توقعوا بعثكم وظنوه واقعـــا ، ولا تقطعوا بإنكـــاره (مِنْ بَعْدِ الموتِ) للعقاب إن أصررتم ، وللثواب إن تبتم (لَيقولنْ الَّذينَ كفرُوا) الأصل ليقولن بضم اللام مع إسقاط الذين كفروا ، ووضع الظاهر موضع الضمير ففتحت اللام ، أو الخطاب فى إنكم لجميع الكفرة من أنكر البعث ومن لم ينكره كأهل الكتاب ، أو للناس مطلقا فلا يكون من وضع الظاهر موضع المضمر ، بل يكون المعنى : ليقولن الذين كفروا بالبعث ، أو الكفار المعهودون وهم قومك .

(إنْ هَذا) أى قولك بالبعث ، أو البعث أو القرآن الناطق بالبعث (إلا سحرٌ مُبينٌ) واضح أى كالسحر فى الخديعة ، أو البطلان ، وقرأ حمزة والكسائى هنا وفى الصف وفى المائدة إلا ساحر بألف وكسر الحاء على أن الإشارة إلى القائل .

(ولئِنْ أخّرنا عَنْهم العَذابَ) الموعود بـه (إلى أمةٍ مَعدُودةٍ) جملة قليلة من الأوقات ، وهذا يعم قول الكلبى : سنين معدودة ، وقول بعض : مدة معدودة ، وقول بعض : أجل معدود ، وقول مجاهد : إلى حين معدود ، والكل بمعنى ، ويصح أن يكون المعنى إلى انقراض أمة من الناس ومجىء أخرى (ليقُولنَّ) استهزاء وإنكاراً (مـا) مبتدأ استفهامية وجملة (يحْبسُه) أى العذاب خبر (ألا يَوْمَ) متعلق بخبر ليس وهو « مصروفا » .

قال ابن هشام : احتج به مجيز تقديم خبر ليس عليها ، أى لأن تقديم المعمول وهو هنا يوم لا يصح غالبا إلا إذا صح تقديم عامله ، وهو هنا « مصروفا » ومن غير الغالب امتناع تقديم معمول لن كزيدا من لن أضرب زيداً لضعف الحرف .

قال : وأجيب بأن المعمول ظرف فيتسع فيه انتهى ، ولا يلـزم الجمهور تقديم خبر ليس إذا كان ظرفا ، أن معمول خبر الناسخ دون الخبر ، ولا يلزم من انتقال الضعيف عن محله انتقال القوى ، وأجيب أيضا بأن يوم مفعول لمحذوف ، أى لا يعرفون يـوم ، فتكون جملـة « مصروفا » حال مؤسسة ، وأجاز خالد كونها مؤكدة وهو ضعيف ، وبأنه متعلق بليس ، فإن الصحيح أن الأفعال الناقصة تدل على الحدث ،

فيصح التعليق بها ، وذلك كله على أن ضمير يأتى ، وضمير ليس عائدان إلى العذاب ، وأجيب أيضا بأن يوم مبتدأ بنى عـلى الفتح لإضافته للجملة ، وخبره ليس مصروفا ، فالضمير فى يأتى للعذاب ، وفى ليس لليـوم •

(يأتيهمْ لَيسَ مَصْروفا عَنْهم) وذلك يوم بـدر وعذابه ، وقال ابن عباس : وقت قتل جبريل المستهزئين ، وقيل : يوم النفخـة وعذابها ، إذ ينفخ على الدائنين بدين أبى جهل لعنه الله ، فالضمير لجنس الكفار ، ولو كان الخطاب لمخصوصين ، وقيل : يوم القيامة وعذابه هو قول الكلبى •

(وحَاقَ) نزل وأحاق (بِهِم) البـاء للإلصاق وللاسـتعلاء (ما كانُوا بهِ يستَهْزئونَ) وهو العذاب المذكور بأقواله ، أو حاق بهم جزاء استهزائهم به ، أى بالعذاب ، فعلى هذا الوجه تكون ما مصدرية ، والهاء للعذاب ، ويجوز أن يكون يستهزئون موضوعا موضع يستعجلون ، لأن استعجالهم استهزاء ، فإن قولهم : ما يحبسه » مثل قولهم : « اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك » الخ وقولهم : « ائتنا بعذاب الله » وحاق بمعنى يحيق ، أو نزل الحال منزلة الحاضر ، لأنه واقع لابد ، للمبالغة فى التهديد •

(ولَئِنْ أذَقنا الإنسانَ) أراد الجنس ، فالاستثناء بعد ذلك متصل ، ولكن جعله منفصلا بالنظر إلى أن النفس ولو نفس المؤمن مطبعة على الإياس والكفر والفرح والفخر ، لكنه ينزع ويتوب ، فكأنه قيل : لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ، ولا تتوهم أن الذين مبتدأ ، وإن قلنا : الإنسان هنا المشرك والمنافق كان منفصلا •

(منا رحمة) كصحة وغنى وعافية وعز ، ونحو ذلك مما يجد لذته (ثم نزعناها منه إنه ليئوس) كثير الإياس وعظيمه لقلة صبره ، وعدم الثقة بالله سبحانه ، مع رحمة الله واسعة ترجع بعد الذهاب (كفور) شديد الكفران بنعم الله التى هو فيها ، والتى سبقت .

(ولئن أذقناه نعماء) مفرد بمعنى النعمة ، أو اسم جمع للنعمة ، أو بمعنى الإنعام ، أو اسم جمع له ذكر غير الأول الشنوانى كصحة وغنى وعافية وعز (بعد ضراء) كسقم وفقر ، وفتنة وذل (مسته) صفة لضراء ، والمس مبدأ الوصول ، والذوق إدراك الطعم ، ففى الآية تنبيه على ما يجده الإنسان من النعم والفخر قليل جدا بالنسبة لما فى الآخرة ، وأنه بأدنى شىء يقع فى الفرح والفخر ، وأسند الإذاقة إلى الله ، والمس إلى الضراء ، ولو كان الكل من الله ، لأن الخير تفضل من الله تعالى ، ولو حوسب الإنسان لم يستحق لعمله الصالح شيئا من ثواب ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل أحد بعمله الجنة ولا أنا إلا بفضل الله » والضر يمسه بعروض حيث يكتسب موجبه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يصيب مسلما شىء ولو انقطاع شسع إلا بذنب وما يعفو الله أكثر » .

(ليقولن ذهب السيئات عنى) هذا ذم ، لأنه يقول ذلك على فرح وافتخار ، واطمئنان إلى الدنيا ، وعدم استشعار رجوعهن ، وعدم الحمد والشكر على الذهاب ، أو لأن النفس قد تضيف ذلك إلى العادة ، ولا سيما نفس المشرك ، هذا ما ظهر لى ، والله أعلم . والسيئات ما يسوؤه كالسقم والفقر والذل ، ولم يؤنث الفعل ؛ لأن الفاعل ظاهر مجازى للتأنيث .

(إنَّه لَفرحٌ) بطر بالنعمة ، مغتر بها ، ساكن إليها ، وليس فى القرآن فرح ممدوح إلا مقيدا بخير (فَخُورٌ) كثير الفخر على الناس ، مشغول عن الشكر والقيام بحقها ، قيل : الفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المراد ، والفخر التطاول على الناس بتعديد المناقب .

(إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا) على الشدائد ونزع الرحمة ، إيمانا ورضا بالقضاء (وعَمِلُوا الصَّالحاتِ) شكرا للنعم الفائتة واللاحقة ، فإنهم ليسوا فى الإياس والكفر ، والفرح والفخر الضارات ، بل إذا صدر ذلك منهم تابوا .

(أولئِكَ لَهم مغْفِرةٌ) بذنوبهم (وأجْرٌ كَبيرٌ) فى الآخرة أقله الجنة ، وأكثره رضا الله عنهم ، وقيل : هو الجنة وهو قول أوضح وأظهر .

(فَلعلَّكَ تَارِكٌ بَعضَ ما يُوحَى إليْكَ) هذا كلام مترتب على قولهم : « إن هذا إلاَّ سحر مبين » أو على قولهم : « ما يحبسه » أو على الفرح والفخر الموصلين إلى تكذيبه ، وذلك أن المشركين يردون عليه ، ويهزءون بما يتلوا ، فقال الله سبحانه وتعالى : فلعلك تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك ، وهو ما يخالف رأيهم لئلا يردوه ويهزءوا بــه ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركا ولا مهتما بالترك ، فإنه معصوم عن الخيانة فى الوحى ، والتقية فى التبليغ ، فليست صــيغة التوقع لوقوع خبرها ، ولكنها للتحذير والتحريض عن التبليغ ، وتضمن ذلك تنبيها على أن تحمل أذاهم أهون من تركَ بعض الوحى .

(وضَائق" به) ببعض مـا يوحى إليك ، أو بمـا يوحى إليك ، وإنما قال : « ضائق » لا ضيق ، لأن المراد الحدوث ، فإنك إن أردت زيدا كان فيما مضى كريما ، أو سيكون كريما ، أو حدث له الكرم فى الحال قلت : زيد كارم ، والمناسب التارك ، ولم يضق رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قط ، فالكلام فى ضائق كالكلام فى تارك ، وإنما ضاق قلبه أحيانا بقولهم ، وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم همَّ بعـد التبليغ أن يترك ذكر آلهتهم بسوء ظاهر ، واشتد عليه أن يتلوها فيـه ذكرها بسوء لمـا يلقى منهم من كلام السوء فى القرآن ونبوته ، فنزل ذلك ، وقيل : الهاء فى به لمبهم يفسره قوله :

(أنْ يقـُولـُوا) مخافة أن يقولوا ، أو حذر أن يقولوا ، أو لئلا أن يقولوا (لـَوْلا) توبيخ (أنزِلَ عليْهِ) مـن السـماء (كَنز") يستغنى به وينفعه ، وذلك أنهم رأوه فقيرا ، أو ينفقه على الناس فى أن يتبعوه كما تفعل الملوك .

(أوْ جاءَ مَعَهُ مَلَك") يصدقه أنه رسول ، وأنه صـادق . روى أن عبد الله بن أمية المخزومى قال : إن كنت رسول الله الذى تصفه بالقدرة على كل شىء ، وأنت عنده عزيز ، فهلا أنزل عليك ما تستغنى به أنه وأصحابك ، وهلا نزل ملك يصدقك فتزول الشبهة ، فالمراد بقوله : « أن يقولوا » أن يعبدوا القول بأن يتكرر فيهم تبعا لمن قاله أولا .

(إنما أنتَ نذِير") هذا حصر إضافى منظور فيه إلى ما اقترحوه ، وإلا فهو بشير وغير ذلك ، فكأنه قيل : أنت مقصور على الإنذار لا تتجاوزه

إلى إنزال كنز عليك ، ومجىء ملك معك يصدقك ، بل الإنذار يتضمن التبشير ، لأنه قد قرر لهم أنه لا منزل إما الجنة أو النار ، فإنذاره بالنار لمن لم يتب والتبشير بالجنة لمن تاب .

(واللهُ علَى كلِّ شىءٍ وكيلٌ) فهو حافظ لأقوالهم وأفعالهم ، فيجازيهم عليها .

(أمْ) منقطعة بمعنى بل ، أو بمعنى بل وهمزة التوبيخ ، أو إنكار صحة قولهم بالافتراء (يقولُون افتَراهُ) أى افترى ذلك الذى قلنا إنه يوحى (قلْ) لهم إن افتريته (فأتُوا بعَشْر سوَرٍ مثْلِهِ) فى البلاغة والفصاحة ، والبيان وحسن النظم ، وهذه السورة نزلت قبل سورة يونس ، تحداهم فى سورة يونس بسورة ، بعد ما تحداهم فى سورة هود بعشر ، وعجزوا ، وهذا كما يقول من يتعاطى الكتابة : اكتب عشرة أسطر مثل كتابتى ، وإذا أبان له العجز سهل فقال : اكتب سطرا واحدا مثل كتابتى ، إذ لا يصح أن يعجزوا فى واحدة ، ثم يكلفوا عشرا .

وعن بعض : إن آية هود نزلت قبل آية يونس ، وأنكر المبرد ذلك ، وقال : إنه قال فى يونس : « بسورة » لأن المراد المماثلة فى البلاغة والفصاحة ، وفى هود : « بعشر سور » لأن المراد المماثلة فى الإخبار عن الغيب ، وذكر الأحكام ، والوعد والوعيد ، وقيل : المراد هنا المماثلة فى حسن النظم ، وأقول لا مانع بعشر سور أمثاله ، لأن المراد أن كلاًّ منهن تماثله ، والإفراد فى تأدية هذا المعنى أقرب من الجمع ، والمراد حقيقة مماثلته ، لأن كل واحدة تماثل وحدها جميع القرآن ، ولم

يقل من أن يتحداهم أولا بسورة ، ثم يتحداهم بأكثر ، على معنى أنكم عجزتم عن واحدة ، فكيف العشر ، وقد يقال : إنه مثل لهم بعشرة إذ كان باب السور افتراء ، أى إن كان القرآن من الافتراء فالإتيان به سهل ، فأتوا منه بعشر سور .

(مُفْتَرَيَاتٍ) فإنكم عرب فصحاء مثلى وألزم منه لطرق الكلام ، ومتدربون بالشعر والسجع (وادْعُوا) للمعاونة على ذلك (مَنِ اسْتَطَعْتُم) أى من استطعتموه ، ولو جميع الإنس والجن ، وقيل : المراد الأوثان (إنْ كُنتُم صَادِقِينَ) فى قولكم إنه مفترى .

(فإنْ لَم يسْتَجِيبُوا لكُم) أى يستجب لكم الذين دعوتم من الكفار من الجن والإنس ، والذين دعوتم من الكفار والأصنام لعجزهم ، وقد عرفتم من أنفسكم العجز ، والخطاب للذين قالوا : إنه مفترى .

(فاعْلَموا أنما أنزِلَ بعِلْم اللهِ) أى ملتبسا بما لا يكون معلوما ، ولا مقدورا لغير الله ، والخطاب لهم أيضا (وأنْ لا إله إلاَّ هُو) أى وأعلم أن ما دعاكم إليه من التوحيد حق (فَهَلْ أنتُم مسْلمُون) داخلون فى الإسلام ، تائبون عن القول بأنه مفترى ، وعن سائر أقوال الشرك بعد قيام البرهان القاطع ، فإنه لا وجه للبقاء على ذلك مع قيامه ، ولا عذر فأسلموا ، وهذا الاستفهام يتضمن الاستبطاء ، والأمر والتنبيه على قيام البرهان ، أو الواو فى يستجيبوا للكفرة القائلة إنهم مفترى .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو كان

الخطاب فى قل له فقط ، لأن آمر رسول الله صلى الله عليه وسلم متناول لهم من حيث إنه يجب عليهم اتباعه فى كل أمر إلا ما خصه الدليل به ، وللتنبيه على أنهم لا يغفلون عن التحدى ، فلهم دخل فيه وكلام ، ولو كان المتحدى هو الرسول ، لأن عجز الكفرة بعد التحدى يرسخ فيهم من الإيمان، ولأن المؤمنين أيضا قد يتحدونهم بنفس ما نزل على الرسول ، أو الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيما له بصورة خطاب الجماعة .

وعلى كل حال صح التفريع فى العلم والإسلام ، والمعنى فازدادوا علما بأنه من الله ، وأنه لا معبود سوى الله وإسلاما ، أو دوموا على ذلك ، وفى ضمن ذلك عجز آلهتهم وتهديد بعبادتها ، واقتناع من أنها لن تغنى عنهم شيئا ، ووجوب الإعراض عنها ، إذ لم يقدر على ذلك العقلاء الفصحاء ، فضلا عنها .

(مَنْ كانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيا) بأعماله الحسنة كالقراءة ، وصلة الرحم ، والصدقة ، والجهاد ، وفك الأسير ، وغير ذلك مما يفعله الموحد والمشرك (وزِينَتَهَا) كالرياسة ونفوذ الأمر ، وسعة الرزق ، وكثرة الأولاد .

(نُوفِّ) وقرأ الحسن بإثبات الياء والتخفيف ، فإن الشرط ماض ، فأهملت الأداة عن العمل فى الجواب لما أهملت عن العمل فى لفظ الشرط ، أو التقدير : فقد نوفى ، أو فنحن نوفى ، وسهل حذف الفاء حذف ما اتصل بها ، وقرأ يوفى بالياء المثناة التحتية أولا ، أى يوف الله ، وقرأ توف

بالمثناة الفوقية والبناء للمفعول ، ورفع أعمال (إليهم أعمالهم) أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم (فيها) فى الدنيا كالصحة والرياسة ، ونفوذ الأمر ، وسعة الرزق ، وكثرة الأولاد ، والثناء عليهم ، واشتهارهم .

(وهم فيها لا يبخسون) لا ينقص الله شيئا من أجور أعمالهم فى الدنيا ، حتى أنهم ليوفون يوم القيامة ومالهم حسنة ، فيأتى المشرك وقد أكل فى الدنيا ماله من طيب ، على صلته للرحم ، وفكه الأسير ، وصدقته ونحو ذلك ، ويأتى المنافق وقد جاهد قصدا للغنيمة فغنم فيما له إلا سهمه فى الغنيمة ، ويأتى بعمل عمله رياء ، فيقال له : عملت ليقال فقد قيل ، ويقال : ارجع إلى من عملت له يجازك ، وقد قال الله : « أنا أغنى الشركاء عن الشركة ، فمن أشرك أحدا فى عملى تركته لمن أشركه معى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما لغير الله ، أو أراد به غيره فليتبوأ مقعده من النار ، وإن فى جهنم جب الحزن ، وهو واد تعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة يدخله القراء المراءون ، وإن أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الأصغر وهو الرياء ، وإن أول خلق تسعر بهم النار جامع القرآن ، والقتيل فى الجهاد ، وجامع المال وذلك فى غير الله » .

وعن قتادة ، عن أنس : أن الآية فى اليهود والنصارى ، وكذا قال الحسن ، وقال الضحاك : فى المشركين عموما ، وقيل : فى المنافقين الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل الغنيمة ، وقال مجاهد :

فى أهل الرياء ، يقال للقارىء : أردت أن يقال : فلان قارىء فقد قيل ذلك ، ولمن وصل الرحم وتصدق : وفعلت حتى يقال فقيل ، ولمن قاتل وقتل : قاتلت حتى يقال : فلان جرىء فقد قيل .

والتعميم عندى أولى ، لأن الأعمال بالنيات ، ولا يعطى الإنسان إلا على وجه قصده ، وهب أن الآية نزلت فى خاص لكن لفظها عام ، والعبرة بعموم اللفظ لا مخصوص السبب ، وقد تقدم أن هذه الآية مقيدة بآية الإسراء : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن يريد » فليس كل من أراد العاجلة أعطى ، وأما المؤمن فيثاب على عمله فى الدنيا والآخرة ، أو يدخر له ثوابه كله إلى الآخرة .

(أولئِكَ الَّذينَ لَيسَ لهم فى الآخِرةِ إلاَّ النَّار) لأن ما عملوا من حسنات أكلوا ثوابه فى الدنيا ، لأنه لا ثواب مع الإصرار على الشرك أو لنفاق إلا ثواب الدنيا ، فبقيت عليهم أوزارهم استوجبوا بها النار .

(وحَبِطَ) بطل (ما صَنَعُوا) من أعمال الخير ، ويجوز كون ما مصدرية (فيها) فى الدنيا تعلق بصنعوا ، أو بحبط أى بطل فى الدنيا ، ولم يبق إلى الآخرة ، أو الضمير للآخرة ، فيتعلق بحبط ، أى ظهر حبوطه فى الآخرة ، ومعنى الحبوط فساد الأعمال ، وسقوط ثوابها ، كأنه قيل : لم يبق لهم ثواب فى الآخرة ، أو لم يكن لهم ثواب ، لأنهم لم يريدوا به وجه الله ، فمن عمل عملا وقصد به الله ، وعمل ما يبطله أعطى ثوابه فى الدنيا ، وأن عمله لغير الله كرياء وسمعة ، فلا ثواب له أصلا ، والجملة معللة لما قبلها من حيث المعنى .

(وباطِلٌ) خبر مبتدأ (ما كانُوا يعْمَلُون) على أن ما اسم أو مصدرية ، أى هو باطل فى نفسه أيضا إذا لم يخلصوه لله ، ويجوز عطف باطل على الذين ، أو على حبط ، فيكون ما بعده فاعلا ، ويناسبه قراءة بعضهم : وبطل بصيغة الفعل الماضى ، وقرىء : وباطلا بالنصب على أنه مفعول ليعملون ، وما حرف مؤكد أو نكرة تامة نعت لباطل تزيده إبهاما ، أى وباطلا ، أى باطل كانوا يعملون ، أو على أنه مصدر بوزن اسم الفاعل مفعول مطلق لمحذوف ، أى وبطل بطلانا ما كانوا يعملون ، فما أو المصدر من يعمل فاعل الباطل المحذوف ، وعلى كل حال فهذه الجملة معللة لقوله حبط ما صنعوا فيها من حيث المعنى .

(أفمنْ) مبتدأ واقع على النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أو عليه أو عليهم ، أو مؤمنى أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، والهمزة للإنكار ، والخبر محذوف يقدر بعد قوله : « إماما ورحمة » تقديره كمن يرد الحياة وزينتها ، كما تدل عليه الآية قبل ، فإن هذا المبتدأ فيمن أراد الآخرة وأخلص العمل ، أو تقديره كمن كان على ضلال وكفر (كانَ عَلى بيِّنةٍ) بيان وهو القرآن (مِنْ ربِّهِ ويتْلُوه) أى يتبع ذلك الذى كان على بينة (شاهِدٌ منهُ) من ربه وهو جبريل عند ابن عباس ، والنخعى ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والأكثرين ، فإنه شاهد بصحة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون .

وعن مجاهد : هو ملك يحفظ للنبى صلى الله عليه وسلم ويسدده ، وقال الفراء : هو الإنجيل لأنه متصل بالقرآن لا كتاب بينهما ، وقال على ، والحسن البصرى ، وقتادة : هو لسان رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، سماه شاهدا ، لأنه يعبر عما فى القلب وعن الوحى ، وهـذا على أن من والهاء فى منه لرسول الله صلى الله عليه وسلم •

وقال الحسين بن الفضل : هو القرآن ، لأنه معجز على طول الدهر ، وهذا على أن البينة مطلق الحق والصواب ، أو ما يدل على ذلك غير القرآن من البراهين التى يستدل بها العقل •

وقال الحسن بن على ، وابن زيد : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أمره عند التأمل شاهد بالصدق ، وهذا على أن من واقعة على غيره ، وهاء منه لربنا •

وقال جابر بن عبد الله ، عن على : إنه وذلك أنه متصل بالنبى صلى الله عليه وسلم إعانة ونسبا فى هاء منه لربنا ، أو لمن إن أوقعناه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز عود هاء يتلوه إلى البينة ، لأنها بمعنى البرهان أو القرآن ، وإنما يجوز عودها للقرآن إن فسرنا الشاهد بغيره ، كجبريل والنبى ولسانه ، فيكون يتلوه بمعنى يقرؤه ، وكالإنجيل وملك فيكون يتلوه بمعنى يتبعه •

(ومِنْ قَبْلِه كِتابُ مُوسَى) مبتدأ وخبره ، والجملة مستأنفة أو معطوفة على الصلة ، والرابط محذوف ، أى إماما له ولغيره ، أى ضابط يتبعه هو بكتاب يشبه كتابه ، ورحمة له ولغيره إذ يصدق القرآن ، والهاء عائدة إلى بينة ، لأن البينة برهان أو قرآن ، أو إلى شاهد ، وقرىء بنصب كتاب عطفا على هاء يتلوه ، فيكون من قبله حالا مـن

كتاب ، وكتاب موسى هو التوراة ، وخصت على أن الشاهد غير الإنجيل للإجماع عليها ، بخلاف الإنجيل فإن اليهود كذبوه .

(إماماً) يرجع إليه أهله فى دينهم ، وهو حال من كتاب فى قراءة النصب ، ومن ضمير الاستقرار فى قراءة الرفع (ورحمةً) على المنزل عليهم ، لأنه صلة إلى خير الدنيا والآخرة (أولئكَ الَّذينَ) على بينة (يُؤمنُون بهِ) أى بالبينة ، لأن المراد بها مذكرا ، وبالشاهد على أنها أو أنه القرآن ، أو أنه الرسول .

(ومَنْ يكْفُرْ به مِنَ الأحْزابِ) الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة ، وأهل الكتاب ، وسائر الكفرة (فالنَّار موْعِدهُ) أى موضع وعد الله أن يضله لا محالة .

(فَلا تَكُ) يا محمد ، والمراد غيره ، أو دم على عدم كونك شاكا ، أو يا من يمكن منه الشك والاستدراك الآتى أنسب بالأول والثالث (فى مِرْيةٍ) وقرىء بضم الميم أى فى شك (مِنْه) أى من البينة أو الشاهد ، على أنها أو إياه القرآن ، أو على أنها مطلق الحق والصواب ، أو من الموعد أو من كون الكفرة موعدهم النار ، والأوجه التى قبلهما أولى ، وعليهما يكون الكلام عائد إلى قوله : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » كما يعود إليه عليهما ، أو عائد إلى قوله : « أفمن كان على بينة » الخ أى ليسا سواء « فلا تك » إلخ أولى قوله : « أم يقولون افتراه » والاستدراك الآتى أنسب بهذا .

(إنَّه) تعليل مستأنف (الحقُّ مِنْ ربكَ) خبر ثان أو حالٌ

من الحق (ولكنَّ أكثَرَ النَّاس لا يعلمُونَ) بما أوحينا إليك ، ومنه الموعد المذكور لاختلال نظرهم وقلته •

(ومَنْ أظلَم ممَّن افتَرَى علَى اللهِ كَذِبا) كنسبة الولد ، وإثبات الشريك ، وإثبات ما لم ينزل ، ونفى ما أنزل ، والاستفهام إنكار ، أى لا أظلم منه •

(أولئِكَ) المفترون (يُعرَضُون علَى ربِّهم) فى المحشر ، بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم قطعا لمعاذيرهم (ويقُولُ الأشهادُ) الملائكة والأنبياء والجوارح ، لوردان هؤلاء كلهم يشهدون ، فهذا أولى من قول مجاهد : إنهم الملائكة والحفظة للأعمال ، ومن قول ابن عباس ، والضحاك : الأنبياء والرسل ، بل قال قتادة : الخلق كلهم ، على أن معنى الإشهاد المشاهدون وهو أشد فى خزيهم ، ويؤيده ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه لا يجزى أحد يوم القيامة إلا ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر » والمفرد شاهد كصاحب وأصحاب ، أو شهيد كشريف وأشراف •

(هؤلاءِ الَّذينَ كَذَبوا علَى ربِّهم) يدخل فى هذا بالتبع والحكم المنافقون ، فإنهم كذبوا على الله فى نصب الحرام دينا ، ومن يقل فى الدين بالجهل •

(ألا لَعنةُ اللهِ علَى الظَّالِمينَ) على العموم ، أو أراد عليهم فوضع الظاهر موضع الضمير ، وذلك من جملة مقول الأشهاد إغراقا فى

الخزى والفضيحة ، وقيل : ذلك مستأنف من كلام الله سبحانه وتعالى ، وذلك يقوله فى الدنيا ، وقيل : يوم القيامة بألسنة الملائكة .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه يقال للمؤمن : أتعرف ذنبك كذا وذنبك كذا ؟ فيقول : أعرف يا رب أعرف يا رب ، حتى تعد ذنوبه ، فيقول فى نفسه : إنى هالك ، فيقول الله : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته » وأما لمشرك والمنافق فينادى عليهما بمسمع الخلائق : « ألا لعنة الله على الظالمين » .

(الَّذِينَ) نعت للظالمين ، أو يقطع أو مبتدأ خبره « أولئك لم يكونوا » الخ (يَصُدُّونَ) يعرضون أو يمنعون الناس (عَنْ سَبِيلِ اللهِ) دينه (وَيَبْغُونَهَا) أى يطلبون سبيل الله ، فإن السبيل يذكر ويؤنث .

(عِوَجاً) أى ذات عوج ، أو معوجة بالزيادة والنقص ، ولا يطلبونها مستقيمة كما هى ، أو الضمير عائد إلى مطلق السبيل على طريق الاستخدام ، وعوجا حال على الوجهين ، أو يبغونها بمعنى يصفون سبيل الله ، أو يطلبونها بعوج ، فعوجا منصوب على نزع الباء ، وكذا إن قلنا : إن المعنى يبغون أهلها بالارتداد ، فإنه من جملة عوج الذى هو الانحراف عن الحق ، وذلك بقهر من قدروا عليه وبإلقاء الشبه ، ولك أن تجعل عوجا بدل اشتمال من محذوف ، أى يبغون أهلها عوجا ، أى عوجا لهم أو منهم ، فحذف الرابط ، أو نظر إلى أن المعنى أن يعوجوا ، أو أن تجعل الضمير على نزع الخافض ، وعوجا مفعول أى يطلبون لها

عوجا أو لأهلها عوجا ، أو يبغون على أهلها ، أو يبغون عليها بالعوج
شبهت بمن يبغى عليه باغ ، ويجاوز الحد فيه .

(وهُم بالآخِرة ِ) متعلق بكافرون (هُم) تأكيد لفظى (كافِر ُون َ)
والجملة حال ، وأكد كفرهم بقوله : « هم » لتوغلهم فيه ، فإنه ولو كان
فى الاصطلاح توكيدا لضمير الأول لكنه فى المعنى تأكيد للكفر .

(أولئِك َ لَم يكُونوا مُعْجِزِين َ) الله (فى الأرْضِ) أرض
الدنيا أن يعاقبهم (ومَا كان َ لَهم مِنْ د ُون ِ الله ِ مِنْ أولياء َ) يمنعونهم
من العذاب ، ولكن أخر عذابهم إلى هذا اليوم ، ليكون أشد وأدوم ،
وهذا مقول لهم يوم القيامة ، وقيل فى الدنيا ، وعليه فالتقدير ولكن نؤخر
عذابهم إلى اليوم الآخر ليكون أشد وأهول ، ومن الأولى متعلقة بمحذوف
حال من أولياء أو من المستتر فى لهم ، والثانية صلة للتأكيد فى اسم كان .

(يُضاعَف ُ) من جملة ما يقال لهم فى ذلك اليوم ، وهكذا إلى
يبصرون : وقيل : استؤنف من هنا إخبار عنهم فى الدنيا ، وقرأ ابن كثير ،
وابن عامر ، ويعقوب : ويضعف بالتشديد وإسقاط الألف (لَهم العَذاب ُ)
فى الآخرة لإضلالهم غيرهم ، ولفرط إعراضهم كما قال .

(ما كانُوا) ما نافية (يسْتَطيعُون السَّمع َ) للحق لشدة إعراضهم
عنه ، وبغضهم له ، أراد أنهم لا ينتفعون بما سمعوا حتى كأنهم لم
يستطيعوا السمع ، فضلا عن أن يسمعوا ، فضلا عن أن ينتفعوا ، وذلك
لاكتسابهم المغطى على قلوبهم ، وخذلان الله إياهم لا جبر منه تعالى .

(وما) نافية (كانُوا يُبْصر ُون َ) خبرا أو آيات ينتفعون بها ،

شبه إعراضهم عنها مع أنهم رأوها بعدم إبصارهم لها ، أو ذلك كناية عن شدة بغضهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يستطيعوا حمل أنفسهم على السمع منه ، والنظر إليه ، والجملتان تعليل لمضاعفة العذاب ، أو مجرد إخبار ، وإن فسرنا الأولياء بالأوثان خصوصا ، صح أن تكونا بيانا لنفى الولاية عنها ، لأنها تسمع ولا تبصر ، فيكون « يضاعف لهم العذاب » معترضا ، وهذا عندى ضعيف ، فإن الظاهر أن المراد نفى من ينصرهم على العموم ، وما ذكرت من كونهما تعليلا للمضاعفة ، أعنى التعليل الجملى ، أولى من قول بعض : إن ما مصدرية ، وحرف التعليل مقدر معهما مثل اللام والباء ، لأن فيه التخريج على حذف الجار مع الحرف المصدرى ، غير أن وإن وكى .

(أولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهم) أهلكوا ، فإن الإهلاك خسران ، كمن أحرق بضاعته أو أضاعها إذ لم ينتفعوا بها فى الطاعة ، أو أضاعوا حظوظها من رحمة الله ، وذلك أنهم عبدوا غير الله سبحانه ، فصاروا إلى النار المؤبدة .

(وضَلَّ) غاب أو حضر ، ولم ينفعهم ، فكأنه غائب (ما كانُوا يفْتَرونَ) من الآلهة وعبادتها وشفاعتها التى يرجون ، أو ضاع عنهم ما كانوا يكسبونه مما زعموا أنه ينفعهم من عبادتها .

(لا جَرَمَ) لابد من (أنهم فى الآخِرةِ هُم الأخْسَرون) دون من آمن بالله ورسوله وعمل صالحا ، كما يفيده الحصر ، فاسم التفضيل خارج عن معناه ، أو دون من آمن ولم يعمل صالحا ، فإنه خاسر ، ولكنهم أخسر ، فاسم التفضيل على معناه ، والفريقان باعوا منازلهم فى الجنة

بمنزل فى النار ، فذلك خسرانهم فى الآخرة ، وما ذكرته من أن لا جرم بمعنى لابد ، وأنهم الخ بتقدير الجار خبر لا ، هو ما يظهر لى ، وهو قول الفراء ، وقيل : لا جرم معنى حقا ، فيكون أنهم الخ فى التأويل فاعلا له ، إذ ضمن معنى المصدر الرافع للفاعل نيابة من فعله ، وقد تقدم الكلام فى ذلك ، وأعقب الله سبحانه وتعالى ذكر أموال الكفرة فى الدنيا ، وخسرانهم فى الآخرة بذكر أحوال المؤمنين فى الدنيا ، وربحهم فى الآخرة إذ قال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَخْبَتُوا إلى ربِّهم) اطمأنوا إليه ، ولما يبالوا بما سواه ، وانقطعوا إليه بالعبادة أو بالخشوع والتواضع ، أو اطمأنوا إلى وعده بالثواب ، وتضرعوا إليه أن يقبل أعمالهم ، والإخبات يتعدى بإلى وباللام ، ولو كان بمعنى الخشوع ، لأن الخشوع إلى الله تضرع إليه والتجاء ، وقيل : يتعدى باللام إذا كان بمعنى الخشوع ، وأصله من الخبت وهو الأرض المطمئنة ، والشىء الوضيع وهو بمثناة ، ومنه الخبيث بالمثلثة ، بمعنى الشىء الدنىء ، حتى قيل : إن المثناة بدل من المثلثة .

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) دائمون .

(مَثَلُ) صفة ، وكلام يشبه ما يضرب مثلا فى الغرابة والحسن (الفَرِيقَيْنِ) فريق الكفر وفريق الإيمان .

(كالأَعْمى والأَصَمِّ) راجع لفريق الكفر ، وقدمه هنا لتقدمه هنالك ، فذلك قيل على طريق اللف والنشر بالترتيب ، شبه فريق الكفر بإنسان

جمع بين العمى والصمم ، وهو عدم سماع شيء أصلا ، فالعطف عطف صفة على أخرى لموصوف واحد ، كما تقول : جاء زيد العالم والعاقل ، تريد جاء زيد المتصف بالعلم والعقل ، أو شبه فريق الكفر بإنسان أعمى ، وبآخر أصم ، فالعطف عطف موصوف على موصوف ، ويعبر عنه بعطف الذات على الذات ، والتشبيه على الوجهين من طريق العرب فى المركب الوهمى ، بأن يمثل حال فريق الكفر لتعاميه عن الآيات ، وتصاممه عن استماعها ، وامتناعه عن تدبرها بحال الأعمى والأصم ، أو بحال الأعمى وحال الأصم ، أو المركب العقلى الأعمى .

(والبَصِيرِ والسَّمِيعِ) راجع لفريق الإيمان ، شبهه بإنسان جامع بين البصر والسمع أو بإنسان سميع ، وبآخر بصير على حد ما مر ، والتشبيه من المركب الوهمى أو العقلى كما مر ، أعنى على طريق العرب فى ذلك ، تعالى الله عن الوهم ، وعن الاتصاف بالعقل أو عدمه ، وبين الأعمى والبصير طباق ، وكذا بين الأصم والسميع ، وهو كثير لا يحتاج إلى التشبيه عليه .

(هَلْ يَسْتَوِيانِ) أى الفريقان ، وقال الفراء : الأعمى والأصم لأنهما فى حيز مكانتهما واحد ، والسميع والبصير لأنهما فى حيز آخر ، فلذلك لم يقل يستوون (مَثَلاً) تمييز أى تشبيها ، أو نعت لمصدر محذوف ، أى استواء مماثلا ، أو حال من الألف ، وأفرد إبقاء على حكم المصدرية ، ولو كان فى معنى اسم فاعل .

(أفلا تَذَكَّرُونَ) تتعظون بضرب الأمثال ، والتأمل فيها ، وأصله تتذكرون ، وأبدلت التاء الثانية ذالا ، وسكنت وأدغمت .

(ولَقَدْ أرْسَلنا نُوحاً إلى قَومِهِ إنِّى لكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ) مخوف بالعقاب لمن خالف أمر الله ، واضح التخويف ، أو موضح لموجبات العقاب ، والجملة مفعول لقول مقدر مستأنف ، أو قال : إنى أو لقول حال مقدر أى أرسلناه إليهم قائلا : إنى أى ناويا أن يقول إذا وصلهم : إنى ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائى : أنى بفتح الهمزة ، أى بأنى كذا قالوا : وليس عندى بشىء لمقام الياء والكاف فى : « إنى لكم » إذ لا معنى لقولك : أرسلنا نوحا إلى قومه بإنذارى لكم ، مع أن ياء إنذارى لنوح ، اللهم إلا أن يقال ذلك على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم والخطاب ، بل هذا لا يصح التفاتا بالنظر إلى التكلم إلا على طريقة السكاكى ، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقال : إنه لهم نذير ، لا على طريق الجمهور ، لأن ضمير التكلم ليس من جملة الكلام له ، وهو الله سبحانه وتعالى ، بل لنوح عليه السلام ، مع أنه لو كان لله لم يكن التفاتا لتقدم التكلم فى أرسلنا .

(أنْ لا تعبُدوا إلا اللهَ) بدل من : « إنى لكم نذير مبين » سواء فتحت همزة إنى أو كسرت ، أو مفعول لمبين على أنه بمعنى موضح من أبان المتعدى ، وذلك على أن مصدرية ناصبة ، ولا نافية ، ويجوز أن تكون مفسرة لقوله : « أرسلنا نوحا » فإنه مستلزم ، ولأن يقول لهم نوح شيئا ، أو لنذير فإن فى كل منهما معنى القول دون حروفه فلا ناهية ، والفعل مجزوم .

(إنى أخافُ عليكم عَذابَ يَومٍ أليمٍ) مؤلم ، وصف اليوم بالإيلام لأنه وقته وهو يوم القيامة ، أو يوم فى الدنيا ، أو أراد وقت عذاب فيها ، وإلا فالمؤلم هو العذاب ، فذلك تجوز فى الإسناد كقولك :

نهاره صائم ، وتأكيدا ، حتى كان اليوم لشدة الإيلام فيه والمؤلم ، وكان اليوم لكثرة الصوم فيه صائم ، والمراد جنس اليوم ، ويجوز نهاره صائم مع إرادة يوم واحد ، لوقوع الصوم فيه ، ولولا ضعف الجر على الجوار لأجزنا أن يكون أليم نعتا لعذاب ، وجر لجوار المجرور ، وسكن يـاء إنى غير نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو •

(فَقَالَ الْمَلَأُ) الأشراف ، مِن ملىء بكذا بمعنى أطاقه • وهم ملئوا بالأمر وتدبيره وكفايته ، أو على ، أى استند وظاهر ، فإنهم يتظاهرون ويتساندون ، أو سموا بذلك لأنهم يملئون القلوب ، أو لامتلائهم بالأحلام والآراء الصائبة •

(الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) لا مزية لك علينا تخص بها من بيننا بالنبوة ووجوب الطاعة لك ، وذلك تعام منهم عن معجزاته ، وعدم اعتداد بها ، لأنهم إنما يعتدون بأمر الدنيا ، أو إشارة إلى أن الرسول إنما يكون مَلَكاً لا بشراً مثلنا ، أو تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه ، لأنهم ذوو مال ودنيا •

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا) أخساؤناوسفلتنا ، كالحاكة والأساكفة ، اعتقادا منهم أن الأشرف من له مال وجاه ، لـم يدروا أن الازدياد فى الدنيا يبعد عن الله ، ويضع ولا يرفع ، فلذلك كان غالب الأنبياء وأتباعهم فقراء ، ليكون حالهم مرغبا فى الآخرة ، ومن هذا فى ادنيا ، بل غالب من يتبعهم حين يبدوا أمرهم ، وهو من يكون عند الناس مستقلا ، والمفرد أرذل بفتح الذال ، ويجوز كونه جمع أرذل بضمها الذى هو جمع رذل بإسكانها ، وعلى هذا هو جمع الجمع •

(بَادِىَ الرَّأىِ) من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى الرأى البادى ، أو الإضافة للبيان ، والنصب على الظرفية ، ويتعلق بمحذوف ، أى اتبعوك وقت حدوث بادى الرأى ، فظرفيته إنما هى بالنيابة ، وهو اسم فاعل بدا بألف لا بالهمزة يبدوا بالواو كدعا يدعو بمعنى ظهر ، أى اتبعوك قبل أن يتوصلوا إلى الرأى الباطن السديد ، ولو تأملوا لم يتبعوك فى الرأى الذى ظهر ، ولعل لهم رأيا أخفوه فى تكذيبك ، واسم فاعل بدأ يبدأ بالهمزة فيهما ، لكن أبدلت فيه بالجواز إبدالها بعد كسرة ياء ، أو على لغة من يقول بدا يبدا بألف فيهما بدلا من الهمزة ، والمعنى اتبعوك أول الرأى ، ولفظ أول تصح ظرفيته بلا تقدير ما يدل على الظرفية ، وقدر بعضهم هنا أيضا وقت حدوث أول الرأى .

وقرأ أبو عمرو باداء بالهمزة من بدأ يبدأ بالهمزة ، وذكر غيرى أنه يتعلق باتبعك المذكور ، أى ومـا نراك اتبعك فى بادى الرأى إلا الأراذل ، وأما غيرهم فلم يتبعك فيه ، بل تأمل وتحقق حتى ظهر أنك غير صادق ، وأجاز بعضهم تعليقه بأراذل أو نرى .

(ومَا نَرَى لكُم عَلينَا مِنْ فَضْلٍ) تكونوا ما به أهلا لنبوة ، واستحقاق المتابعة ، والخطاب لنوح ومن اتبعه ، فكأنهم قالوا : ليس نوح أهلا للنبوة ، ولستم أهلا أن تكون فيكم ، بأن يكون صاحبها منكم ، فليس نوح أهلا لها لذاته ، ولكونه فيكم ، وغالب المخاطب وهو نوح عـلى الغائبين وهم من اتبعه ، وكذا فى قوله :

(بَلْ نظنُّكم كَاذِبينَ) نظنك كاذبا فى دعوى الرسالة ، ونظنهم كاذبين فى دعوى صدقك ، ويجوز كون الخطاب لنوح عليه السلام وحده ،

تعظيما له تبعا منهم ، لعنهم الله ، للمنصب الذى يذكره من نفسه ، وهو منصب الرسالة ، ولو كانوا مكذبين به ومتهاونين ٠

(قالَ يا قَوم أرأيتم) أخبرونى (إن كُنتُ على بيّنة) يقين فى أمر جلى (مِنْ ربِّى) أومن به (وآتانِى رحْمةً مِنْ عِنْدِهِ) معجزة ونبوة كذا ظهر لى ، ثم رأيته لجار الله ، وأجاز أن تكون الرحمة نفس البينة ، ولا إشكال عليه فى الإفراد فى قوله :

(فَعُمِّيَتْ) أى خفيت ، وأما على ما ذكرت فإنما أفرد ولم يقل عميتا ، لأن خفاء المعجزة يوجب خفاء النبوة ، أو الأصل عميت بعد البينة ، فحذف اختصارا ، أو لأن الضمير عائد على كل واحدة ، وقرأ حمزة ، والكسائى ، وحفص بضم العين وتشديد الميم أى أخفيت ، وقرأ أبى : فعماها بالتشديد ، أى عماها ربى ، أى أخفاها بمعنى أنه لم يوفقهم وتركهم وتصميمهم على الكفر (عَليْكُم) فلم نهدكم إذ خفيت أو وصفت بأنها عميا فى قراءة الجمهور ، ومجعولة عميا فى قراءة الكسائى ، وحمزة ، وما كان لا يبصر لا يهدى غيره ٠

(أنلْزِمكمُوها) أنكرهكم على الاهتداء بها بالخبر ، والاستفهام إنكار ، وقرأ بعض بإسكان الميم الأولى تخفيفا ، وقيل : إنه لحن ، ولكن اختلست اختلاسة خفية ضمتها ، فظنها الراوى إسكانا (وأنتم لَها كَارِهُون) إذ لا إكراه فى الدين ، لأنه مبنى على الاختيار ليثاب ويعاقب عليه ٠

(ويا قَوْم لا أسألكم عَليْه) أى على الإنذار ، أو على التبليغ ، أو على ما أدعوكم إليه ، يعلم ذلك من السياق السابق (مالاً) تعطونيه

أجرة (إنْ أجْرِىَ إلاَّ عَلَى اللهِ) وسـكن اليـاء ابن كثير وحمزة والكسائى .

(وما أنا بِطاردِ الَّذينَ آمنُوا) جـواب لهم حين سألوه أن يطردهم ليسلموا فلا يستووا معهم ، أنفوا أن يكونوا مسلمين ، فيضمهم وهؤلاء مجلس واحد ، فاشترطوا لإسلامهم أن يطردهم وقرىء بتنوين طـارد .

(إنَّهمْ مُلاقُوا ربِّهم) تعليل جملى ، أى لأنهم ملاقون ربهم بالبعث فيخاصموننى عنده إن طردتهم ، فيعاقبنى ، أو لأنهم يلاقونه فيفوزون بقربه ، ويجازيهم بالخير ، فكيف أطرد من هذه صفته ، أو لأنهم يلاقون ربهم فيكفينى أمرهم بأن يثيبهم إن كانوا على ما يقولون ، وعلى ما ظهر لى ، ويعاقبهم إن كانوا على غير ذلك ، أو لأنهم يلاقونه فيجازيهم بخير ، فينصف لهم ممن ظلمهم أو طردهم ، أو لأنهم معتقدون ملاقـات ربهم

(ولكنِّى) وسكن الياء غير نافع ، والبزى ، وأبى عمرو (أراكُم قوماً تجْهلُونَ) ملاقاة الله ، أو تجهلون أنهم ليسوا بأهل أن يطردوا ، وأنهم خـير منكم ، أو تجهلون حقهم وأقـدارهم فدعوتموهم أراذل ، وطلبتم طردهم ، أو تسيئون إليهم ، يقال : جهل عليه أى جفاه وأساء إليه ، أو تجهلون عاقبة أمرهم ، أو تجهلون أمر الله وعظمته وأمره ونهيه .

(ويـا قَوْم مَن ينْصُرنى) يمنعنى (مِنَ اللهِ) من عذابـه (إنْ طَرَدتَهم) استفهام إنكار ، أى لا ناصر لى من العذاب الآتى على طردهم ، فإن طاردهم ظالم ينتقم منه ، لأنهم بتلك الصفة (أفَلا تذكَّرونَ)

فتعرفوا على الحق والصواب دونكم ، وإن اشتراطكم طردهم فى إيمانكم خطأ ، وإنهم أهل للإدناء لا للإقصاء .

(ولا أقُولُ لكُم عِنْدى خَزَائِنُ اللهِ) أى ماله ، وإن لى عليكم فضلا بها حتى تجحدوا فضلى حين اطلعتم على أنها ليست عندى ، أو لا أقول هى عندى أعطيكم منها إن اتبعتمونى ، وهذا مستأنف ، وقيل : معطوف على لا أسألكم عليه مالا .

(ولا أعْلَم الغَيْب) عطف على عندى خزائن الله ، فكأنه قيل : ولا أقول أعلم الغيب فتستبعدوا علمه فتكذبونى ، ويجوز أن يكون المعنى لا أكلف علم الغيب ، فأعلم ما فى قلوب من اتبعنى من أسرار خلاف ما أظهروا ، وإنما على قبول ما أظهروا ، وذلك أنهم قالوا كما مر : إن الأراذل اتبعوه فى الظاهر ، وعلى هذا يكون العطف على ما ذكر ، أو على لا أقول ، وفسر ابن الأنبار فى الخزائن بالغيب ، قلت : وجهه أنه نفى علم الغيب مرتين تأكيدا أو لاعتبار اللفظ ، وهو متخالف كما تقول : لا أقول زيد قام ولا قام زيد ، أو معنى كون الخزائن غيبا أنها مال غيبه الله .

(ولا أقُولُ إنى مَلَكٌ) قاله رداً عليهم ، إذ يقولون إنك لست ملكاً فكيف تكون رسولا ؟ أو رداً على قولهم : « ما أنت إلا بشر مثلنا » على أنهم أرادوا به نفى الملائكة ، ويجوز أن يجيب عليه بما يحتمله ، فيكون نفى الملكية باعتبار أنهم أرادوها به وبغير المال ، باعتبار أنهم أرادوا به أنك لم تفضلنا فى المال ، مثل أن يقال لك : إنك لست بفقير ؟ فيقول : لم أتجر ولم أرث غنيا ، ولم أحرث ، أتريد كيف أكون غنيا ، ولم أفعل شيئا من ذلك ؟

كذا ظهر لى ، وعلى كل حال فلا دليل فى قوله : « ولا أقول إنى ملَك » على أن الملك أفضل من المؤمن مطلقا ، ولو نبيا لأنه إنما قال ذلك جوابا لقولهم : إن الرسول ملك لا وضعاً لمرتبة النبوة ، فليس من باب قولك : لا أدعى أنى عالم ، ولا أدعى أنى سلطان المشعر بتسفل مرتبتك عن مرتبتى العالم والسلطان ، خلافا لمن وهم .

(ولا أقُولُ للَّذينَ) أى فى الذين ، أى فى شأن الذين ، وإنما قلت ذلك لأنه لم يخاطب هؤلاء ، بل عبر بصيغة الغيبة إذ قال بعد ذلك : « لن يؤتيهم الله خيراً » (تَزْدرِى) وزنه تفتعل ، وأصله تزترى بتاء بعد الزاى ، أبدلت دالاً ، لأن الزاى جهرية ، والتاء همسية ، فلم يتجانسا ، بخلاف الدال فإنها جهرية كالزاى ، وهو من زرى عليه إذا عابه وحقره ، فالمعنى ولا أقول للذين تحقرهم .

(أعْينكم) أسند الازدراء إلى أعينهم مع أنه قلبى ، مبالغة وتنبيها على أنهم حكموا عليهم بأنهم أراذل بمجرد وقوع أعينهم عليهم ، لما رأوا من قلة مالهم ، وعدم تصنعهم فى لباسهم ، وحالهم ، دون تفكر ، ولو تفكروا لوصفوهم بالكمال .

(لَنْ يؤْتيَهم اللهُ خَيْراً) صلة الذى ، والخير هنا خير الدنيا والآخرة ، أى لا أنفى عنهم الخيرين ، كما يقتضى قولكم : إنهم ليسوا بأهل خير ، فإن لهم خير الآخرة ، وليس لكم وهو خير مما آتاكم الله فى الدنيا ، قادر أن يعطيهم خير الدنيا أيضا .

وقال الحسن : الخير هنا خير الآخرة ، وقد قيل : إنه التوفيق والهداية ، والإيمان والثواب على ذلك فى الآخرة ، ويجوز أن يراد خير

الدنيا أى لا أقول ليسوا أهلا لأن يؤتيهم الله خيراً فى الدنيا ، وقد قيل : حيثما ذكر الخير فى القرآن ، فالمراد المال ، وقال عياض : بل حيث ذكر ، فالمال يدخل فيه ، قلنا : يبعد إرادة المال فى « إن علمتم فيهم خيراً » ولم يرد فى أن ترك خيراً إلا المال .

(اللهُ أعْلَم بما فى أنْفُسِهِم) قلوبهم من خير أو شر (إنِّى) سكن الياء غير نافع ، وأبى عمرو (إذاً) حرف جواب وجزاء ، لقوله : « لن يؤتيهم الله خيراً » لو قاله ، وأهملت لعدم ما تعمل فيه ولتوسطها ، أو ظرف زمان ماض تنوينه عوض عن جملة ، أى إذ قلت ذلك كذا قيل ، واعترض بأن التى تكون هكذا مكسورة الذال مسبوقة بنحو حين أو يوم ، وليس هذا الاعتراض بشىء عندى لصحة المعنى على ذلك ، وكثرة ورود مثلها بلا مانع من حملها على ذلك ، ولا ضير فى الفتح ، فكما تجرد بالكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين ، تحرك بالفتح للتخلص مع قصد الخفة ، وقيل : هى إذا الظرفية الاستقبالية التى هى بألف بلا نون ، حذفه الجملة بعدها ، وعوض عنها التنوين ، وحذفت الألف فى النطق لئلا يلتقى ساكنان ، كأنه قيل : إنى إذا قلت ذلك (لمنَ الظالمينَ) لهم ، وادعى بعضهم أن المراد أنى لمنَ الظالمين إن طردتهم .

(قالُوا يا نوحُ قدْ جادلْتَنا) خاصمتنا ، وقد يقال من جانب الاشتقاق : إن المعنى قد خاصمتنا خصاما يشبه الطرح على الجدالة ، وهى الأرض ، والظاهر عندى أن ذلك مجمل فصله بقوله : (فأكْثَرت جِدالنا) .

ويجوز أن يراد « بجادلتنا » شرعت فى جدالنا ، وبقوله : « فأكثرت جدالنا » أنك بعد الشرع فيه أكثرت من أفراده ، أو من أنواعه ، وقرأ

ابن عباس رضى الله عنهما : فأكثرت جدلنا بفتح الجيم والدال ، وترك الألف (فأتنا بما تعدنا) الرابط محذوف منصوب ، أى بما تعدناه ، أو تعدنا إياه ، لأن الوعد يجوز تعديه لاثنين ، وهذا أولى من تقديره مجرورا بالباء لاختلاف متعلقه الباءين ، والمراد بما تعدنا من العذاب (إن كنت من الصادقين) فى دعوى الرسالة والعقاب على تكذيبها فإن مجرد جدالك لا يؤثر فينا .

(قال إنما يأتيكم به الله) لا أنا ، فإنه فى حكمه ومقدور له لا فى حكمى وقدرتى ، وهو المكفور به ، والمعصى فى رسالته ، وأما أنا فرسول فقط ، والانتقام إليه لا إلى غيره (إن شاء) تعجيله وإلا أخره كما تقتضيه الحكمة .

(وما أنتم بمعجزين) له بدفع عذابه ، أو الهرب منه ، وأجاب قولهم : إن جداله لا يؤثر فيهم بقوله :

(ولا ينفعكم نصحى) وسكن الياء غير نافع ، وأبى عمرو (إن أردت أن أنصح لكم) جواب هذا الشرط محذوف مدلول عليه بقوله : « لا ينفعكم نصحى » وجملة هذا الشرط والجواب دليل للجواب المقدر لقوله :

(إن كان الله يريد أن يغويكم) فكأنه قيل : إن كان الله يريد أن يغويكم ، فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحى ، فلو قال رجل لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ، إن كلمت زيدا ، فدخلت ثم كلمت لم تطلق ، لأن مجموع ما قيل قوله : إن كلمت زيدا دليل الجواب ، فكأنه مذكور بعده كذا ظهر فى بيان كلام القاضى ، وإنما قال : إن أردت ، ولم يقل : إن

نصحت لكم إشارة إلى أنه إذا أراد الله إغواء أحد فلا ينفع فيه شيء ، حتى إذا أردت نصحه ينبغي أن لا يكون ، لأنها تؤثر ، ولكن الله أبهم إرادة الإغواء ، وإلى أن إرادة الله تغلب إرادة غيره ، وخلاف إرادته محال ، وإرادة الله تتعلق بالإغواء كما هنا وبالإرشاد ، وإغواءه خذلانه لا جبره ، وقيل : المراد [من] الإغواء هنا الإهلاك ، من غوى الفصيل إذا تخم باللبن فمات ، ويحتمل أن يريد صاحب هذا القول الإغواء بمعناه المذكور أولا ، فإن الخذلان يؤدي إلى الهلاك .

(هُوَ رَبُّكُم) مالككم يفعل ما يشاء ولا تخرجون عن سلطانه (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) بالبعث للحساب .

قال الله سبحانه : (أَمْ يَقُولُونَ) أي بل يقول كفار مكة افتراه ، أي افترى محمد القرآن قاله الطبري ، وهو قول مقاتل وهو معترض في قصة نوح ، قلت : الذي عندي أنه في قصة نوح خارج عنها ، يقول قومه : إنه افترى من عنده ما يقول لهم ، كما يدل له سكوت جار الله ، والقاضي ، ثم رأيت الخازن خرج به ونسبه لأكثر المفسرين .

(قُلْ) يا محمد أو يا نوح (إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ) لا عليكم (إِجْرَامِي) أي عقوبته ، وهو مصدر ، وقرئ بفتح الهمزة جمع جُرم ، أي ذنوبي ، أي إن كنت مجرما كفاني عقوبة الإجرام .

(وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) أي من إجرامكم ، أو من الإجرام الذي تجرمونه ، أي بريء من عقوبة إجرامكم عليَّ بنسبتي إلى الافتراء ، إن لم أكن مفتريا ، ولا وجه لإعراضكم ومعاداتكم ، ويجوز أن يكون هذا كلاما منقطعا مستقلا تبرئة نفسه مما أدعو عليه .

(وأوحِيَ إلى نُوحٍ أنَّه لَنْ يُؤمِنَ مِنْ قَومِك إلاّ مَنْ قَدْ آمنَ) فحينئذ دعا عليهم : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً » •

(فَلا تَبتَئِسْ) الذى يظهر لى أنه تفتعل من البؤس ، أى فلا يتأثر فيك بؤسهم فتحزن به ، وتتضرر (بِمَا كانُوا يفْعلُونَ) من أضرار وكفر ، فإنى مهلكهم ، وكانوا يضربونه حتى يلقوه فى ثوب ، ويلقوه فى بيت أو مزبلة ، يظنونه ميتا فيفيق ويخرج من الغد ، يدعوهم ويخنقونه ، فإذا أفاق قال : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ومضت عنه قرون ، كل أنجس مما قبله ، يتواصون بتكذيبه [فيقولون] : قد كان مع آبائنا ، هذا الشيخ مجنون لا يقبلون منه ، وجاء شيخ متكىء على عصاه معه ابنه ، فحذر به ابنه ، فقال : ناولنيها فناوله فشجه بها شجةٍ منكرة ، فأوحى الله إليه « أنه لن يؤمن » الآية •

(واصْنَع الفلْكَ بأعْيُنِنا) بمرأى وحضرة وعلم منا ، وذلك كناية عن الحفظ العظيم على طريق التمثيل ، فإن مراعاة الشىء عن الاختلال وحفظه عمن أراده بسوء إما يكونان فى الجملة بعين الوجه ، تعالى الله عن ذلك ، ولو كان ذلك ليس على حقيقة جمع العين ، وهو مبالغة ، ويصح أن يكون المراد بالأعين الملائكة الذين جعلهم الله رقباء على حفظه ، وعلى كل حال ، فإن الله حفظه عن أن يزيغ فى صنعته ، وأن يمنعه أحد عنها •

(وَوَحْيِنَا) أى أمرنا ووحْينا إليك بكيفية صنعها ، قال ابن عباس : لم يعلم كيف صنعتها ، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر ، وعن بعض أن رأسها مثل رأس الحمامة ، وذنبها مثل ذنب الديك •

قال فى عرائس القرآن : أقنطه الله من إيمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ، ولا فى أرحام النساء مؤمن ، وأمره [أن] يصنع الفلك .

قال : رب وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجرى على الماء ، حتى أغرق أهل معصيتى ، وأريح أرضى منهم .

قال : يا رب أين الماء ؟ قال : يا نوح إنى على ما أشاء قدير .

قال : رب أين الشجر ؟ فأمره بغرس الشجر فغرسه ، فأتى على ذلك أربعين عاما ، فكف فى تلك المدة عن الدعوة ، وأعقم الله تعالى أرحام نسائهم ، ولما أدرك الشجر أمره بقطعه فقطعه وجففه ولفقه .

فقال : يا رب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله على ثلاث صور : رأسه كراس الديك ، وجوفه كجوف الطير ، وذنبه كذنب الديك مائلا ، واجعله ثلاث طبقات ، واجعل له أبوابا فى عرضه ، واجعل طوله ثمانين ذراعا ، وعرضه خمسين ، وطولها فى السماء ثلاثين ، والذراع إلى المنكب ، هذا قول أهل الكتاب ثم بعث الله جبريل يعلمه ا هـ .

وكتب على كل مسمار اسم نبى ، فعدد مساميرها كعدد الأنبياء ، وقيل : إنه أمر عوجا أن يأتيه بالخشب ، فأتاه بها من الشام .

وقال زيد بن أسلم : مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ، ومائة سنة يصنع الفلك .

وقال كعب : عمله فى ثلاثين سنة ، وعن الحسن طولها ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع .

وعن ابن عباس : اتخذها فى سنتين ، وطولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعا ، وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا ، وكـانت من خشب الساج .

وروى أنه عملها فى دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان ، زعم أهل الكتاب أن الله أمره أن يصنعها منه .

وقيل : قال لجبريل : كيف أصنعها ولست نجارا ؟ قال : فإن ربك يأمرك بصنعها ، فأخذ القادوم فجعل ينجر فلا يخطىء ، وعن الضحاك ، عن ابن عباس : طولها ستمائة وستون ذراعا ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثون ذراعا ، وطولها فى السماء ثلاثة وثلاثون ذراعا ، وطلاها بالقار ظاهرا وباطنا ، قيل : فجَّر الله عين القار حيث يصنعها ، فغلى غليانا حتى طلاها .

وروى أن نوحا أبطأ فى عملها رجاء إيمانهم ، فكان يعمل فى مهلة ، وإنما يتم هذا لو كان إيحاء الله إليه بأنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، بعد أمره بصنع السفينة .

وروى أن الله سبحانه أوحى إليه أن عجل فى صنع السفينة ، فقد اشتد غضبى على من عصانى ، فاستأجر نجارين يعملون معه ، ومـع أولاده سام ويافث وحام ، ينحتون الخشب ، ولما كملت قالت : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ونوح نبى الله ، أنا السفينة التى من ركبنى نجا ، ومن تخلف غرق ، ولا يدخلنى إلا أهل الإخلاص ، فقالوا : هـذا مـن سـحرك .

فسار نوح إلى الحج والعمرة ، فأذن الله له ، فهم قومه بإحراقها بعده ، فرفعتها الملائكة ، وهم ينظرون ، ولما رجع أتوا بها .

(ولا تخاطبني) لا تدعني بدفع العذاب (في الذين) أي في شأن الذين ، أو لا فلا تراجعني في استدفاع العذاب عن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي (إنهم مغرقون) بالطوفان ، لا سبيل لنجاتهم ، وروى أنه دعاه في ابنه كنعان ، وامرأته واعلة ، فنزل عليه ذلك قبل مقتضى الظاهر أن لا يقال : إنهم مغرقون بالتأكيد ، لكن لما لوح إلى نوح عليه السلام ما يشعر إشعارا ما بأنه قد حق عليهم العذاب ، صار المقام مقام تردد المخاطب ، هل صاروا محكوما عليهم بالإغراق أم لا ، والمتردد يحسن التأكيد له فأكد .

(ويصنع) حكاية حال ماضية ، بأن نزل حالهم كأنها حاضرة في وقت نزول هذه الآية على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو جعله كأنه حاضر لها ، وأن زمانه زمانها (الفلك وكلما) كل ظرف زمان متعلق بسخروا ، ويكون قوله : « قال » استئنافا بيانيا متعلق بقال ، فيكون سخروا بدلا من بدل اشتمال ، أو نعتا للا ، وما مصدرية ، والفعل مما بعدها مضاف إليه ، وإنما صح أن يكون كل ظرف زمان لإضافته إلى المصدر النائب عن اسم الزمان (مر عليه) وهو في عملها في تهيئة آلات عملها (ملأ من قومه) الملأ هنا الجماعة .

(سخروا منه) لعمله ، وكان يعملها في أرض بعيدة من الماء في وقت عز الماء فيه عزة شديدة ، وكانوا يتضاحكون ويقولون له : يا نوح بينما تزعم أنك رسول رب العالمين ، إذ صرت نجارا ، ويقولون : ألا ترون هذا المجنون يتخذ بيتا من خشب يسيره على الماء ، وقيل : يقولون : يا نوح ما تصنع ؟ قال : أصنع بيتا يمشي على الماء فيضحكون منه .

(قــال إنْ تَسْخَرُوا) الآن (منَّا فإنَّا نَسْخَرُ) بعــد (مِنكم) إذا غرقتم فى الدنيا ، وأحرقتم فى الآخرة (كما تسخرون) ومعنى سخرية الأنبياء والمؤمنين ظهور بطلان كيد أعدائهم ، وظهور هلاكهم ، وإلا فمنصبهم بعيد عن السخرية ، وذكرت فى المشاكلة ، أو لأن المراد ترى جزاء سخريتكم ، وقيل : المعنى إن تستجهلونا فى عملنا ، فإنــا نستجهلكم فى استجهالكم ، لأنكم لا تستجهلوننا إلا عن جهل بحقيقــة الأمر •

(فسَوفَ تعلَمونَ مَن يأتيهِ) مفعول تعملون ومعناه تعرفون (عذابٌ يُخزيهِ) يهينه وهم قومه ، والعذاب الغرق •

(ويَحلُّ) ينزل (عليْه عذابٌ مُقيمٌ) دائم وهو النــار ، ويجوز أن يكون على طريق الاستعارة بالكناية ، بأن مشبه العذاب المقيم بالدين المؤجل الذى لا انفكاك عنه ، ورمز إلى ذلك بذكر الحلول الملائم للدين المؤجل •

(حتَّى إذا جاءَ أمرُنا) حتى هذه ابتدائية عائدة إلى يصنع ، وليست الابتدائية خارجة عن الغاية بالكلية ، كما قد يتوهم ، بل هى بمنزلة فاء السببية ، المتفرع ما بعدها على ما قبلها ، ففى ذلك رائحة الغاية فافهم ، وقد أوضحته فى النحو ، وقيل : الداخلة على إذا جارة ، وذكر القاضى أنها غاية ليصنع وما بينهما حال من ضــميره ، أو ابتدائية انتهى • والأمر واحد الأمور ، أو مصدر أى أمرنا للماء بالفوران •

(وفَارَ) أى نبع بالماء وغلى كالقدر (التَّنُّور) الذى يخبز فيه

عند الحسن ، ومجاهد ، والشعبى ، وأكثر المفسرين ، وابن عباس فى الرواية الصحيحة عنه ، وهو الصحيح ، لأن اللفظ حقيقة فيه ، جعل الله نبع الماء منه علامة لنوح يركب هو وما ومن معه عندها فى السفينة ، وقال لامرأته : إذا رأيته يفور فأخبرينى فأخبرته .

قال مقاتل : كان تنور لآدم فى الشام فى موضع يقال له عين ورد ، من ناحية الجزيرة ، وعن ابن عباس أنه بالهند ، وعن مجاهد ، عن الشعبى : اتخذ السفينة فى جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور مما يلى باب كندة على يمين الداخل ، وكان يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة ، رواه السدى عنه ، وهو من حجارة تخبز فيه حواء ، ثم صار إلى نوح قاله الحسن ، وأل للعهد ، وكان فى بيت نوح معهودا عنده .

ويجوز أن لا يكون المراد حقيقة نبع الماء من التنور ، بل المراد الكناية عن شدة الأمر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الآن حمى الوطيس » وهو لفظ فارسى جاء فى القرآن ، وقيل : كان قبل ذلك فى لسان العرب من لغة العجم ، ولا تعرف لسماة العرب اسما غير ذلك ، ولذلك جاء فى القرآن ، وقيل : ذلك اسمه فى كل لغة ، وقال على بن أبى طالب : فار التنور ، طلع الفجر ، شبه طلوع نور الصبح بفوران نار التنور ، وقال ابن عباس فى رواية ، وعكرمة ، والزهرى : فار التنور انبجس الماء على وجه الأرض ، وقيل : فار عليه ، وقيل : فار على أعلى موضع فيها .

(قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ) أى من كل نوع ذكر ونوع أنثى (اثْنَيْنِ) فردين اثنين ، فرد ذكر ، وفرد أنثى ، وهو مفعول

احمل فى الفلك ، وقرأ حفص تنوين كل فيكون زوجين مفعول لاحمل ، واثنين توكيد أو نعت مؤكد ، فيكون الزوجان الفرد الذكر والفرد الأنثى ، وكذا قرأ فى « سورة المؤمنون » .

قال فى عرائس القرآن وغيره : حشر الله إليه الدواب والطيور ، من البر والبحر ، والسهل والجبل ، لئلا ينقطع نسلها . قال ابن عباس : أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة ، وأقبلت الوحوش والطير والدواب إلى نوح ، حين أصابها المطر ، وأول ما حمل الدرة ، وآخره الحمار ، وتعلق إبليس بذنبه ، فيأمره نوح بالدخول فينهض فلا يستطيع ، حتى قال له نوح : ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك ، كلمة زل بها لسانه ، فخلاه إبليس فدخل ، ودخل إبليس فقال له : مـا أدخلك يا عدو الله اخرج ؟ قال : لا أخرج ألم تقل للحمار ادخل وإن كان الشيطان معك ، ولا بد من حملى ، فإنى من المنظرين وكان على ظهر الفلك ، وقيل على ذنبها ، واشترط عليه أن لا يوسوس فيها أحدا ما دام فيها .

وروى أنه قال له : ادخل يا ملعون ، فخلاه الشيطان فدخل ودخل بعده ، فقال له : من أدخلك ؟ فقال : ألم تقل ادخل يا ملعون ، وذكر الثلاثى أنه قال : ادخل يا شيطان فدخل بعده ، فقال له : من أدخلك ؟ قال : أنت حين قلت : يا شيطان ، ولا بأس بقوله ذلك ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله العقرب » ولو لم يجزلنا أن نقول ذلك للعقرب ، ومثلها مما ورد فيه عنه لعنة ، فإن العقرب والحمار سواء فى عدم التكليف ، وقال له : ادع ربك أن يتوب علىّ ، فقال الله له : قل له تسجد لآدم فأتوب عليه ، فقال له ، فقال : لم أسجد له حيا فكيف أسجد له ميتا ؟

قيل : أتت الحية والعقرب نوحا ليحملهما ، فقال : إنكما سبب الضرر لا أحملكما ، قالتا : احملنا نحن لا نضر أحدا ذكرك ، فمن قرأ حين يخاف مضرتهما : « سلام على نوح فى العالمين * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين » لم تضراه .

قال وهب : لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال : كيف أصنع بالأسد والبقر ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمار والهر ؟ قال الله تعالى : من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يا رب ، قال : فإنى مؤلف بينها حتى لا يتضاروا ، وألقى على الأسد الحمّى وأشغله ، وجعل فى البطن الأول الوحوش والسباع والهوام ، وفى الأسط الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه فى البطن الأعلى ، لئلا يملهم شىء ، وقيل : حمل الناس فى الأوسط ، والطير فى الأعلى ، وغير ذلك فى الأسفل .

وقال التلاتي : حمل الرجال فى الطبقة الأولى ، والنساء فى الثانية ، والوحوش والطير فى الثالثة ، والحية فى الرابعة ، وكانت عظيمة ، فضربها جبريل فأسقط أنيابها ، والعقرب والهوام فى الخامسة ، وكانت العقرب عظيمة ، فضربها وأسقط ذنبها ، والسباع ، وكل ذى ناب فى السادسة ، وكان الأسد كالفيل فضربه بجناحه وقال : لا زلت محموما .

وحمل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره ، وحمل معه جسد آدم معترضا بين الرجال والنساء ، وروى أنه حمل معه من أولاد آدم من بقى منهم إلى ذلك الحين ، وهم ثمانون بين رجل وامرأة ، ولما كانوا فى السفينة نزل الماء الأكبر ، أمطرت السماء كأفواه القرب ، وفجرت

الأرض ، وكانت بين إرسال الماء واحتمال الفلك أربعون ليلة ، ثم احتملها •

وعن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس : قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها ، فانطلق بهم حتى أتى كثيبا من رمل ، فأخذ كفا من ذلك التراب وقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله أعلم ، قال : هذا كعب بن حام بن نوح ، قال : فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه ، قال له عيسى : هكذا هلكت ، قال : لا مت وأنا شاب ، ولكنى ظننت أنها الساعة ، فمن أجل ذلك شبت ، قال له : حدثنا عن سفينة نوح ، قال : كان طولها ألف ذراع ومائة ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحوش ، وطبقة فيها الطير ، وطبقة فيها الإنس ، فلما كثرت أرواث الدواب ، أوحى الله إلى نوح أن اغمر ذنب الفيل فغمره ، فخرج منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث •

وتوالد الفأر فى السفينة ، فجعل يقرضها فأوحى الله إليه أن اضرب بين عينى الأسد ، فضرب فخرج منه سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر ، وقالوا : يا روح الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا يحدثنا ، فقال : كيف يتبعكم من لا رزق له ، ثم قال عد بإذن الله فعاد ترابا انتهى •

وأمر نوحا أن لا يقرب الذكر الأنثى ، وأصاب حام امرأته فى السفينة فدعا عليه أن يغير نطفته فجاء بالسودان ، وقال الكلبى : وثب الكلب على الكلبة فدعا عليه وقال : اللهم اجعله عسرا ، وقيل سبب تغيير نطفة حام أنه رأى عورة نوح كشفها الريح وهو نائم فضحك ، فدعا عليه •

وروى أنه لما حشر الله الدواب إليه ، جعل يضرب بيديه فى كل جنس ، فتقع اليمنى على الذكر ، واليسرى على الأنثى ، فيجعلها فى السفينة .

وقيل : أمره الله أن ينادى بإتيان زوجين اثنين من كل جنس بالقرعة إليه ، فأتاه من أصابته القرعة ، وعن الحسن : لم يحمل معه إلا ما يبيض أو يلد ، وأما ما سوى ذلك مما يتوالد من الطير من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منه شيئا .

قال الفخر : وأما الذى يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد ، لأنه من الجن وهو جسم نارى وهوائى ، فكيف يفر من الغرق ، وأيضا فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ، ولم يرد خبر صحيح ، فالأولى ترك الخوض فيه ، قلت : كونه مركبا من نار يناسب الفرار من الغرق .

وذكر الشيخ هود أنه مسح ذنب الفيل فخرج منه خنزيران يعنى يعني خنزير وخنزيرة ، يأكلان الزبل ، وعطس الأسد فخرج من منخريه سنوران يعنى سنور وسنورة يأكلان الفأر .

(وَأَهْلَكَ) الواو عاطفة ، وأهل معطوف على مفعول احمل ، والكاف مضاف إليه ، والمراد ولده وأزواجهم ، وامرأته المؤمنة (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) القضاء بالهلاك كامرأته الكافرة واعلة ، وابنه كنعان وهو ابنها (وَمَنْ آمَنَ) عطف على الأهل ، أو مفعول احمل وهو أولى .

(وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) سام وحام ويافث ونساؤهم

الثلاث ، وزوجته المؤمنة ، واثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة ، فجملتهم تسعة وسبعون إنسانا بنوح عليه السلام ، وقيل : ثمانون نصفهم ذكور ونصفهم إناث ، وعن ابن عباس كل [من] فيها من الرجال ثمانون ، أحدهم جرهم ، وذكرت خلافا غير هذه السورة ، قال القرطبى : الصواب الوقف عن عددهم ، إذ لم يرد فى الكتاب ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوصف بالقلة كما وصفهم الله تعالى .

(وقالَ اركَبُوا فيها) قال الله ذلك ، وقيل قال نوح (بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها ومُرْسَاها) البـاء متعلق باركبوا ، أو بمحذوف حالا أى ملتبسين باسم الله ، أو مفعول الحال محذوف ، أى قائلين باسم الله ، ومجرى ومرسى ظرفان ميميان زمانيان ، أو مصدران ميميان نائبان عن ظرف زمان ، ويتعلقان بالحال المقدر ، وهى ملتبسين أو قائلين كذا قيل .

قلت : إنما يصح ذلك على أن المراد بالركوب فيها دخولها والاستمرار فيها ، لا مجرد الدخول مع قطع النظر عن الاستمرار ، لأن إجراءها وإرساءها لم يوجد وقت الدخول ، إلا إن حملت الحال على الحال المقدر ، وأيضا فى جعل مجرى ومرسى ظرفين حمل على الشذوذ ، لأنه لم يعمل فيها ما هو من لفظهما ومعناهما ، أو معناهما .

ويجوز كون بسـم الله خبرا ومجراها بمعنى إجراءها مبتـدأ ، والجملة مستأنفة ، أو مفعول لحـال محذوفة ، أى قائلين : بسم الله ومرساها ، وحال من مجرور فى ، أو بسم متعلق بمجرى ، ومجـرى مبتدأ بمعنى الإجراء ، والخبر محذوف مـن الواو ، والجملـة كذلك حال من مجرور فى ، أو مستأنفة ، أو مفعول لحال محذوفة يجوز أن

يكون الاسم مفخما ، وقرأ الأخوان وهما : حمزة ، والكسائى بفتح الميمين ، فيكون ذلك اسمى مكان أو زمان أو مصدرى ميمى من جرى أو رسا الثلاثيين ، وكذا قرأ حفص عن عاصم ، وقرأ الحرميان نافع ، وابن كثير وغيرهما بضم الميم من أجرى وأرسى الرباعيين والرسو الثبوت ، والإرساء الإثبات .

وقرأ مجاهد مجريها ومرسيها بضم الميمين وكسر الراء والسين ، وهما اسما فاعل أجرى وأرسى نعتان لله ، وأما ما روى ان حفصا قرأ بضم الميم وكسر الراء فالمراد بالكسر فيه الإمالة ، ويتعين فى قراءة مجاهد تعليق الباء باركبوا أو بمحذوف حال ، وأسلم الأوجه على قراءة غيره جعل المجرى والمرسى مبتدأ وبسم خبر ، والجملة مستأنفة أو حال من مجرور فى ، أو مفعول لقول محذوف يقدر حالا .

وروى أنه استوى نوح على صدرها وقال : بسم الله مجراها ومرساها ، وقال كل من فيها : بسم الله ، وعلى ملة نوح رسول الله ، وروى أنه إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست ، وذكره الضحاك ، وقال : إن ذلك تعليم من الله لعباده ، كيف يبدءون أمرهم باسم الله لينجح ، وفى الحديث : « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها » (إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) « وما قدروا الله حق قدره » والمراد إذا ركبوا فى السفينة كما فى حديث آخر : « قد تبين الله لكم ما تقولون إذا ركبتم فى البحر فقولوا : « باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » وإذا اركبتم فى البر قلتم : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون » » .

وفى مصحف أبى : وقال اركبوا فيها على بسم الله مجراها ومرساها ، قالوا : من نقش الآية فى مقدم السفينة أو مؤخرها ، بل فى عود ساج ورسمه فى ذلك نجت من الغرق ، وعن ابن عباس : فمن قال إذا أراد ركوب دابة أو غيرها : بسم الله الملك لله « وما قدروا الله حق قدره » إلى « عما يشركون » و « قال اركبوا فيها » الآية فعطب أو غرق فعلىَّ ديته .

وعنه : من قال حين يركب البحر : بسم الله الملك لله ، يا من لـه السموات السبع طائعة ، والأرضون السبع طائعة ، والجبال الشامخة خاشعة ، والبحور الزاخرة خاضعة ، احفظنى فأنت خير حافظا وأنت أرحم الراحمين « وما قدروا الله حق قدره » إلى « عما يشركـون » وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين والملائكة المقربين « وقال اركبوا فيها » الآية فغرق أو عطب فعلىَّ ديته .

قال ابن شبل : وصلت ساحل تونس فوجدت فيه اثنين وعشرين سفينة موسعة بالعظام ، فدخلت فى إحداهن فقلت : بسم الله الملك لله ، « وما قدروا الله » إلى « عما يشركون » و « قال اركبوا » الآية فخرجت السفن ، وما وصل ساحل الأندلس غير التى أنا فيها .

وعن ابن عمر : أمان من الغرق أن يقول راكب البحر : بسم الله الملك الرحمن « وما قدروا الله حق قدره » الآية « وقال اركبوا فيها » « فإذا استويت أنت » إلى « المنزلين » « إن الله يمسك السموات » الآية « إنى توكلت على » الآية « والله من ورائهم » إلى « محفوظ » وأشار بذكر كونه غفورا رحيما إلى أنه لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته لكم لما نجاكم .

(وَهى تَجْرى بِهِم) كلام مستأنف فى الإخبار عنها فيما ظهر لى ، وذكر القاضى تبعا لجار الله أنه متصل بمحذوف دل عليه : « اركبوا » أى فركبوا مسمين وهى تجرى وهم فيها (فى مَوْجٍ) أى وسط الموج أو تشقه أو مع الموج (كالجِبالِ) كل موجة كالجبل عظما وارتفاعا ، وهى الماء المرتفع عند الاضطراب ، وهذا دليل على أن الماء لم يطبق ما بين السماء والأرض ، فإن الموج فوق الماء ، ولما روى أنه جعل لها بابا وكوى فى وسطها ، وأن أهلها أظلمت أعينهم بالنظر إلى الماء حتى نوحا ، فأمروا بالاكتحال بالإثمد يوم عاشوراء الذى خرجوا فيه منها .

قال ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اكتحل بالإثمد يوم عاشوراء لم تمرد عيناه أبدا » وإنما على الماء شوامخ خمسة عشر ذراعا ، ذكره ابن عباس ، وقيل : أربعين ذرعا .

وقال جار الله : إن الماء طبق ما بين السماء والأرض ، وإن الفلك تجرى جوف الماء كالحوت ، وقيل : بين ماء الأرض وما السماء ، فتكون غير مفتوحة الأعلى ، ويكون بابها مغلقا بحيث لا ينفذه الماء ، وإنما جعل ليدخلوا منه أولا ، ويخرجوا منه آخرا ، وكذا الكوى غلقت عند وصول الماء إليها ، ويكون الموج قبل التطبيق ، فيكونون يستضيئون بنحو مصباح أو جوهرة ، ثم رأيت التلاتى ذكر أنهم يعرفون بعضهم بعضا ، وينظرون مصالحهم بنور جوهرة فى صدرها ، وإذا زال علموا بالليل ، ويعرفون الصبح بصراخ الديك ، سبحان الله القدوس ، وروى أن نصف الماء من السماء أخضر ، ونصفه من الأرض أبيض .

قال فى عرائس القرآن : طافت السفينة بأهلها الأرض كلها ستة

أشهر ، وطافت بالحرم سبعا ولم تدخل ، وقيل : دخلته ، وطافت بالبيت سبعا أعنى بموضعه وهو يسمع تلبيتها ، وقد رفع الله البيت ، وخبأ جبريل الحجر الأسود فى أبى قبيس ، ومرت قبل ذلك على بيت المقدس فقالت له : هذا موضع بيت المقدس ، ولا تمر على موضع إلا أخبرته به .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو رحم الله أحدا من قوم نوح لرحم أم الصبى خشيت عليه الغرق ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى أعلى الجبل فارتفعت حتى بلغت قمته ، ولما بلغها الماء خرجت حتى استوت فى الجبل ، وحملت الصبى ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء » وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى لم يعقم أرحام نسائهم ، وأن فيهم من لم يبلغ ، ولا مانع من إغراق من لم يبلغ ، كما أهلك أنواع الحيوان كله غير ذكر وأنثى من كل ، وكما أهلك من لم يبلغ من الأمم مع من بلغ كقوم هود وصالح .

فلله فعل ما شاء فى ملكه وهو الحكيم ، فإن الله سبحانه أغرق أهل الأرض إلا من فى السفينة وقوما سيأتى ذكرهم فى سورة نوح ، قيل : وإلا عوج بن عانق ، وكان يشرب من السحاب ، ويتناول الحوت من قمر البحر ويشوبه لعين الشمس ويأكله ، ويرد شيئه لعين الشمس أن حرارة الشمس حيث السحاب وما فوقه لا تبلغ الشىء ، وما هى إلا فوق حرارتها فينا بيسير قال لنوح : احملنى معك ، فقال : لا يا عدو الله ، فإنى لم أومر بذلك ، وما بلغ ماء الطوفان ركبتيه ، وقيل : بلغ خاصرته ، وسبب نجاته فيما قالوا أنه حمل خشب الساج من الشام لنوح ، وكان ولد زنى ، وعناق أمه ولد فى حياة آدم عليه السلام ، وعاش ثلاثة آلاف

سنة وستمائة سنة ، ولم يعش هذه المدة غيره ، وقيل : عاش ألف سنة ، وأعان نوحا على عمل الفلك ، وقال له يوما : أشبعني يا نوح ، فأتاه بثلاثة أقراص من خبز شعير وغطى به رأسه وقال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم فقالها فشبع بقرص ونصف ، وقال : كنت أظن أني لا يشبعني طعام الدنيا كلها حكاه التلاتي .

وقيل : قال لا أقول بسم الله الرحمن الرحيم فأكل فشبع ، وذكر ابن كثير وابن القيم أنه لم يكن عوجا ، وأنه كذب من أهل الكتاب ، وذكر السيوطي أنه من بقية قوم عاد ، وأن طوله نحو مائة ذراع لا ما قالوا ، وأن موسى قتله ، وذكر بعض أنه ولد زنى لأخت نوح .

(وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ) اسمه كنعان ، وقيل : يام وهو كافر ، وقرأ علي بن أبي طالب ابنها ، وقرأ ابنه محمد ابنه بفتح الهاء وإسقاط الألف اكتفاء بالفتحة ، إما على أنه ابن لها دونه وهو ربيبه كما قال اللقاني ، ومحمد بن جعفر الباقر ، وإما على أنه ولد زنى كما قال الحسن ومجاهد ، ولم يعلم به نوح ، وقيل : علم ورد بأن نساء الأنبياء معصومة من ذلك ، وأما : « فخانتاهما » فالمراد به الخيانة في الدين ، وأما : « إن ابني من أهلي » فليس نصا إذ لم يقل إن ابني مني ، فقال الله : إنه ليس من أهلك الناجين ، أو توهم أن الربيب كالابن فقال : إنه من أهلي ، فقال الله : إنه ليس كالابن ، وإنه كافر .

قال الحسن : والله ما كان ابنه ، فقال قتادة : إن أهل الكتاب لا يختلفون أنه ابنه ، فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ، وقرأ السدي :

ونادى نوح ابنه بألف الندبة ، وهاء السكت ، وإنما ساغ حذف حرف الندبة لكون ذلك حكاية ولدلالة الألف .

(وكانَ) الواو للحال بلا تقدير قد ، وأوجب تقديرها (فى مَعْزِلٍ) أى موضع عزل ، فهو اسم مكان ، وهو موضع عزل فيه نفسه عن السفينة ، أو عن أبيه ، أو عن دين أبيه ، أو شبه دين الكفر بموضع استقر عليه ، وعزل فيه نفسه عن دين أبيه .

(يا بُنَىَّ) أصله بنيو أبدلت الواو وهى لام الكلمة ياء ، وأدغمت فيها ياء التصغير ، وحذفت ياء الإضافة التى بعد الواو اكتفاء بالكسرة لا للساكن بعدها وهو الراء ، وإلا كتبت فى الخط ، ولو حذفت خطا ، اللهم إلا أن يقال : حذفت فى الخط تبعا للفظ من شذوذ خط المصحف ، وذلك قراءة الجمهور فى القرآن ، إلا ابن كثير ، فإنه أثبت بالإضافة فى الموضع الأول من لقمان باتفاق الرواة عنه حال الوقف ، وفى الثالث فى رواية قنبل وإلا عاصما فإنه فتح الياء هنا اقتصارا على الألف المحذوفة المبدلة من ياء الإضافة ، وإنما حذفت الألف تخفيفا للساكن بعدها ، وإلا ثبتت فى الخط إلا أن يقال كما مر حذفت من الخط شذوذا أو اختلف الرواة عنه فى سائر المواضع ، وقرأ السدى يا ابناه بألف الندبة وهاء السكت .

(اركَبْ مَعَنا) فى السفينة ، وأدغم الباء فى الميم أبو عمرو والكسائى وحفص لتقاربها (ولا تَكُن مَعَ الكافِرِينَ) فى دينهم ، بل أسلم واركب معنا فتنجو ، وذلك واضح من أن يكون خفى عليه كفره

(قالَ) وهو فى موضع عال (سَآوِى) ألتجىء (إلى جَبَلٍ يعْصِمنى) يمنعنى (مِنَ الماءِ) وهذه منه لعنه الله زيادة كفره .

(قال) نوح (لا عَاصِمَ اليَوْمَ) خبر لا (مِنْ أمْرِ اللهِ) الذى هو عذابه متعلق بمحذوف خبر ثان ، أى يعصم من أمر الله ، أو نعت لعاصم لجواز أن لا يعرب ولا ينون اسم لا الموصوف ، لكن فيه الفصل ، ولو علق أحد الظرفين به ، وجعل الآخر خبر اللازم إعرابه وتنوينه على الأشهر وهو مبنى غير معرب ، وأجاز بعضهم عدم الإعراب والتنوين إذا عمل فى الظرف أو غيره كما هنا ، وبعض إعرابه غير منون قاله ابن هشام .

(إلاَّ مَنْ رَحِمَ) أى إلا الراحم العام الرحمة لكل مستحق لها وهو الله ، فكأنه قال : إلا من عم برحمته وهو الله سبحانه ، فمن عائدة لله كضميرها فى رحم ، ومفعول رحم محذوف للعموم ، أو لا مفعول له ، أو المراد إلا مكان من رحمهم الله وهو السفينة ، فإنها حرز من الغرق لا الجبل بحذف المضاف وهو المكان ، ومن واقعة على المؤمنين وما معهم ، وضمير رحم عائد لله ، ومفعوله محذوف ضمير للمؤمنين عائد إلى مَنْ كما رأيت ، ويجوز تقديره مفردا كلفظ مَنْ ، وقيل : عاصم بمعنى المصدر ، ويقدر مضاف أى لا ذا عصمة بمعنى لا معصوم ، أو بمعنى اسم مفعول مثل دافق فى أحد الأوجه ، وقيل : الاستثناء منقطع أى لكن من رحمه الله يعصمه ، وقرىء إلا من رحم الله بالبناء للمفعول ، فيكون لفظ الجلالة فاعلا بفعل محذوف مبنى للفاعل كذا ظهر لى ، فيكون كقوله : لبيك يزيد ضارع ببنائه لبيك للمفعول .

(وحَالَ بيْنَهما) أى بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل (الموْجَ فكانَ) ابنه (مِنَ المغْرقِينَ) الظاهر أنه غرق بالطوفان بعد ذهابه إلى الجبل ، وطلوع الماء إلى الجبل ، وعلوه عليه ، أو غرق بالطوفان قبل وصول الجبل ، أو قبل ذهابه إليه ، على أن الموج منعه الذهاب إلى الجبل ، أو من وصوله ، وذكر القشيرى : أنه اتخذ بيتا من زجاج ، فألقى الله عليه البول فغرق فى بوله ، وذكر الثلاثى أنه قيل : دخل فى بيت من زجاج اجتمع فيه بوله وغائطه وغرق فيهما ، ومات وأنه قيل : ضايقه البول فخرق التابوت ودخل عليه الماء وغرق فيه ومات .

(وقِيلَ) بعد تناهى الطوفان ومضى مدة (يا أرْضُ ابْلعِى) انشفى ، استعار اللفظ الموضوع لجذب الطبيعة لمطعوم من الفم والحلق ، وهو لفظ البلع لنشف الماء وتفويره ، فاشتق منه ابلعى بمعنى غورى وانشفى (مَاءَكِ) أضافه إليها ، لأنه على ظهرها ، وليس المراد الماء الذى خرج منها فقط .

(ويا سَمَاء أقْلِعِى) أمسكى عن الإمطار ، ومعنى أمرها بالإمساك بعد انقطاع نزول مائها ، أمرها بالكف عن المعاودة ، أو المراد أنه قيل لها حين كان الماء ينزل منها فى أواخر نزوله : أقلعى ، وقيل للأرض : ابلعى بعد ذلك ، فكانت تبلع شيئا فشيئا .

وروى أن ماء الطوفان عذب ، ولما أمر الله الأرض أن تبلع استعصى بعض البقاع فلعنه الله ، وصار ماؤه مرا ونزا به سبخا لا ينبت ، نادى الأرض والسماء ، وأمرهما كالعقلاء ، للدلالة على عظم قدرته حيث امتثلنا أمره بفور ، لمعرفتهما جلاله ، وعقابه .

وفى نسخ المغاربة نقطة حمراء على الف أقلعى ، قلت : وجهه أن أن همزة أقلعى همزة قطع ، لأن ماضيه رباعى وسهلت ، فلذلك لم يكتب صفراء ، وبحكم تسهيلها أن تقرأ بين همزة وواو ، ولوقوعها بعد ضمة ، ولو سبقتها كسرة لكانت بين ياء وهمزة ، وفى غير ذلك بينها وبين ما يناسب حركتها ، وذلك قراءة الحرمين وأبى عمرو ، حيث اجتمعت همزتان من كلمتين ، واختلفت حركتهما ، وغيرهم يحققونهما ولا يمكن التسهيل إذا وقف على الأولى •

(وغِيضَ الماءُ) أنقص بالبناء للمفعول ، وقيل : هو بمعنى المبنى للفاعل ، أى غاض أى نقص بالبناء للفاعل ، والتحقيق الأول ، فإن غاض يستعمل متعديا ولازما ، وهذا من المتعدى ، والأصل غاض الله الماء كما قال الشيخ خالد ، وغاضت الأرض الماء ، وقرأ فى السبع : قيل وغيض بالإشمام •

(وقُضِىَ الأمرُ) أنجز ما وعد به من إنجاء المؤمن ، وإهلاك الكافر ، والجملة معطوفة أو حال •

(واستَوَت عَلى الجُودِىِّ) استقرت السفينة على جبل يسمى الجودىّ ، وهو بالوصل ، وقيل : بالجزيرة قرب الموصل ، فى موضع يقال له ياقوت ، وقيل : بالشام ، وقيل : ببابل ، وقيل : بناحية آمد ، وقيل : باقردى •

قال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الماء ، فعلاها

الماء خمسة عشر ذراعا ، وتواضع الجودى بأمر ربه فلم يغرق ، ورست السفينة عليه ، قلت : إذا لم يغرق كيف ترسو عليه ؟ .

فالحق أنه غرق ، وقد ذهبت هذه السفينة وتلاشت ، وقيل : بقيت إلى أن أدركها أوائل هذه الأمة ، وأخذوا من مساميرها .

قال فى عرائس القرآن : قال أهل التاريخ ، أرسل الله عز وجل الطوفان لثلاث عشرة مضت من آب ، سنة تسعمائة وخمسين من عمر نوح ، تتمة ألف سنة ومائتين وست وخمسين سنة ، من لدن أهبط آدم من الجنة ، وركب لعشر خلون من رجب ، وخرجوا منها فى عاشر المحرم ، وأقاموا فى الفلك ستة أشهر ، وصام ذلك اليوم وهو يوم عاشوراء ، وأمر بصومه كل من فى السفينة من : وحش ، وطير ، ودابة ، وإنس ، فصاموا شكراً لله تعالى ، وعاش بعد ذلك ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، وعمره كان أطول الأنبياء عمراً .

قيل له لما احتضر : كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كبيت له بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت [من] الآخر ، ويقال له شيخ المرسلين ، وكبير النبيين ، وفى نفسه معجزة لطول عمره يعارض بها من جاء بعد خروجه من أعمار أهل تلك القرون ، لم يقص له سن ولا قوة ، ولم يبالغ رسول فى دعوة قومه مثله ، ولا لقى من قومه ما لقى من قومه من الضرب والأذى والجفاء .

ولما استقرت بعث الغراب ليأتيه بخير الأرض ، فوقع على جيفة فاشتغل بها ، فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ،

ولطخت رجليها بالطين ، فعلم أن الماء قد ذهب ، فدعى على الغراب بالخوف ، فلذلك كان لا يألف البيوت ، وطوق الحمامة بالخضرة التى فى عنقها ، ودعى لها بالأمان ، فمن ثم تألف البيوت •

وقيل : إن السفينة كانت فى الماء خمسين ومائة يوم ، وعلى الجودي شهراً ، فهبطوا •

وذكر الثلاثى : أنه فتح بابا من أبوابها ونظر إلى أرض فوجدها بيضاء فقال له الله : هذه عظام قومك ، فحزن عليهم وناح ، فسمى نوحا ، قلت : لعل هذه الفاء لمجرد السببية ، وإلا فقد سمى نوحاً قبل هذا لكونه يحزن وسينوح ، وقيل سمى لكثرة بكائه على نفسه ، وأوحى الله كيف تحزن عليهم ، وقد كذبوك ، وأنا أهلكت كبارهم بأعمالهم وصغارهم لعلمى فيهم ما لا علم لك به ، والقوس الذى جعلته فى السماء أمان من الغرق ، وأنه دعى على الغراب فاسودّ وكان أبيض قبل ذلك ، وأن الحمامة لما رجعت قالت : يا نبى الله قد هلكت الأرض ومن عليها ، ولم يبق فيها شىء من الشجر إلا الزيتون ، فإنه على حاله ، ولم يبق الماء إلا فى بلاد الهند ، وآخر ماء بقى فى الأرض من الطوفان بقى أربعين سنة بعد الطوفان ، ثم ذهب ، وعن ابن عباس : لا تقولوا قوس قزح ، فإن قزح الشيطان ، وكذا قال ابن مسعود ، وروى أن السفينة استوت على الجودى فى ذى الحجة ، وأقام فيها عليه شهرا ، وأن الله سبحانه أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسو على واحد منها ، فتطاولت كلها محبة أن تقف عليها إلا الجودى ، فلم يتطاول تواضعا لله تعالى فأرساها عليه •

(وقِيلَ) قال الله (بُعداً للقَوْمِ الظَّالمينَ) المشركين وهم قوم

نوح ، والبعد الهلاك ، قيل : لم يبق كافر إلا عوج بن عناق ، ويقال بعد كسر العين بُعداً بضم الباء وإسكان العين ، وبعداً بفتحهما إذا هلك ، وهو مأخوذ من البعد الذى هو ضد القرب ، فإن من بَعُد بُعداً بعيداً حتى لا يرجى عوده كهالك ، وذكر بعض أن ذلك استعارة للهلاك ، ولا ينافيه قول الصحاح : البُعد الهلاك لأنه كثيراً مما يذكر المعنى المجازى ، وبنيت الأفعال للمفعول فى ذلك ، لأنه لا يتوهم أن فاعلها غير الله ، إذ لا يقدر عليها سواه ، والآية فى غاية الفصاحة مع الإيجاز الخالى عن الإخلال ، وقيل : يجوز أن يكون قائل : « بُعداً للقوم الظالمين » نوحاً عليه السلام .

(ونَادَى) دعا (نوحٌ ربَّهُ) وذلك محل فصّله بقوله : (فقَالَ ربِّ إنَّ ابْنِى مِنْ أهْلِى) وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى (وإنَّ وَعْدك الحقُّ) لا يتطرق إليه الخلف ، فما حاله أو هو حى أو فما باله ؟ قال القاضى : ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرق ابنه .

(وأنتَ أحكَمُ الحَاكمينَ) أعلم وأعد لهم ، وهو من الحكومة بين الخصمين ، أو أكثر حكمة من ذوى الحكم بكسر الحاء وفتح الكاف ، فيكون الحاكم للنسبة كذراع بمعنى ذى ذراع ، ولابن بمعنى ذى لبن .

(قالَ يا نُوحُ إنَّه لَيسَ من أهلكَ) الناجين محذوف النعت ، أو من أهل دينك ، فحذف المضاف ، وذلك أنه ابنه ، ولا مانع من كون ولد نبى كافرا كقابيل ولد آدم ، ولأن من كون نبى وآله كافر كإبراهيم ، فإن أباه آزر كافر ، فإن الصحيح وهو مذهب الجمهور أنه ابن نوح ، وعليه ابن عباس ، والضحاك : وابن جبير ، وعكرمة ، وهو الموافق لقوله :

« يا بنى » فإن الأصل الحقيقة لا ينصرف عنها إلا لدليل ، ولكن قطعت الولاية بينهما لكفره ، وقد قال الحسن : إنه مؤمن الظاهر مشرك الباطن ، فأخبره الله أنه ليس من أهلك ، ويدل لذلك تعليله بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ إن عمله غير صالح فحذف المضاف من أول ، أو أنه ذو عمل غير صالح فحذفه من الأخير ، فذلك من مجاز الحذف ، ووجه الأول أن يبنى الكلام من أوله على ما هو المراد ، ووجه الثانى أن التغيير أليق بالأخير ، أو أنه عامل غير صالح بتنوين عامل ورفعه ورفع غير ، كما تقول : فلان عامل فاسد بتنوينهما ، فذلك مجاز مرسل لعلاقة التعلق أو الاشتقاق إذا أطلق المصدر وأراد اسم فاعل ، أو أنه نفسه عامل غير صالح ، فيكون مبالغة فى فساده ، حتى كأنه نفس العمل الفاسد ، كما تقول : إن زيدا عمل ، وإنه صوم إذا كثر عمله وصومه ، وكقول الخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها :

ترتع ما غفلت حتى إذا
ذكرت فإنما هى إقبال وادبار

أو الهاء للنداء والسؤال كما قال النخعى ، وذكره المهدوى ، أى إن نداءك عمل غير صالح وهو حسن ، وقال جار الله : وليس بذلك والجمهور على غيره ، ولو كان لا مجاز فيه ولا مبالغة وقرأ الكسائى ويعقوب : إنه عملَ بكسر الميم وفتح اللام ، وهو فعل ماض غير بالنصب على المفعولية، وكذا روت أسماء بنت يزيد الأنصارية عنه صلى الله عليه وسلم، أى عملا غير صالح ، فحذف المنعوت والهاء على هذا لابنه أو للشأن ، وضمير عمل لابنه ، ولم يستغن بفساد عن قوله : « غير صالح » ليشير

إلى أن نجاة من نجا بالصلاة وإلى مغايرة عمله لعمل من نجا بأن عمل من نجا صالح ، وعمل لبنه غير صالح ، والنجاة إنما هى بالصلاح لا بالقرابة •

(فَلاَ تَسْأَلنى) بإثبات الياء فى الوصل كالوقف فى رواية ورش ، عن نافع ، وبذلك نقرؤه ، وروى غير ورش عنه حذفها فى الوصل ، وأما كسر النون مشددة وفتح اللام فمتفق عليه عن نافع ، وكذا قرأ ابن عامر ، وأثبت الياء فى الوصل ، والنون نون التركيد الشديدة كسرت للياء ، وحذفت نون الوقاية تخفيفا عن اجتماع ثلاث نونات •

قلت : أو النون المدغمة نون التوكيد الخفية والمتحركة بكسر نون الوقاية ، وقرأ ابن كثير بفتح النون مشددة ، وهى نون التوكيد الشديدة ، والياء محذوفة مع نون الوقاية وهو أنسب بما ذكرته أولا ، وقرأ الباقون بنقل فتح الهمزة للسين ، وحذفت الهمزة وإسكان اللام وكسر النون مخففا ، وهو نون الوقاية ، وحذف الياء •

(مَا ليسَ لكَ بهِ عِلم) أصواب هو أم خطأ ، قال جار الله : وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه انتهى • وليس له علم بأنه صواب أم خطأ ، فكان ينبغى أن لا يسألها حتى يعلمها صوابا •

وقيل : ذلك النداء بعد الغرق استكشافا عن وجه غرقه ، مع أنه من أهله ، والنهى إنما هو تأديب لما بعد ، وروى أنه كان يعلمه كافرا ، وسأل له النجاة من الغرق لكمال الشفقة ، وعدم العلم بمنع ذلك السؤال ،

وإنما سمى نداءه سؤالا لاشتماله على ذكر الوعد بنجاة أهله ، وذكر الوعد لواعده طلب منه لقضائه ، فكأنه قال : ربى نج ابنى ، فإنه من أهلى ، وقد وعدتنى نجاتهم ، وهذا على أن النداء قبل الغرق ، وأما على أنه بعده فذكر الوعد طلب التفسير وجه عدم نجاته ، مع أنه من أهله وسمى الله سؤاله جهلا حتى نهاه عنه بقوله : (أعظك أن تكون من الجاهلين) لأن رؤيته غريقا أو قريبا من الغرق دليل على كره السابق القضاء عليه به ، الشامل له دعاءه : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » الدال على أنه ممن شمله الاستثناء فى قوله : « إلا من سبق عليه القول » فذلك مغن له عن السؤال ، ولكن الهول الذى هو فيه مع حب الولد بالطبيعة أنساه ، وسكن ياء إنى غير نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وكذا الياء فى قوله :

(قالَ ربِّ إنّى أعوذُ) اعتصم (بِكَ) من (أنْ أسألكَ ما ليس لى به عِلمٌ) بجواره وصحته ، أو سؤال عزم واللجاج فيما قد حجب وجه الحكمة فيه (وإلا تَغفِرْ لى) هذا السؤال وغيره مما فرط منى (وتَرْحمنى) بالتوبة والتفضل علىّ (أكُن مِنَ الخاسِرينَ) عدما لم يتعمد العصيان به معصية ، صونا لمرتبة النبوة التى يستعظم فيها أدنى ما يكرهه ، وتعظيما لله فلا دليل فى الآية على عدم عصمة الأنبياء .

(قِيلَ يا نوحُ اهبِطْ) من السفينة أو من الجودى إلى الأرض ، وقرىء بضم الباء (بِسلامٍ منّا) أى بسلامة ثابتة منا لك من المكاره أو بتسليمنا إياك من المكاره ، فمنا نعت لسلام ، أو بسلامه من مكارهنا ، أو بتسليمنا إياك من مكارهنا ، فمنا متعلق بسلام على حذف مضاف

كما رأيت ، وسلام مصدر أو اسمه كما رأيت أيضا أو بالتحقيقية منا ، فمنا نعت والباء بمعنى مع .

(وبَرَكاتٍ عَلَيكَ) الخيرات النامية ، وعن بعضهم أراد البركة فى النسل ، فإن الناس كلهم من أولاده الثلاثة ، ولم يلد سواهم ، فمن كان فى السفينة ولد ، فلذلك يسمى آدم الأصغر ، وآدم الثانى والجد .

(وعَلى أممٍ ممَّن مَعَكَ) وعن محمد بن كعب القرظى هـذا الوعد يعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة ، أى وعلى أمم ناشئة ممن معك ، فمن للابتداء ، ولكن النشأة من أولاده الثلاثة فقط ، ويجوز أن يكون المراد بالأمم من معه ، فتكون من للبيان ، سماهم أمما لأنهم جماعات ، أو لأن الأمم تتشعب منهم ، وذلك أنها تتشعب من أولادى الثلاثة ، وهم فيهم ، وقيل : أعقبت الثلاثة وغيرهم ، اجتمعت ثمانى ميمات فى قوله : « أمم ممن معك » بإبدال التنوين والنون ميما ، ولم تثقل فى اللسان ، من معجزات القرآن .

ولمـا نزل نوح إلى الأرض ممن معه ، بنوا قرية تحت ذلك الجبل ، وتسمى : سوق الثمانين ، لأن فيها ثمانين إنسانا ، وهى أول قرية بعد الطوفان .

قال الثلاثى : خرجوا من السفينة ، ورجع كل من الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، يريد أن ذلك ظهر على الأرض ولأعينهم ، وقد كانوا فى السفينة مطبقة عليهم عند بعض ، وأمر قومه بتحريم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وتحريم قتل النفس التى

حرم الله إلا بالحق ، وقسم الأرض بين أولاده أعطى الحجاز والشام واليمن لولده سام الذى هو أبو أب العرب ، وأعطى المغرب لولده حام وهو أبو أب السودان ، والمشرق ليافث أى الترك والزنج ، ويأجوج ومأجوج وقيل : بعثه الله ابن ثلاثمائة سنة وخمسين ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان مائة سنة ، وجاءهم يوم عيد فطر ، ورفع رأسه وسأل النصر من الله ، فقال : أدعوكم إلى توحيد الله وطاعته ، وأنهاكم عن معصيته وعبادة الأصنام ، فاتقوا الله وأطيعونى .

فسقطت الأصنام من الكراسى إلى الأرض ، وحاربوه محاربة قوية متصلة قرن بعد قرن ، أدت إلى دعائه عليهم « ربى لا تذر » الخ ، ولم يفرخ لهم حمام ، ولا متلد لهم امرأة ، ولم تنزل عليهم قطرة من السماء ، ولم تنبت لهم نبتة بدعائه ، فتيقن قومه العظام الهلاك .

وفى عرائس القرآن ، عن سمرة بن جندب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سام أبو العرب ، وفارس ، والروم » قيل : وأهل الشام واليمن ، وحام أبو السودان ، وقيل : الهند ، والسند ، والحبشة ، والنوبة ، والقوط ، وكل أسود ، ويافث أبو الترك ، ويأجوج ومأجوج ، وقيل : والبربر والصين والصقالبة .

قال عطاء : دعا نوح على حام أن لا يعدو شعر ولده آذانهم ، وأنهم حيث ما كانوا يكونوا عبيدا لولد سام ويافث قال التلاتى [: قال] لولده حام ، لما هبط من السفينة : إنى لم أشبع النوم منذ ركبت السفينة وأريد أن أنام يوما لأشبعه ، فوضع رأسه على حجره ونام ،

فهبت الريح وكشفت سوأته ، فلما رآها حام ضحك ، فوثب أخوه سام وسترها ، ولما انتبه من نومه قال : لأى شىء ضحك حام ؟ فأخبره سام بفعله ، فقال له نوح عليه السلام : أتضحك من سوأة أبيك ، غيَّر الله خلقتك ، وسوَّد وجهك ، فاسودَّ فى الحال ، وقال لولده سام ، سترت عورتى ستر الله عورتك فى الدنيا ، وغفر لك فى الآخرة ، وجعل نسلك الأنبياء والأشراف ، وجعل نسل أخيك حام العبيد والإماء ، وجعل نسل أخيك يافث الجبابرة والملوك العاتية ، ويدل على أن المراد بقوله : « أمم ممن معك » المؤمنون قوله :

(وأممٌ سَنمتّعهمْ) بالرفع ، وهو كلام مستأنف ، وأى أمم ناشئة ممن معك سنمتعهم فى الدنيا (ثمَّ يمسّهم مِنّا عَذابٌ أليمٌ) فى الآخرة لكفرهم وهو عام ، وقيل : المراد قوم هود ، وصالح ، ونحوهم ممن أهلكه الله بعذاب الاستئصال وهو العذاب الأليم فى الدنيا ، وأمم مبتدأ خبره « سنمتعهم » وقدرت الصفة ، أى أمم ممن معك كما ذكر ذكر قبل ، والمبتدأ والجملة صفة ، والخبر محذوف أى أمم سنمتعهم ناشئون ممن معك .

(تِلْكَ) أى قصة نوح ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى هذه الآية المتضمنة قصة نوح (مِنْ) للتبعيض (أنْباءِ الغَيْب) أى من أخبار الغيب وهو خبر المبتدأ الذى هو تلك .

(نوحِيها إليكَ) خبر ثان أو حال من أنباء ، وها عائد إلى تلك ، أو الخبر ومن أنباء حالٌ من ها فى نوحيها ، أو متعلق بنوحى فتكون للابتداء .

(ما كُنْتَ تَعْلَمها أنتَ ولا قَوْمُك مِنْ قَبْلِ هَذا) أى هذا الزمان ، أو هذا القرآن ، فإن كانوا علموها فما علموها بتفصيلها الذى فى الآية ، وعلى كل حال ففى ذكر القوم إشارة إلى أنه إذا لم يعلموها ، مع كثرتهم ، وكثرة سفرهم ، والتقائهم بأهل الكتاب والعجم ، فكيف يعلمها محمد ؟ فما علمها إلا بوحى من الله ، والجملة خبر ثالث ، أو ثان ، أو حال من هاء فى نوحيها ، أو من الكاف فى إليك .

(فاصْبِرْ) على التبليغ وإذاء قومك كما صبر نوح (إنَّ العَاقِبَةَ) الكاملة وهى فوز الدنيا والآخرة (للمتّقينَ) عن الشرك والمعاصى ، والجملة تعليل .

(وإلى عادٍ أخاهُم) فى النسب عطف على نوح إلى قومه (هُوداً) عطف بيان من أخاهم .

(قَالَ) الخ استئناف بيانى (يا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ) واحذروه وأطيعوه فى أمره ونهيه ، ومن جملة أمره ونهيه الأمر بالتوحيد ، والنهى عن الإشراك (مَا لكُم من إلهٍ غَيْرُهُ) بالرفع نعت لإله تبعا لتقدير الرفع فى إله ، وقرأ الكسائى بالجر تبعا للفظ ، وهكذا حيث وقع إذا كان قبل إله من الخافضة ، ويجوز كون الرفع على الإبدال من المستتر فى لكم ، ومن محل إله على التقدير ، وإن لم نجعل لكم خبرا ، والإله مبتدأ بلا فاعل لقوله : « لكم » فلا ضمير فى لكم (إنْ أنتم إلاَّ مفْتَرونَ) على الله بإثبات الشركاء ، وجعلها شفعاء .

(يا قَوْمِ لا أسألكُم عَلَيْه) أى على التبليغ ، أو على التوحيد ، أو على الله (أجْراً إنْ أجْرِىَ) وسكن الياء غير نافع ، وابن عامر ،

وابن عمرو ، وحفص (إلاَّ عَلَى الذِى فَطَرَنى) خلقنى وسكنها غير نافع ، والبزى ، قيل : ما من رسول إلا واجه قومه بذلك ، لأن شأن الرسول النصيحة وهى لا تتمحض ، ولا تؤثر مادامت مشوبة بالمطامع ولإزاحة التهمة •

(أفلا تعْقِلُون) تستعملون عقولكم فتعرفوا الصواب من الخطأ ، وأن من لا يطلب بنصحه إلا ثواب الله فى الآخرة قد أمحض لكم النصح ، فلا يحسن رد نصيحته •

(ويا قَوم اسْتَغفرُوا ربكُم) من الشرك ، بأن تتركوه وتوحدوا ، والاستغفار طلب المغفرة ، قد يكون باللسان ، وقد يكون بعمل الخير ، وترك الشر بالقلب والجارحة ، وإنما فسرنا الاستغفار بترك الإشراك ، لأنه إنما يطلب أولا التوحيد •

(ثمَّ توبُوا إليْه) ارجعوا إليه بالطاعة له وحده ، والتوبة إنما تصح بعد الإيمان ، أو توسلوا إليه بالتوبة عقد فى ترك الشىء يتقدمه علم بفساد ذلك الشىء ، وصلاح ما يرجع إليه ، وأما الندم فرد المظالم ونحوها وهى شروط وتوابع ، وقيل : الاستغفار ترك الشرك ، والتوبة توبة عن الشرك ، وعبادة غير الله وسائر الذنوب •

(يُرسِل السَّماء عَليْكُم) يسمى المطر أو الماء باسم جهته وهو لفظ السماء ، بمعنى سماء الدنيا ، أو باسم محله وهو الجو الذى فوقنا ، فإنه أيضا سماء ، وذلك مجاز مرسل ، ويجوز أن يقدر مضاف أى مطر السماء أو ماء السماء ، فيكون لفظ السماء مجازا بالحذف •

(مِدْراراً) صفة مبالغة كمضراب ومنجاز ، أى كثير الدرور ،

أى متتابعا مرة بعد أخرى فى أوقات الحاجة ، فتكثر أرزاقكم وأموالكم ، ولم يؤنث مع أن السماء مؤنث ، لأن مفعالا لا يؤنث ، وأيضـــا المراد بالسماء المطر أو الماء ، وهما مذكران ، أو يقدر أحدهما وينوى كما مر ، ورغبهم فى الإيمان بإدرار المطر ، لأن بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم ، وكانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، وحرص على ذلك ، وقد أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، فأجدبت بلادهم ، وكانوا أحوج شىء إلى الماء ، فأخبرهم هود أنهم إن آمنوا رد الله عليهم حال أرضهم ، وكانوا أيضا مدلهين بقوة أبدانهم ، وشدة بطشهم وشجاعتهم ، فرغبهم فى الإيمان بالزيادة فيها إذ قال :

(ويزِدْكم قُوَّةً إلى قُوَّتكُم) قاله مجاهد ، وكانوا مهيبين فى كل ناحية ، وقيل : أراد القوة فى المال ، وقيل : القوة فى النكاح فيكثر نسلهم ، وقيل : فى المال والولد ، وقيل : قوة بالدين إلى قوتكم التى أنتم فيها بالدنيا ، والظاهر العموم فى كل ما يحسن الله تعالى به إلى عباده .

وروى أن الله عقَّم أرحام نسائهم فى ثلاث السنين ، فأخبرهم هود أنهم إن آمنوا أرسل الله عليهم المطر ، وأعاد الأرحام كما كانت .

وفد الحسن بن على بن أبى طالب على معاوية ، ولمـــا خرج تبعه بعض حجابه فقال : إنى رجل ذو مال ولا يولد لى فعلمنى شيئا لعل الله يرزقنى ولدا ، فقال له : عليك بالاستغفار ، فأكثر منه حتى كان يستغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة ، فولد له عشرة أبناء ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : هلا سألته ممن قال ذلك ؟ فوفد وفدة أخرى ، فسأله الرجل فقال : ألم تسمع قول الله حكاية عن قول هود : « يزدكم قوة إلى قوتكم » وقول نوح : « يمددكم بأموال وبنين » .

(ولا تتولوا) تعرضوا ، لعنادهم وعدم اعتدالهم بما جاءهم من المعجزات عن التوحيد والعمل الصالح ، والإيمان برسالتى (مجرمين) مصرين على الإجرام والآثام ، وهو حال ، وقيل مشركين .

(قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) برهان وحجة واضحة على صحة ما تقول (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى عبادتها وتعظيمها والقيام بها (عن قولك) أى لقولك ، فعن للتعليل متعلق بتاركى ، أو صادرين عن قولك فهى للمجاوزة متعلقة بحال محذوفة ، وصاحب الحال الضمير المستتر فى تاركى ، ذكر ذلك ابن هشام .

وأقنطوه من الإجابة والتصدق لـه بقولهم : (وما نحن لك) أى بك متعلق بقوله : (بمؤمنين) أو ما نحن خاضعين لك فيما تقول ، أو مؤمنين لك بما تقول .

(إن نقول) فى شأنك (إلا اعتراك) أصابك (بعض آلهتنا) لأنك تعيبها ، وتعرض عنها ، وتصد عنها (بسوء) جنون ، فأنت مجنون ، وما تقوله هذيان لا صواب ولا حق ، وهذا يدل على أنهم فى غاية من البله والجهل ، إذ اعتقدوا فى جماد أنه ينتصر وينتقم ممن عابها ، وتثيب من أطاعها بالرزق وغيره ، كالصحة ، والاستثناء مفرغ ، وصح التفريغ للجملة لأنها مراد بها اللفظ ، فهى اسم محكى بالقول .

(قال) هود رداً عليهم ، وإبطالا لمقالتهم غير مكترث بهم مع غلظهم وجفافهم ، وعدم مبالاتهم بالبعث ، وشدة شكيمتهم ، وإعراضهم وعطشهم إلى إراقة دمه ، ومع وحدته ثقة بالله عز وجل (إنى) وسكن

الياء غير نافع (أشْهِدُ اللهَ) عليَّ أو على أني بريء مما تشركون من دونه ، فحذف لدلالة المذكور بعداً ، والمذكور لهذا فينذر لقوله : (واشْهدُوا) مثله أو ذلك على التنازع .

(أنِّي بريءٌ مما تُشْرِكُون ﴿ مِنْ دُونِهِ) من الأصنام ، أو ما مصدرية أشهد الله واستشهدهم استهانة بهم ، وإظهارا أن براءته من أصنامهم ليس مما يجحده ، ولا مما يسره ، بل يعلنه ويدوم عليها ، حتى أنه لو أراد الجحود لم يجده ، لأنه استشهدهم واستوثق بإشهاد الله ، وفى ضمن ذلك تهكم إذ أراهم أن تلك البراءة أمر عظيم ينبغى التوثق فيه بإشهاد الله ، وقيل : إشهاد الله إشهاد صحيح ، وأمره إياهم بالشهادة تهاون وقلة مبالات بهم ، ولذلك خالف بين اللفظين إذ قال : « أشهد الله » بصيغة الإخبار من الرباعى ، والمراد إنشاء الإشهاد ، وقال : « اشهدوا » بالأمر من الثلاثى ، ولم يقل اشهد الله وأشهدكم .

(فكِيدُونى) احتالوا فى ضرى وإهلاكى (جَمِيعاً) أنتم وآلهتكم فى شدتكم وقوتكم ، وكثرتكم وتفردى (ثمَّ) بمعنى الواو أو لمجرد الترتيب فى الأخبار (لا تُنْظِرونِ) لا تؤخرونى طرفة عين ، فإنكم لا تصلون إلى ذلك ، وما سلامته منهم مع هذا الكلام الضارب فى أكبادهم دائم هو على مقتضاه مع توحده وكثرتهم ، واجتماعهم عليه ، وشدة موجدتهم به إلا معجزة عظيمة ، والأمر بالكيد تعجيز بالنسبة إلى تأثره فيهم ، وعلل ذلك وقرره بقوله :

(إنِّى توكَّلتُ على اللهِ ربِّى) مالكى (وربِّكُم) مالككم فهو عاصمى منكم ، لا تصلوننى بما لم يرده ولو بالغتم الغاية فى المكر .

قالوا : من خاف من أسد أو إنسان أو غيرهما فليكثر من قراءة « إنى توكلت » إلى حفيظ عند دخول فراشه ، ويقظته ومسائه وصباحه ، فإن الله بفضله ينجيه ، ومن أكثر منها فى البحر لم يغرق ولم يلحقه هو من هوان هول البحر ، ومن قرأها وهو داخل على سلطان آمن من شره على نفسه وماله وولده ، ومن كتب ذلك ، وعلقه فى عنق صبى أمن من الآفات العارضة للصبيان ، وبرهن على أنهم لا يعلمونه بما لا يريده لقوله :

(مَا مِنْ دابَّةٍ إلا هُوَ آخذٌ بناصِيَتها) إلا هو مالك لها ، صارف لها عما لا يريد إلى ما يريد ، وكنى عن ذلك بالآخذ بالناصية ، فإن من أخذت ناصيته فقد قهرته ، وهى مقدم الرأس ، وسمى شعر مقدم الرأس باسمه لأنه محله وللمجاورة ، رخص الناصية لأن العرب إذا وصفت إنسانا لأنه لا يخرج عما أراد الآخر قالوا : ناصية فلان بيد فلان .

(إنَّ ربِّى عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ) طريق لا عوج فيه ، وهو كناية عن أنه على الحق والعدل ، فالذى يدعوكم إليه من الدين حق وعدل ، لأنه منه ، وأن الله سبحانه عدل فلا يظلمكم ، ولو كان قادراً عليكم ، وأنتم فى قبضته كعبد ذليل ، بل يجازى المحسن بالإحسان ، والمسىء بإساءته لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عندى معتصم ، وهذا أنسب عندى بتوكله ، وقوله : « كيدونى » أو إن دين ربى على صراط مستقيم شبه دينه بإنسان يمشى على طريق موصل إلى المطلوب ، وقيل : إن ربى يحملكم على صراط مستقيم ، أى يدلكم عليه وهو خير لكم .

(فإنْ تَولَّوا) مضارع وفاعل ، لا ماض وفاعل ، وأصله تتولوا ، حذفت إحدى التائين بدليل الخطاب قبل وبعد ، وإن جعل ماضيا فالغيبة فيه على طريق الالتفات عن الخطاب السابق ، والوجه الأول أولى ،

والمراد فإن تعرضوا عما أدعوكم إليه لم أعاتب ، فحذف الجواب وناب عنه تعليله وهو قوله :

(فَقَدْ أبلغْتُكُم ما أُرْسِلتُ به إليْكُم) من العقائد والأحكام ، ولم أفرط وما علىَّ إلا الإبلاغ ولا عذر لكم .

(ويسْتخلفُ ربِّى) عطف على الجواب وأهمل عنه الجوازم ، فكان مرفوعا ، لأنه لم يعمل فى لفظ الجواب ، وتدل لهذا قراءة ابن مسعود بالجزم عطفا على محل الجواب ، وهو قد أبلغتكم ، فإنه جواب بالنيابة فهو فى محل جزم ، أو الرفع استئناف .

(قَوْماً غيْرَكُم) فى دياركم وأموالكم ، أو حيث شاء يوحدونه ويعبدونه (ولا تضرُّونه شَيْئاً) أى لا تضرونه ضرا ما بتوليكم ، فإن وباله عليكم ، أو بالإهلاك الذى تسببتم فيه ، فإن وجودكم وعدمه سواء عنده ، وقرأ ابن مسعود بحذف النون لأنه يقرأ بجزم يستخلف ، فتكون الهاء على قراءته بلا صلة ، أعنى بدون واو تمد به ، لأنها تلى الواو وهو ساكن .

(إنَّ ربِّى علَى كلِّ شىءٍ حَفيظٌ) رقيب ، فليس شىء من أعمالكم يفوته .

(ولمَّا جاءَ أمْرُنَا) أمر من الأمور ، والمراد عذابنا أو أمر ضد النهى ، أى أمرنا بالعذاب وهو العذاب بالريح ، عذبت بها عاد الأولى ، وهى قوم هود تدخل من الأنوف ، وتخرج من الأدبار وتقطعهم عضوا عضوا سبع ليال وثمانية أيام حسوما .

(نَجيّنا) من ذلك العذاب (هُوداً والّذينَ آمنُوا مَعهُ) وهم أربعة آلاف (برحْمةٍ) بفضل وكرم منى ، فإن عذاب الدنيا قد يعم المؤمن ، أو بسبب الهداية لهم إلى الإيمان (منّا ونجيناهُم مِنْ عَذابٍ غَليظٍ) هو العذاب المذكور ، أعاد ذكر التنجية ليبين ما نجاهم منه ، وليصفه بالتغلظ ، فذلك تأكيد وتهويل ، واكتفاء بقول : ولما جاء أمرنا نجينا منه هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، بذكر لفظ منه أو أراد بالعذاب الغليظ عذاب الآخرة ، وهــو أولى ليفيد الكلام بالتلويح أن العذاب الذي عذبوه فى الدنيا ، وإن كان عظيما فإنه صغير بالنسبة إلى العذاب الغليظ الذى هو عذاب الآخرة ، وأنه كما عذبهم بعذاب الدنيا بكفرهم ينجيهم من عذاب الآخرة ، وينجى منه هوداً ومن معه ، كمـا نجاهم من عذاب الدنيا بإيمانهم .

(وتلْكَ) إشارة إلى قبيلة عاد ، كأنها حاضرة مرئية هذا ما يظهر به ، وأفسر به الآية ، أو أشار إليهم بواسطة ظهور قبورهم وآثارهم للعرب فى الأسفار ، فإن حضورهم بالقبر والأثر كحضورهم بالجسم أو أشار إلى القبور والآثار نفسها ، فيقدر الإضافة على هذا فى قوله :

(عادٌ) أى قبور وآثار عاد ، كأنه قيل : سيروا فى الأرض وانظروا آثارهم وقبورهم ، فاعتبروا وهم عاد الأولى ، وذلك مبتدأ أو خبر وقوله : (جَحدُوا بآيات ربّهم) مستأنف فى كفرهم ، أو خبر ثان أو هو الخبر وعاد بيان أو بدل .

(وعَصَوْا رُسُله) الظاهر أن الله عز وجل أرسل إليهم رسلا متعددة وكذبوها ، وقيل : إنه لم يرسل إليهم إلا هوداً ، أو هو أوضح وأنسب بآيات الشعراء إذ كان يذكر فيها أن عاداً كذبت المرسلين ، ثم

يقول : « إذ قال لهم أخوهم هود » وإن قوم فلان أو القوم المسمى بكذا كذبت المرسلين ، ثم يقول : إذ قال لهم أخوهم فلان .

وفائدة ذلك التنبيه على أن من كذب رسولا فقد كذب جميع المرسلين ، باشتراكهم فى أصل واحد وهو التوحيد ، فالرسل على الوجه الأول رسل الله إليهم ، أو جميع الرسل ، لأنهم إذا كذبوا رسلهم فقد كذبوا جميع الرسل ، وعلى الثانى رسولهم الواحد وهو هود وسائر الرسل ، ويجوز أن يراد بالرسل هود وحده تعظيما له .

(واتَّبعُوا) حكم على المجموع ، أو يقدر مضاف أى اتبع سفلتهم (أمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ) طاغ (عَنِيدٍ) معارض للحق ، بمعنى معاند من عَنَدَ يعند وكبرائهم .

(وأُتْبِعُوا فى هَذِهِ الدُّنيا لعنةً ويَوْمَ القِيامَةِ) معطوف على مجموع الجار والمجرور ، ولذلك بقى على انتصاب الظرفية ولم يجر ، وأجاز الفارسى عطفه على محل مجرور الذى هو النصب ، كأنه لم يشترط فى العطف على المحل ظهور ذلك المحل فى الفصيح ، والمراد جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدنيا والآخرة على وفق اتباعهم الكفرة ، وكلتا اللعنتين من الله سبحانه وتعالى ، وقيل : المراد بلعنة الدنيا لعنة الناس وبلعنة الآخرة لعنة الله على رءوس الخلائق ، وقيل : اللعنتان عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وأشار إلى موجب اللعنتين بقوله :

(ألا إنَّ عاداً كَفَرُوا ربَّهم) وهو الكفر ، أى جحدوا ربهم ، أو كفروا نعمة فحذف المضاف ، أى ستروها وستْرها هو عدم الشكر

عليها ، كأن لم ينعم بها عليهم ، أو كفروا بربهم بالنصب فى هذا على نزع الخافض ، ويجوز عندى أن يكون هذا بيانا للعنهم فى الآخرة بأن ينادى عليهم على رءوس أهل المحشر ، ألا إن عادا كفروا ربهم .

(أَلَا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ) انتهى فنجوز على هذا الوجه أن يقدر محذوف ، أى ويقال يوم القيامة ، أو ينادى يوم القيامة ، « ألا إن عاداً » الخ ، وعلى ذلك الوجه يكــون معنى المجىء بصيغة الدعــاء بالبعد ، الإشعار ببعدهم عن رضا الله ، وعن الجنة ، ومقام الخير ، أى اعتزلوا بهم أيها الملائكة إلى النار وقدم على ذلك ذكر موجبه وهو الكفــر .

وأما على أن يكون قوله : « ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعادٍ قوم هود » مستأنفا لا بيانا للعنة الآخرة ، فمعنى الدعاء عليهم بالبعد ، وهو الهلاك على هذا ، وقد هلكوا قبل هذا الدلالة على أنه أهل للهلاك ، وكذا يقال إذا جعلنا اللعنة فى الآخرة والبعد بمعنى واحد على الوجه الذى ذكرت أنه جائز عندى ، وذكر الأمرين ، وأعاد ذكرهم بالاسم الظــاهر تهويلا لأمرهم وتفظيعا له ، وتحذير منه ، وحثا على الاعتبار بحالهم ، وبعداً مفعول مطلق نائب عن عامله ، واللام بعده لبيان فاعل البعد ، والأصل بعد عاد قوم هود مجىء بالمصدر نائبا عن الفعل وأخر الفاعل وجر اللام .

« قوم هود » عطف بيان لزيادة الإيضاح بحيث لا تبقى شــبهة واحتراز عن عاد الثانية ، وهى عاد إرم ، وهى العمالقة ، وللإشعار بأن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين صاحبهم هود عليه السلام مــن التكذيب والعناد .

(وإلى ثَمودَ أخاهُم) فى النسب (صَالحاً) مثل : « وإلى عاد أخاهم هوداً » (قالَ يا قَوْمِ اعْبدُوا) وحدوا وأطيعوا (اللهَ مَا لكُم مِنْ إلهٍ غَيْرهُ) تعليل للعبادة .

(هُو أنْشأكُم) أوجدكم (مِنَ الأرْضِ) بإنشاء أبيكم آدم منها ، أو بالتولد من ماء الرجل وماء المرأة ودم الطمث المتولدات من النبات ، ومما تولد من النبات المتولد من التراب ، ولا بأس بالقول بالتولد على نحو هذه الطريقة ، فما هو إلا كقوله : « من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة » خلافاً لمن توهم ، أو التقدير أنشأ أباكم من الأرض ، فأنتم منها بوسائط ، ولا يخفى أن من للابتداء ، وأن الجملة تعليل وبرهان لقوله : « ما لكم من إله غيره » .

(واسْتَعْمركُم فيها) أى جعلكم ذوى أعمار فيها ، وأحياكم وأبقاكم ، وقال الحسن ، ومجاهد : جعلكم عامرين وساكنين فيها ، وقال الضحاك : أطال أعماركم حتى إن الواحد ليعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة ، وكذلك كان قوم هود قبلهم ، ويجوز أن يكون من قولنا فى الفقه : أعمر زيد عمراً داره أى جعلها لعمرو عمرى ، أى يسكنها مدة عمره ، فالمعنى أنه جعل الأرض عمرى لكم ويرثها بعد انصرافكم ، وهو رواية عن مجاهد ، أو يجوز أن يكون بمعنى جعلكم معمرين لها تسكنونها مدة أعماركم وتتركونها لغيركم ، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها .

وقال ابن العربى : خلقكم لعمارتها ، ولا يصح أن يقال : هو طلب من الله لعمارتها كما زعم بعض الشافعية انتهى . وكأنه نفى الصحة من حيث العبارة ، أى لا يجوز أن يعبر بذلك ، وإلا فمراد ذلك البعض ،

والله أعلم ، أنه أمر بعمارتها ، ولكن عبر بلفظ الطلب لمكان السين ، والتاء فى قوله تعالى : « واستعمركم » ولا شك أن الآية امتنان أكثر ملوك فارس حفر الأنهار ، وغرس الأشجار فى طول الأعمار ، وفيهم جور ، فسأل نبى من أهل زمانهم الله سبحانه وتعالى فى تعميرهم ، فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى ، وكذا فعل معاوية ، وآخر أمره فقيل له فى ذلك ، فقال : ما حملنى عليه إلا قول القائل :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به
ولا يكون له فى الأرض آثار

فاستغفروه من الشرك والذنوب ، على أن الخروج من الشرك خروج من الذنوب السابقة كلها .

(ثمَّ توبُوا إليْه) بالعبادات ، وقيل : استغفروه من الذنوب وتوبوا إليه من الشرك (إنَّ ربِّى قَرِيبٌ مُجيبٌ) قريب من عباده ، أى عالم بما يقولون فى دعائهم وغيره ، لما كان البعيد منا لا يعلم ما يقول ، كنى الله تعالى عن علمه بما يقال بقربه ، أو قريب الرحمة سهل المطلب ، مجيب لدعاء داعيه ، إلا من فر وأعرض عن موجب الرحمة ، وتسبب فى عدم الإجابة ، والجملة عندى تعليل لما يفهمه الأمر بالاستغفار والتوبة من أنهما يقبلان .

(قالُوا يَا صَالحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا) متعلق بكنت ، أو حال من التاء ، أو من المستتر فى قوله : (مَرْجوًّا) نرجوك أن تكون فينا سيدا مقدما علينا ، كما قال ابن عباس والجمهور ، أو مستشارا فى الأمور ، أو لما نرى فيك من مخايل الرشاد ، وقد كان يغنى الفقير ،

ويمين الضعيف ، أو أن توافقنا فى الدين (قَبْلَ هَذَا) قبل ادعائك النبوة ، وقد انقطع رجاؤنا منك بعده .

(أتنهانا أنْ نَعْبُد) عن أن نعبد المضارع للحال حقيقة (ما يعبُدُ آباؤنا) من الأصنام ، وهذا لحكاية الحال الماضية كأنها حاضرة (إننا لفى شك مما) من للابتداء ، فإن الشك آتاهم مما دعاهم ، أو بمعنى فى متعلق بشك (تدْعُونا إليْه) من التوحيد والأحكام (مُريب) أى موقع فى الريب وهو الشك ، من أرابه إذا جعله شاكا أو معنى ذى ريبة أى شك ، على أن الشك هو بنفسه شاك على الإسناد المجازى ، فهو على هذا كقولهم فى المبالغة والتوحيد ليلة لبلاد ، وليل لائل .

(قالَ يا قوْم أرأيتم إنْ كُنتُ على بيّنة مِنْ ربّى) حجة ويقين على صحة رسالتى (وآتانى مِنْهُ) عطف أوتى فى ضمير لمسمى واحد ، أحدهما المستتر ، والآخر الهاء ، وجاز ذلك لأن عمله فى الهاء بواسطة الجار ، وأما الياء فلنوح .

(رحْمَةً) توفيقا هذا ما ظهر لى ، والموجود لغيرى تفسير البينة ، وبالبيان والبصيرة ، أو باليقين والبرهان والرحمة بالنبوة ، أو بها وبغيرها مما أنعم الله عليه (فَمَنْ ينْصُرنى مِنَ الله) أى من يمنعنى من عذابه ، ولذلك عدى بمن (إنْ عَصَيْتُه) فى التبليغ والدعاء إلى التوحيد ، وإنما قال : « إن كنت على بينة » بأداة الشك لأنه فى خطاب الجاحدين لكونه على بينة .

(فَمَا تَزِيدُونَنى) إن اتبعتكم وعصيته ، وهذا مستأنف (غَيْر

تَخْسِيرٍ) منكم لى فى أعمالى بإبطالها وإبطال ثوابها ، وبالتعرض للعقاب كالزيادة من غير جنس ، المزيد عليه ، لأنه ليس فى صالح عليه السلام بشىء ما من خسارة ، وذلك وارد ، ويجوز أن يكون التخسير للنسبة ، فيكون من صالح لهم ، أى فما تزيدوننى بشككم وكفركم وردكم علىّ إلا نسبتى لكم إلى الخسارة لقولك فسقته وفجرته تشديدهما ، أى نسبته فى الفسق والفجور ، وبهذا قال الحسن ابن الفضل .

(ويا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللهِ لكُمْ آيةً) لكم حال من آية ، ولو كان لفظ آية نكرة لتقدمه ، وآية حال من ناقة ، وصح ذلك نظر إلى معنى أشير ، حتى قالوا : إن العامل فيه معنى الإشارة ، والآيــة المعجزة ، وتقدم الكلام فيها .

(فَذَرُوها) اتركوها (تأكلْ فى أرْضِ اللهِ) للنبات ، وتشرب الماء ، لا مؤنة لها عليكم ، وإنما لكم منها منافع (ولا تمسُّوها بسُوء) ما ، وقيل : المراد لا تمسوها بعقر (فيأخُذَكُم عذابٌ قَريبٌ) عاجل غير متراخ ، بينه وبين المس بالسوء ثلاثة أيام .

(فَعقَرُوهَا) قتلوها ، أو قطعوا عضلتى ساقيها يوم الأربعاء (فَقَالَ) صالح (تمتَّعُوا) عيشوا لفظة أمر ومعناه إخبار (فى دَارِكُم) أى فى الدنيا ، أو فى بلدكم ، فإنه يسمى داراً ، لأنه يدار فيه ، أو الإضافة للجنس ، فالمعنى فى دياركم (ثَلاثَةَ أيــامٍ) بقية الأربعــاء والخميس والجمعة ، وبعضا من السبت ، ثم تهلكوا .

(ذلكَ) خطاب لكبيرهم ، وخطاب كبير القوم خطاب لهم ، أو لكل

من يصلح منهم للخطاب على سبيل البدلية ، والإشارة إلى الوعد ، أو إلى التمتع ثلاثة أيام فقط (وعْدٌ غيرُ مكْذوبٍ) هو عندى من باب الحذف والإيصال ، والأصل مكذوب فيه ، ففيه نائب الفاعل ، حذفت فى فانتصب محل مجرورها ، فكان أحق بالنيابة ، فجىء بضمير مستتر مرفوع عوضا عنه كقولك : عبد مشترك بفتح الراء ، أنشد ابن هشام :

* ويوماً تشهدنا سليما وعامراً *

والأصل شهدنا فيه ؛ وحذف الجار واتصل الهاء بشهدنا ولم يستتر ، لأنه منصوب ، أو ذلك من قولك صدقه أو كذبه بالتخفيف ، أى خبره خبر صدق ، أو خبره خبر كذب ، فهو مصدوق أو مكذوب ، فليس من الحذف والإيصال ، ويجوز كونه بمعنى الكذب ، أى غير كذب من المصادر التى يوزن مفعول ، كالمجلود والمعقول والمفتون فى قوله عز وجل : « بأيكم المفتون » أى الفتنة فى أحد الأوجه .

وروى أنهم لما عقروها قالوا : عليكم بالفصيل فاتبعوه ، فصعد القارة وهو الجبل ، وتطاول حتى يدرك أعلاه ، ولما جاء الثالث استقبل القبلة فقال : يا ربى أمى ، يا ربى أمى ، يا ربى أمى ، فأرسلت عليهم الصيحة .

(فلمَّا جاء أمرُنا نجَّينا صالحاً والَّذينَ آمنُوا معَه برحْمةٍ منِّا) من مثله قيل هم أربعة آلاف ، والمنجى منه محذوف أى نجيناهم من ذلك العذاب ، وعلى هذا المحذوف عطف قوله : (ومِنْ خِزْى يَومئذٍ) أى خزى الكفار يوم إذ عذبوا بالصيحة ، وخزيهم ذلهم أو فضيحتهم ، أو خزى الكفار يوم إذ قامت القيامة نزل يوم القيامة منزلة الواقع ، وخزيهم

فيه فضيحتهم ، أو ذلهم أو عذابهم فيه ، أو من خزى يومئذ مستأنف بمتعلق مقدر لبيان المنجى منه ، فلا يقدر أولا أى ونجيناهم من خزى الكفار يوم عذبوا بالصيحة ، ويوم مضاف إليه ، وفتح للبناء ، واكتسب البناء من إضافته لمبنى مبهم ، وذلك قراءة نافع هنا ، وفى سورة المعارج ، فى قوله تعالى : « من عذاب يومئذ » .

قال الإمام الحافظ الأندلسى أبو عمرو الدانى : إن الكسائى كذلك قرأ ، وقرأ الباقون يعنى من السبعة بكسر الميم ، انتهى . وقرأ أبو جعفر أيضا بالفتح وهو أكثر فى الكلام .

(إنَّ ربَّكَ هُوَ القَوِىُّ) القادر على كل شىء (العَزِيزُ) الغالب ، والخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون لصالح ، أى وقلنا لصالح : « إن ربك هو القوى العزيز » وذلك امتنان بإنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين لتضمنهما كونه قويا عزيزا .

(وأخَذَ) حذف التاء لأن الفاعل ظاهر مجازى التأنيث ، وزاده الفصل حسنا ، وهذا الذى ذكرته أولى من كون الحذف لتأويل الصيحة بالصياح ، ولو اختاره عياض (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم بالشرك ، والناقة بالعقر ، وهو أيضا ظلم لأنفسهم كسائر الذنوب ، وهم قوم صالح ، وعبر عنهم بالذين ظلموا تشنيعا عليهم بالظلم ، وذكر الموجب (الصَّيْحَة) مركبة من صوت كل صاعقة ، وصوت كل شىء فى الأرض .

(فأصْبَحُوا فى دَارِهِم جَاثِمِينَ) باركين على الركب ميتين ، وقد مر .

(كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا) كأن لم يلبثوا فى دارهم ، وكأن

مخففة ، واسمها ضمير الشأن ، أى كانوا ، أو ضميرهم أى كأنهم ، والجملة مستأنفة ، أو معمول لخبر ثان ، أو لحال من الواو ، أو من المستتر فى جاثمين ، أى مقولا فيهم .

(ألا إنَّ ثموداً) وقرأ حفص وحمزة بلا تنوين ، وكذا فى الفرقان والعنكبوت (كفرُوا ربَّهم ألا بُعْداً لثَمودَ) وقرأ الكسائى بكسر الدال وبالتنوين ، وكذا يقرأ فى جميع القرآن ، ذكره الدانى ، وبذلك تعزو ، وعزا القاضى إلى نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبى عمرو ، والقارىء التنوين مع الكسر فى : « ألا بُعْداً لثمود » أما الصرف فللتأويل بالحى أو القوم ، أو لتقدير مضاف على أردت الأب الأكبر ، أو ملاحظة له ولو بلا تقدير مضاف ، وأما المنع فلأن ثمود قبيلة فمنع الصرف للعلمية والتأنيث ، وإعراب قوله : « ألا إن ثمود » إلى آخره كإعراب « ألا إن عاداً كفروا » إلى آخره .

(ولَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا) ثلاثة من الملائكة عند ابن عباس ، وعطاء : جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، واختاره بعض لأنه أقل الجمع ، ويرده أن احتمال الأكثر باق ، وقال الضحاك : تسعة ، وقال مقاتل : اثنا عشر ، وقال محمد بن كعب : ثمانية أحدهم جبريل ، وقال السدى : أحد عشر ، وهم بصور غلمان حسان الوجوه .

(إبْرَاهِيمَ بالبُشْرى) بشارة الولد ، وقيل : بشارة بإهلاك قوم لوط ، واختير الأول (قالُوا سَلاماً) سلمنا ، أو نسلم عليك سلاما ، فهو مفعول مطلق ، والمراد الإنشاء ، ويجوز أن يكون مفعولا به ، أى ذكروا سلاما ، والجملة جواب سؤال ، كأنه قيل : ماذا قالوا ؟ فقال : قالوا سلاما .

(قالَ) إبراهيم جواب لسؤال ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم بعد سلامه ؟ فقال : قال (سَلامٌ) مبتدأ محذوف لخبر ، أى عليكم سلام ، أو خبر لمحذوف ، أى جوابى سلام ، أو أمرى سلام ، أو أمركم سلام ، وفى هذا ضعف ، ووجد جوازه إذ رد السلام عليهم أمر من أمورهم ، إذ كان متعلقا بهم ، وقرأ حمزة والكسائى هنا ، وفى الذاريات : « قالوا سلاما قال سلام » بكسر السينين وإسكان اللامين ، والمعنى إيتاء السلام ، كحرم وحرام ، أو المراد ضد الحرب ، والأصل واحد ، فإن فى ضدها سلامة ، وعلى كل قراءة وجواب إبراهيم أفضل من جوابهم ، إذ أتى بالجملة الاسمية ، فذلك من كرمه .

(فما لَبِثَ) ما أبطأ أو ما تأخر ، وفاعله ضمير إبراهيم (أنْ جَاءَ) أى بأن جاء ، أو فى أن جاء ، أو عن أن جاء ، وسواء فى ذلك أول مصدر منصوب على حذف الخافض ، أو مجرور على تقديره ، ويجوز كونه فاعلا أى ما أبطأ مجيئه ، أو ما تأخر مجيئه (بعجْلٍ) ولد البقرة ، وكان عامة ماله البقر (حَنِيذٍ) أى محنوذ بمعنى مشوى على الرضف ، وهى الحجارة المحماة ، كما يفعل أهل البدو ، أو قيل : هو المغطى بحجارة أو رمل محمى ، أو حائل بينه وبين النار يغطى به ، والمعرض الذى يصفف على الجمر ويسمى الصفيف ، والمصهب الذى بينه وبين النار حائل ، يكون للحلم عليه لا مدفونا به ، وقيل : اللحم الضعيف الشى ، والشواء يعم ذلك ، ويعم المشوى بالنار الموقد بلا حائل ، والمطهو المشوى أو المطبوخ ، والقدير المطبوخ فى القدر .

وقيل : الحنيذ الذى يقطر ودكه ، من حنذت الفرس إذا ألقيت عليه جلا على جل ليتصبب عرقا ، كما يدل عليه قوله : « بعجل سمين » .

قال فى عرائس القرآن : مكث إبراهيم خمسة عشر يوما لم يأته ضيف ، وشق ذلك [عليه] وكان يحب الضيف ، ولا يأكل إلا معه ، ولما أتوه على صور الرجال فرح بهم ، لم ير ضيفا مثلهم حسنا وجمالا فقال : لا يخدمن هؤلاء إلا أنا ، فخرج فأمر بعجل سمين يذبح فذبحه وعجله إليهم انتهى بتصرف .

(فلمَّا رَأى أيدِيَهم لا تَصلُ إليْهِ) إلى العجل الحنيذ ، إذ لم يمدوها إليه (نَكِرهُم) أنكر حالهم (وأوْجَسَ) أضمر وأدرك (مِنْهم خِيفةً) نوعا من الخوف ، وخاف أن يريدوا به مكروها ، وكان منزله طرفا من الناس ، فخاف منهم لامتناعهم من الأكل ، إذ عرف من جاء بشر لا يأكل طعام المنزول به ، وكان عادتهم إذا مس من جاءهم طعامهم أمنوه ، وإلا خافوه ، ولم يعلم بأنهم ملائكة ، بل قيل : استضافوه فأضافهم بالعجل الحنيذ على طعام ، والضيافة عندنا معشر الأباضية فرض كفاية ، وإن قصد أحدا تعينت عليها وهى ثلاثة أيام ، وروى يوما وليلة ، وكذا قال ابن العربى المالكى .

وقال بعض فقهاء قومنا : إنها غير واجبة ، وإن الأحاديث فيها على الندب ، وقيل : إن إبراهيم لم يعرفهم أولا ، ولذلك قدم إليهم ما يأكلون ، ولما رآهم لا يمدون أيديهم للأكل عرف أنهم ملائكة ، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون ، فخاف أن يكونوا قد جاءوا بعذاب قومه أو لأن ما أحدثه لم يرضه الله ، لا بمجرد أنهم ملائكة ، لأنه لا يخافهم ، ولكن المتبادر من الآية ما تقدم .

قال الطبرى : لما قدم العجل قالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمن ، فقال لهم : ثمنه أن تذكروا الله تعالى عليه فى أوله ، وتحمدوه فى آخره ،

فقال جبريل لأصحابه : بحق اتخذ الله هذا خليلا ، فقيل : نظر إلى مكائيل فقال له ذلك .

(قالُوا) حين رأوا خوفه الذى أضمره ظهر أثره عليه (لا تخف) إنا ملائكة الله ، وإن قلنا : إنه عرفهم بعد عدم مد أيديهم ، فالمراد لا تخف من عذاب قومك ، وهون أمـره عليك ، فإنه أهل لـه ، أو علمهم الله أنه خافه ، أو علموا أن علمه بهم يوجب الخوف بأنهم ينزلون بعذاب ، وفى هذا ضعف ، أو لا تخف على نفسك فإنا لم نجىء فيك .

(إنّا أرْسِلنا إلَى قَوْمِ لُوطٍ) لنهلكم .

(وامْرأتُهُ) زوجته سارة بنت هاران بن ناحوراء ، بنت عم إبراهيم ، والواو للحال ، وصاحب الحال واو قالوا (قائمةٌ) من وراء الستر تسمع تحاورهم ، أو على رءوسهم مستترة تخدمهم ، وإبراهيم قاعد معهم ، ففى مصحف ابن مسـعود : وامرأته قائمة وهو قاعـد (فَضَحِكت) استبشارا بهلاك قوم لوط عليه السلام ، هذا مذهب الجمهور ، وهو أصح ، وأصل الضحك انبساط الوجه من سرور النفس ، ويلزم على ذلك خروج صوت من الفم ، ويطلق على ذلك الصوت ، وسميت الأسنان المقدمة ضواحك بظهورها عند الضحك ، وقد يستعمل فى مجرد السرور فى مجرد التعجب .

قال فى عرائس القرآن : وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط ، وقد قرب منهم العذاب اهـ . وقيل : ضحكت لزوال الخيفة ، إذ كان إبراهيم عليه السلام خائفا فخافت بخوفه .

وقال مقاتل ، والكلبى : ضحكت من خوفه من ثلاثة رجال ، فيما

بين خدمه وحشمه وخواصه ، وقيل : لموافقة رأيها ، وذلك أنها كانت تقول له : اضمم إليك ابن أخيك لوطا ، فإنى أعلم أن العذاب نازل بهم ، وهذه الأقوال كلها مقبولة حسنة معنى وصناعة •

وقيل : ضحكت تعجبا قالت : يا عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم ، وهم لا يأكلون طعامنا •

وقال ابن عباس ، ووهب : ضحكت فرحا بالتبشير بالولد ، أو تعجبا من ولادتها على كبرها وكبر زوجها ، ويرده أنها لم تبشر قبل الضحك بل بعده ، بدليل الفاء فى قوله : « فبشرناها » إلا أن تجعل بمعنى الواو ، فصح عطف المتقدم بها على المتأخر ، أو تجعل لترتيب الأخبار •

قال فى عرائس القرآن : وقال مجاهد ، وعكرمة : ضحكت حاضت فى الوقت ، تقول العرب ضحكت الأرنب إذا حاضت ، وهو وارد خلافا لمن أنكره كالفراء ، والزجاج ، وأبى عبيدة ، والراغب قائلا : ليس قول بعض المفسرين ضحكت حاضت تفسير ، بل بيان للأمارة ، وذلك أنها حاضت فى الوقت لتعلم أن حملها ممكن •

وروى أنها قالت لجبريل لما بشرها بالولادة : ما علامة ذلك ؟ فأخذ بيده عودا يابسا فجعله بين أصابعه فاهتز واخضر ، فقال إبراهيم : هو إذن ذبيح الله ، قاله فى عرائس القرآن ، ولا بأس بتعدد العلامة ، وقرأ محمد بن زياد الأعرابى : فضحكت بفتح الحاء •

(فبشَّرْناها) وجهت البشارة إليها ، لتعلم أن الولد منها ، ولأنها عقيمة مريضة على الولد ، ولو بشر به إبراهيم لم تعلم أيكون الولد منها أو من غيرها (بإسْحاقَ) تلده من بطنها (ومِنْ وَراءِ) من بعد

(إسْحاقَ يعْقـُوبَ) مبتدأ خبره من وراء إسحاق ، أى ثابت من وراء إسحاق ، وإن قدرنا الخبر كونا خاصا مثل مولد من وراء إسحاق ، لم يكن من وراء نائبا عنه ، ولا سمى ولا مسمى بخبر ، ولا منتقل إليـه الضمير •

بشرت سارة أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص بفتح يعقوب على أنه مفعول لمحذوف ، أى ووهبنا لها أن من وراء إسحاق يعقوب ، أو نهد لها من وراء إسحاق يعقوب ، ولا يجوز عندى عطفه على محل قوله : « بإسحاق » لأن محلـه لا يظهر بفصيح ، اللهم إلا أن يحمل على الشذوذ ، إذ لا يقال بشرناها إسحاق بالنصب على نزع الخافض إلا شاذا ، ولم يشترط ابن جنى إمكان ظهور المحل فى الفصيح ، ويجوز عندى عطفه على لفظ إسحاق ، فيكون مـن وراء حـال من يعقوب ، ولا بأس بالفصل به عندى خلافا للقاضى فى منع العطف على لفظ إسحاق ، لعله الفصل •

وقيل الوراء ولد الولد ، فلبس من الوراء الذى هو ظرف بمعنى خلف ، ولو كان الأصل واحدا ، فإن ولد الولد خلف الولد ، فإضافة وراء إلى إسحاق من حيث إن يعقوب وراء إبراهيم من جهة إسحاق ، أى ولد ولده ، لا من حيث إن يعقوب ولد ولد إسحاق ، لأنه ليس كذلك ، وفى ذلك تكلف ، والتسمية بإسحاق ويعقوب تحتمل أن تكـون مذكورة فى التبشير بأن قالوا لها : إنك ستلدين طفلا يسمى إسحاق ومن ورائه طفل يسمى يعقوب ، فعلمت اسـميهما مـن يومئذ ، ويحتمل أن لا تذكر فى التبشير ، ولكن سميا بالاسمين بعد الولادة ، وحكيا فى القرآن بحسب الواقع من التسمية ، لا بحسب لفظ التبشير ، فـإن لفظه على هذا أنك ستلدين طفلا ، ومن ورائه طفل •

﴿ قالت يا ويلتا ﴾ أصله فى النداء الهلاك ، ثم استعمل فى كل فظيع ، كأنه قيل : يا عجبى ، والألف بدل من ياء الإضافة ، وقرأ الحسن : يا وليتى بكسر التاء بعدها ياء الإضافة ﴿ أألد ﴾ استفهام تعجب ، ولا مفعول لهذا الفعل ، فإن المراد تعجب من مطلق الولادة ، لا الولادة بقيد كذا ظهرلى .

﴿ وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ﴾ عمرها تسع وتسعون سنة ، وعمره مائة وعشرون سنة ، ويأتى غير ذلك إن شاء الله فى غير هذه السورة ، وشيخا حال من بعلى ، وعامله معنى الإشارة ، وصح هذا باعتبار معنى قولها : أشير إلى بعلى شيخا ، وهذا بعلى أشير إليه شيخا ، فعامل الحال وصاحبها فى الحقيقة واحد هو أشير ، والصاحب فى الحقيقة مجرور إلى فلا يرد علينا اختلاف عاملهما من حيث إن أرفع بعلى هو ذا ، ورافع ذا هو الابتداء .

وقال السهيلى : اسم الإشارة لا يعمل فى الحال ، وإنما العامل والصاحب محذوفان ، أى انظر إليه شيخا وهكذا فى مثل هذه الآية مثل : « تلك بيوتهم خاوية » فى النمل ، بل السهيلى ذكر ذلك فى آية النمل ، وقرأ شيخ بالرفع على أنه خبر ثان أو خبر لمحذوف ، أى هو شيخ ، أو على أنه الخبر وبعلى بدل من ذا ، والبعل الزوج ، وأصله القائم بالأمر ، ولما كان للزوج قائما بالأمر سمى بعلا .

﴿ إن هذا ﴾ أى المذكور من كون الشيخ الكبير ، والعجوز الكبيرة يلدان ﴿ لشىء عجيب ﴾ استبعدت ذلك بالنظر إلى العادة ، ولم تذكر قدرة الله مع أنها فى بيت النبوة ، والآية ، ومهبط المعجزات والخوارق

للعادة ، وكان عليها أن تتوقر ولا يستخفها ما يستخف سائر النساء ، وان تسبح وتحمد ما كان التعجب ، ولذلك قالوا لها ما ذكر الله عز وجل بقولـــه :

(قالـُوا) أى الرســـل الملائكة (أتعـْجبِينَ مِنْ أمْر) قـــدرة (الله ِ) إنكار لتعجبها ، أى لا تعجبى من ذلك ، فإن الله قادر على ذلك ، وإن أهل بيت النبوة مختصون بمزيد النعم والرحمة والبركة ، وليس ذلك ببدع ولا حقيق بأن يستغربه أحد عاقل ، فضلا عن أهل بيتها ، كما قال عن الرسل الذين هم ملائكة .

(رحـْمة ُ الله وبـَرَكاتـُه عـَليـْكم) إخبار منهم بالرحمة والبركة على العموم ، وقيل الرحمة النبوة ، والبركات الأسباط من بنى إسرائيل ، لأن الأنبياء منهم ، وكلهم من ولد إبراهيم ، ويجوز أن يكون ذلك دعاء لهم بالبركة والرحمة العاملين ، وقيل : إن ذلك من كلام الله لا مـــن كـــلام الملائكة .

(أهـْلَ البـَيـْت) بيـ تـإبراهيم منصوب على الاختصاص ، أو أو على النداء ، أو على المدح ، والحمد على الأول ضعيف ، لأن الأكثر فى الاختصاص أن يكون بعلى ضمير تكلم ، والحمد على النداء أولى ، قيل : وفى الآية دليل على أن زوجة الرجل من أهل بيته ، ويبحث بأن زوجته هذه بنت عمه ، فلعلهم جعلوها من أهل البيت لكونها بنت عمه .

(إنـّه حميد ٌ) أى محمود ، أو فاعل لما يستوجب الحمد ، ولكنه أهل للحمد ولو لم يفعل شيئا ، أو فاعل لما يستوجب به الشكر (مـَجيد ٌ) واسع الخير والإحسان ، وقيل : ذو الشرف والكرم ، قال الحسن : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد أحب إليه الحمد من الله ولا أكثر معاذير من الله » .

(فلمّا ذَهبَ) زال (عَنْ إبراهيم الرَّوْع) الخوف واطمأن بمعرفته أنهم ملائكة ، وأنهم فى شأن قوم لوط (وجاءتْهُ البُشْرى) بالولد (يُجادِلنا) أى يجادل رسلنا ، أو مجادلتهم مجادلته تعالى (فى قَوْمِ لُوطٍ) فى شأنهم ، وما جداله إلا قوله : « إن فيها لوطا » وليس ردا لكلام الله وملائكته حاشاه ، فكأنه قيل : يكلمنا ويطلبنا ، وقيل : إنه قال للملائكة أيهلكون قوما فيهم خمسون من المؤمنين ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا ، ومازال حتى قال : فخمسة ؟ قالوا : لا ، وقال : فواحد ؟ قالوا : لا ، قال : إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته .

وقيل : قال : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعة عشر ؟ قالوا : لا ، قال : فواحد ؟ قالوا : لا ، قال : إن فيها لوطـا ؟ قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، الآية ويأتى فى سورة العنكبوت خلاف ذلك إن شاء الله ، وفى رواية : أربعون ، وثلاثون ، وعشرون ، وعشرة .

وروى عن الكلبى أنه سأل ربه ألا يهلك لوطا وأهله ، وأن يعفو عن قوم لوط بتأخير العذاب لعلهم يؤمنون ، قيل : كان فيهم أربعة آلاف ألف ، ويجادلنا جواب لما ، وقع جوابها مضارعا قيل : أجاز ابن عصفور ذلك ، وقيل : إن الجواب جاءته البشرى ، وزيدت فيه الواو ، قلت : هذا ضعيف لا يعود عليه ، وقيل الجواب محذوف ، ويجادلنا حال معمول لمحذوف ، أى أقبل أو شرع يجادلنـا ، ذكر ابن هشـام بعض ذلك ،

وقيل : الجواب محذوف ، ويجادلنا مستأنف دال عليه أى اجترأ على خطابنا ، أو فطن لمجادلتنا ، أو قال كذا وكذا ، وقيل : الجواب يجادلنا جيء به مضارعا لحكاية الحال ، وقيل : إن لما ترد المضارع إلى معنى الماضى ، فكأنه قيل جادلنا .

(إنَّ إبْراهِيمَ لحليمٌ) صبور لا يعجل بالانتقام ممن أساء إليه وصف بالحلم لأنه لم يغضب قط لنفسه بل لله (أوَّاهٌ) كثير التأوه من الذنوب ، ومر فيه كلام (مُنيبٌ) راجع إلى الله سبحانه وتعالى ، وعن مجاهد : فقيه مؤمن ، والمراد من وصفه بذلك بيان حامله على الجدال ، وهو رقة قلبه ، وفرط رحمته كما حمله ذلك على الاستغفار لأبيه ، ولما أكثر الكلام والسؤال فى قوم لوط قالت الملائكة :

(يا إبْراهِيم أعْرِضْ عَنْ هَذا) أى الجدال ، فالجملة محكية بقول محذوف (إنهُ) تعليل جلى (قَدْ جاء أمرُ ربِّكَ) قدره بهلاكهم على وفق قضائه فى الأزل ، فلا ينفع دعاؤك وجدالك ، وما زلت أفهم وأعتقد أن الدعاء إنما أمرنا به ، فإن الله سبحانه وتعالى قضى أن فلانا يصيبه خير كذا ، أو يدفع عنه شر كذا ، أو أن تلك الإصابة أو الدفع إنما يكون بدعائه ، وإن ذلك الدعاء واقع لا محالة ، وهو أيضا جملة قضاء الله ، فذلك فائدة الدعاء ، مع أن القدر لا يرده الدعاء ، وما لم يجب فيه المؤمن فقد عوض له فيه شيء فى الدنيا ، أو فى الآخرة أو فيهما قضاء الله أن يصيبه بدعائه ، فاعتبر ذلك بأنك يضربك إنسان بسيفه فترد عنك بترسك أو وقايتك ، فقد قضى الله أن لا يصيبك سيفه ، وقضى أن سبب عدم إصابته إياك تحفظ بالترس أو الوقاية ، فكذا الدعاء ، حتى رأيت بعض ذلك فى الغزالى ذكره فى الإحياء ، وإذا تبين قضاء الله بوحى مثلا لم يجز الدعاء بما يخالفه ، ولم يكن منفعة فيه ، وإنما يجوز قبل تبيينه ،

فإن الأمر مبهم ولذلك أمره بترك الدعاء والمراجعة فى أمر قوم لوط ، وعللوه بمجىء أمر الله كما مر ، فإن عذابه لا يرد ، لأنه قضى به كما قال :

(وإنهم آتيهمْ) اسم فاعل للاستقبال خبر لأن (عَذَابٌ) فاعله كما تقول : الزيدون يكرمهم الرجل ، ويجوز كون الوصف فى ذلك خبرا مقدما والمرفوع بعده مبتدأ ، وكونه مبتدأ والمرفوع بعده خبر والجملة خبر (غَيْرُ مَرْدُودٍ) بدعاء ولا جدال ولا بغيرهما .

(ولما جاءتْ رُسُلُنا) الإضافة للعهد الذكرى ، فهم الملائكة الذين جاءوا إبراهيم (لُوطاً سِيءَ بِهِمْ) نائب سىء ضمير لوط وبهم فضله ، لأن ساء متعد أى أضر الله لوطا إذ قدر عليه الخوف ، أو الأصل ساءه مجيئهم ، ولما حذف الفاعل ونائب عنه المفعول جىء بضميرهم مجرور بالباء .

وذلك أنهم جاءوا فى صورة غلمان مرد حسان الوجوه طيبى الرائحة ، فظنهم ناسا فخاف أن يقصدهم قومه بالفاحشة فيعجز عن مدافعتهم ، قرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائى سىء بهم وسيئت بإشمام السين الضم هنا ، وفى العنكبوت ، والملك ، والباقون بإخلاص الكسر .

(وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً) تمييز محول عن الفاعل ، أى ضاق بهم ذرعه والذرع الذراع ، ومخرج الرأس والعنق من القميص ، كنى بضيق يده عن عجزه عن دفع قومه والاحتيال فيه ، لأن موضع قوة الإنسان فى ذراعه حتى توسعوا فيه فقالوا فى عدم الطاقة : فلان ضيق الذراع ، وفيها فلان رحب الذراع ، ولأن البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك ، فلذا قيل الذرع مصدر مأخوذ من الذراع ، أو الذرع من القميص يكون

على الصدر أو قريبا منه وكنى بضيقه عن ضيق صدره ، أو سمى الصدر باسمه ، وظاهر كلام بعض أن الذرع يطق لغة على الصدر حقيقة لا مجازا ، ويأتى كلام فى ذلك إن شاء الله ، ومر كلام فى القصة ، ويأتى آخر إن شاء الله •

(وقالَ هَذا يومٌ عَصِيبٌ) شديد ، من قولك : عصب رأسه أى شده ، كأن الشر قد ألصق وشد به ، كما قال امرؤ القيس :

فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مغار القتل شدت بيذبل

(وجاءَه قَومُه يُهرعُون إليْه) يسرعون بالبناء للمفعول من أهرعه بمعنى أسرعه ، كأن دافعا دفعهم وعجل بهم لعمل الفاحشة بضيفه النازل به ، لما علموا بنزوله عنده ، وقال مجاهد : إهراعه الدابة لهرولة بها (ومِنْ قَبْل) قبل ذلك الوقت ، أو قبل مجيئهم ، أو قبل مجىء الضيف ، أو قبل نزوله ، أو متعلق بقوله : (كانُوا) لأن التحقيق أن الأفعال الناقصة دالة على الحديث ، فصح التعليق بها أو متعلق بقوله :

(يعْمَلونَ) والمعنى أنهم من قبل ذلك كانوا يعملون (السَّيِّئَات) متمردين لها غير مستقبحين لها ، وهى جماع الذكور فى الإدبار ، ولذلك جاءوا مجاهرين معلنين ، لا يكفهم حياء ، والجملة مستأنفة ، أو حال ماضية ، وعلى الوجهين يجوز أن يكون المراد أنهم كانوا على عهد لوط وعلمه من قبل ، يعملون السيئات ، ولا مانع من العطف ، وإنما جمع السيئة لتكرار الجماع ، أو لأن المراد بالسيئات الجماع والضرط فى النادى ، وتطريف الأصابع بالحياء ، والحذف بالحصى ونحو ذلك ، وكانوا ألا يجامعون إلا الغرباء •

(قالَ) لوط (هؤلاء) إشارة إلى الإناث (بَنَاتِي) فتزوجوهن ، ودعوا لي أضيافي ؛ فدى أضيافه ببناته كرماً وحفظا لهم ، وقد طلبوه من قبل ذلك أن يزوجهم بهن ، فامتنع لكفرهم وفسقهم ، وعدم كونهم أكفاء لهن ، ولما تعرضوا لأضيافه سمح بهن سترا لهم ، وكان حلا في شرعه تزويج المؤمنة بالكافر ، والمؤمن بالكافرة ولو صنمية ، كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنته من عتبة بن أبى لهب ، وأبي العاصي بن وائل في أول الإسلام ، ثم نزل تحريم ذلك : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وذلك تفسير الحسن .

ولا يقال : إن للوط بنتين فقط ، ولا تكفيان الجماعة في التزوج ، وأنه ليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليتزوجوهن ، فكيف يليق بنبي أن يعرض بناته على كفار ؟

لأنا نقول : إن الحق أنهن أكثر من اثنتين كما هو ظاهر الجمع واسمه ، وأنه لا مروءة أعظم من أن يمنع أضيافه ببناته ، ولا كرامة فوق ذلك ، وقد حل تزوج الكافر بالمؤمنة في شرعه ، وأن المرغبين إليه كانوا على عدد بناته ، أو أقل كما هو ظاهر الذى لا يعدل عنه إلا لدليل ، والقوم يجوز إطلاقه على ثلاثة فصاعدا ، أو يطلق على اثنين مجازا مع أنه يحتمل أن يقول ذلك على سبيل الدفع لقومه ، لا على التحقيق .

سلمنا أن له بنتين فقط ، والجمع واقع عليهما كما قيل ، لكن في المرغبين إليه سيدان مطاعان ، فلو زوجهما بهما لمنعا الباقين عن أضيافه كما قيل .

وقال الحسن بن الفضل : كان شرعه نكاح المؤمنة بالكافر ، وإنما

عرض عليهم بناته بشرط الإسلام ، ولم يذكر الشرط فى الآية ، أو لم يذكره لهما حينئذ استغنى بما جرى بينهم وبينه من طلبهم له أن يزوجهم بهن ، وامتناعه إلا أن يسلموا ، فلما عرضهن عليهم علموا أنــه بشرط الإسلام .

ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة فى تواضعه ، وإظهارا لشدة غضبه ، والمشقة عليه فى فعل الفاحشــة بأضيافه ، طمعــا فى أن يستحيوا ويرقوا له فيتركوهم ، ولم يرد التزويج على التحقيق ، وقــد علموا أنه لا مناكحة بينه وبينهم .

وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أراد بالبنات نساء قومه ، فإن كل نبى أبو أمته من حيث الشفقة ، ويأتى كلام فى هذا فى الأحزاب إن شاء الله ، وصححه بعضهم .

(هُنَّ أطْهرُ) أحل (لَكُم) من الذكور ، وكانت الذكور طاهرة عندهم أيضا ، فجاء التفضيل على معتقدهم ، أو أراد أنهن أطيبه وأنظف من الذكور ، أو أطهر خارج عن التفضيل بمعنى طاهرة ، أو باق عليه على تقدير هن أطهر من الذكور إن كانوا طاهرين ، هذا ما ظهر لى من الأوجه ، وقرأ ابن مروان بنصب أطهر ، وضعفه سيبويه ، وعن بعضهم أن مروانٍ اختبأ فى لحنه ، وقال أبو عمرو بن العلاء : من قرأهن أطهر بالنصب فقد تربع فى لحنه ، قال ابن هشام : يشترط فى ضمير الفصل كونه مبتدأ فى الحال أو فى الأصل ، وأجاز الأخفش وقوع ضمير الفصل بين الحال وصاحبه ، كجاء زيد هو ضاحكا ، وجعل منه « هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » فيمن نصب أطهر ، ولحن أبو عمرو من قرأ بذلك ، وقد خرجت على أن « هؤلاء بناتى » جملة وهن إما توكيد لضمير مستتر بالخبر ، أو مبتدأ ولكم الخبر ، وعليهما فأطهر حال ، وفيهما نظر .

أما الأول : فلأن بناتي جامد غير مؤول بالمشتق ، فلا يحتمل ضميرا عند البصريين .

وأما الثانى : فلأن الحال لا تتقدم على عاملها الظرفي عند أكثرهم انتهى .

وهذا على أن أطهر حال من المستتر فى لكم ، ولا مانع من جعله حالا من بناتي على حد ما مر فى « هذا بعلى شيخا » فيتعلق لكم بأطهر كما فى قراءة الرفع ، ويجوز كون بناتي خبرا ، وهن مبتدأ وبالعكس ، والجملة خبر هؤلاء فإنه يجوز : هذا أخى هو على ، إن أخى مبتدأ خبره هو راجعا إلى هذا وعكسه ، فيكون أطهر حالا من الخبر في الجملة المخبر بها على الإشارة ، ويجوز كون بناتي بدلا من هؤلاء ، وهؤلاء مفعول لمحذوف أي خذوا أو تزجوا ، وأطهر حال منصوب بذلك المحذوف ، وهن ضمير فصل على طريق الأخفش فى إجازته بين الحال وذى الحال ، والجمهور على خلافه .

(فاتقوا الله) باجتناب النساء ، أو بنساتى على الذكور أو الأضياف ، أو بترك الفواحش كإتيان الذكور ، والكفر ، والمعاصى (ولا تخزون فى ضيفى) لا تهينونى ولا تفضحونى فى شأنهم وحقهم ، وأخزأ ضيف الرجل أو جاره إخزاءة كما قال : وظلم الجار إذلال المجير ، ولا تخجلونى فيهم من الخزية بمعنى الحياء ، وذلك من بليغ الكرم والمروءة وأصالتهما ، وقرأ أبو عمرو بإثبات الياء فى تخزونى فى الوصل .

(أليس منكم رجل) واحد (رشيد) مؤمن أو صالح ، أو ذو مروءة ، يأمر بالحق ، وينهى عن القبيح ، أو يهتدى إلى الحق ويكف عن القبيح ، أى أليس فيكم ولو واحد ، والاستفهام توبيخ .

(قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) لأنك امتنعت

من أن تزوجنا بهن ، لما تدعى فينا من سوء ، ولم ترنا أكفاء لهن ، أو لأنك اشترطت الإسلام وما نريده ، وما عرضك إياهن علينا إلا دفع عن ضيفك ، وقيل : ما لنا فيهن حاجة ولا شهوة .

(وإنكَ لتعلَم ما نُريدُ) من إتيان الذكور أو أضيافك .

(قالَ) لوط اعتذارا لضيفه (لَوْ أنَّ لى بكُم قوَّةً) أى لو ثبت أن لى بكم قوة ، والباء للإلصاق ، أو بمعنى على ، أو فى متعلق بقوة ، أو بما يتعلق به لى ، أو بمحذوف حال من قوة أو من ضميرها فى لى .

(أو آوِى) عطف على جملة ثبت أن لى بكم قوة ، أو على الاسمية فقط ، ومعناه الّحاء ، وأو للتمنى أو شرطية يقدر جوابها بعد قوله : « شديد » أى لامتنعت منكم ، أو لدافعتكم ولقاتلتكم ، أو لحفظت عنكم وقرأ أوآوى بالنصب عطف على اسم خالص وهو قوة ، أعنى أنه منصوب بأن مضمرة جوازا ومصدره معطوف على قوة ، أى آويا بضم الهمـزة وكسر الواو وتشديد الياء (إلَى رُكْنٍ) وقرىء بضم الكاف كالراء (شَديدٍ) أراد جماعة ، أو قوما ، أو عشيرة أو نحو ذلك ، شبه مـا ذكر بركن الجبل فى الشدة .

روى الحسن وأبو هريرة فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد » ومراده استغراب التجاء لوط إلى ركن شديد من الناس ، مع أنه لا ركن أشد من الله ، وليس مراده أنه لم يلتجىء إلى الله ويجوز أن يكون المراد أن لوطا قد التجأ إلى الركن الشديد وهو الله ، أو نصره فهو كافيه عن طلب سواه .

روى أن الملائكة وصلوا من إبراهيم إلى لوط نصف النهار ، ووجدره

فى حرثه يسقيه ، فسألوه الضيافة فقال : اجلسوا حتى أفرغ لكم ، فتوجه بهم إلى منزله ، وقد قال الله لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ؛ أى كما فى الشهادة على الزنى ، فإنها بأربعة رجال ، وروى : حتى يشهد ثلاث شهادات ، وأنزلهم فى داره ، وجاء قومه ، وغلق الباب ، فجعل يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب ، فعالجوا فتحه فلم ينفتح ، وجعلوا يتسورون الجدار •

وعن الحسن : لم يبعث الله نبيا بعد لوط إلا فى عزة من قومه ، وقال بعض : فى قوة من قومه ، ولما رأى الملائكة ذلك ، وما يلقى لوط منهم قالوا : إن ركنك شديد ، وقالوا ما حكى الله عنهم بقوله :

(قالُوا) أى الرسل الذين هم ملائكة (يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا) أى قومك بمكروه (إِلَيْكَ) إلى إضرارك ، وذلك أن إضرار ضيف الرجل إضرار بالرجل ، فافتح الباب وخلنا وإياهم ، ففتح فدخلوا ، وطمس جبريل أعينهم ، وقد مر ذلك ، وقوله : « لن يصلوا إليك » ايضا لقوله : « إنا رسل ربك » لأنه لا يصلون إليه ومعه رسل الله •

(فَأَسْرِ) بوصل الهمزة من السرى الثلاثى عند نافع ، وابن كثير ، حيث وقع بالقرآن بالفاء أو بغيرها ، وقرأ الباقون بقطع الهمزة من الإسراء الرباعى (بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) طائفة منه ، قال الضحاك : أمروه بالسرى آخر الليل ، وقيل أوسطه بعد مضى أوله ، وعليه قتادة ، وقيل السحر الأول •

(وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ) أى لا تلتفت أنت يا لوط ، ولا من يسرى معك إلى خلف لئلا يرى عظم ما نزل بهم (إِلَّا امْرَأَتَكَ) بالنصب

على الاستثناء المنقطع ، أى لكن امرأته لا تنجوا مع أنها تسرى معك . هذا ما ظهر لى ، وقد سرت معه ، والتفتت إذ سمعت هذه فقالت : واقوماه ، فجاء حجر فقتلها ، وقد أمرها لوط وغيرها بعدم الالتفات وعصته فالتفتت ، وهذا أولى من أن يقال : أمرها بالالتفات أو لم ينهى عنه لمصلحة أن تموت ، وإنما صح الانقطاع مع شمول لفظ أحد ، أو أهل لها ، لأن الاستثناء لم يكن على طريق الإسراء والالتفات ، بل على طريق عدم النجاة لبطل منع بعض لذلك .

وأيضا المراد بالأهل واحد ، المؤمنون ، وقيل : المعنى لا يتخلف عن السرى منكم أحد إلا امرأتك فلا تسرى بها ، فيكون الاستثناء متصلا من أحد ، ويؤيده قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو بالرفع على الإبدال ، ولا يمتنع اتفاق السبعة على مرجوح ، وكيف يمتنع اتفاق جمهورهم ، وذلك أن الباقين قرءوا بالنصب ، والراجح فى المستثنى فى الاتصال ، والسلب الإبدال ، ولا تناقض فى ذلك ، وإنما هو كقولك : قوموا ولا يبقى منكم قاعد إلا زيد ، أو إلا زيدا لكن فى تفسير الالتفات بالتخلف ضعف ، وقيل الاستثناء من قوله : « فأسر بأهلك » ويؤيده أنه قرىء بإسقاط قوله : « ولا يلتفت منكم أحد » على أن الالتفات التخلف ، ولا يصح أن يكون الاستثناء من ذلك فى قراءة الرفع ، لأن أسر بأهلك مثبت لا منفى ، ولا أن يكون من أحد على الانقطاع ، والرفع لأن المرأة داخلة فى عموم أحد كذا قيل ، وفى نفيه بحث .

ويضعف الرفع فى انقطاع قيل : لا يجوز الاستثناء فى قراءة النصب من أهلك ، إن فسرنا الالتفات بالنظر إلى خلف فى السرى ، لأن قراءة الرفع تأباه ، ولا يحسن تناقض القراءتين فى المعنى ، فإن لوطا إن سرى بامرأته فليست مستثناة إلا من قوله : « ولا يلتفت منكم أحد » وإن لم

يسر بها فليست مستثناة إلا من « فأسر بأهلك » فيلزم أنها سرت ولم تسر ، مع أن القصة واحدة ، وليس كذلك لجواز أن تسرى بنفسها ، ولو منع من أن يسرى بها ، ولأن الإسراء مقيد بعدم الالتفات ، فكأنه قيل : إلا امرأتك فإنها تسرى بالتفات فتلتفت ، فلا تناقض أيضا على هذا أو على ما مر إذا قلنا إنه خلفها مع قومها ، أو سرى بها فالتفتت للهداة .

وذكر ابن هشام كلاما حاصله أن الزمخشري قال : إن من نصب قدر الاستثناء من الأهل ، ومن رفع فمن أحد ، وأنه مردود باستلزامه تناقض القراءتين بأن المرأة تكون مسريا بها على قراءة الرفع ، وغير مسرى بها على قراءة النصب ، وأن في هذا الرد نظر ، لأن إخراجها من جملة النهى ليدل على أنها مسرى بها ، إنها معهم ، وإن الحامل له ولغيره على أن الاستثناء في النصب من الأهل ، أن النصب قراءة الأكثر ، فلو جعل من أحد لزوم حمل قراءة الأكثر على مرجوح ، وقد التزم بعض جواز مجيء قراءة الأكثر على مرجوح .

قال : والذى أجزم به أن الاستثناء من جملة أسرى في القراءتين ، بدليل سقوط « ولا يلتفت منكم أحد » في قراءة ابن مسعود ، وأن الاستثناء منقطع بدليل سقوطه في آية الحجر ، ولأن المراد بالأهل المؤمنون ، وإن لم يكونوا من أهل بيته لا أهل بيته ، وإن يكونوا مؤمنين .

ووجه الرفع أنه على الابتداء ، وما بعد خبر ، والمستثنى الجملة ، ونظيره « إلا من تولى وكفر فيعذبه الله » واختار أبو شامة أن الاستثناء منقطع ، وأنه في النصب والرفع من أحد ، لكن النصب على لغة الحجاز ، والرفع على لغة تميم ، وفيه أن لغة تميم ضعيفة انتهى . وقيل : النهى في اللفظ لأحد ، وفي المعنى للوط .

(إنه مُصيبها ما أصابهم) أى ما يصيبهم ، وكانت منافقة تظهر الإسلام ، ومصيب خبر إن ، وما فاعل مصيب ، أو مصيب خبر مقدم ، وما مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر إن ، والمجموع تعليل مستأنف جملى على ما مر ، وخبر لامرأتك بالرفع على مختار ابن هشام ، وعلل الأمر بالإسراء بقوله :

(إنَّ مَوْعِدَهُم الصُّبْح) أو هـذا مجرد إخبار مستأنف أو استئناف بيانى ، كأن لوطا قال : متى يكون العذاب ، فأجابوه بأن موعدهم الصبح ، وقد روى أنه قال لهم ذلك ، فأجابوه بأن موعدهم الصبح ، فقال : إن الصبح بعيد أريد أسرع من ذلك ، وروى أنه قال : أهلكوهم الآن ، فقالوا : (أليْسَ الصُّبحُ بقَرِيبٍ) وروى أنهم أهلكوا حين شروق الشمس .

(فلمَّا جاءَ أمْرُنا) عذابنا لأنه أمر من الأمور ، وأجاب لما بقوله (جَعَلْنا عَالِيَها سَافِلها) لأنهم حين رفعهم جبريل من تحت مدائنهم إلى السماء ، حتى سمع أهلها نباح الكلاب ، وصياح الديكة ، وبكـاء الصبى ، ليسوا فى عذاب ، ولكنه جاءهم وتوجه إليهم ، والعذاب إنما هو من حين قلبها ، يجعل العالى سافلا .

قال الحسن : خسف بهم فهم يتلجلجون فى الأرض إلى يوم القيامة ، ويجوز أن يكون قوله : « أمرنا » بمعنى أمرنا بعذابهم ولا إشكال فى جعل العالى سافلا مسببا عن أمـره بعذابهم ، وإنما أسـند الجعل إلى نفسه تعالى ، مع أنه فعل لجبريل لأنه خالق ذلك الفعل ، والأمر به ، ولتعظيم ذلك الجعل ، وروى أن فيهن أربعمائة ألف ، ومرّ كلام فيهم ، ويأتى آخر ، قيل خمس مدن أكبرها سدوم ، وقيل : أربع ، وقيل : ثلاث .

(وأمْطَرْنا عليها) على المدن بعد قلبها ، أو على من كان خارجا عنها من أهلها ، أو مسافرا (حِجارَةً مِنْ سجِّيلٍ) طين متحجر كالأجر المطبوخ ، وسجيل معرب فارسى معناه ماء وطين ، ويدل لذلك قوله : « حجارة من طين » وذلك قول ابن عباس ، وابن جبير ، والجمهور ، وأصله بالفارسية سنككل ، أو سد كل ، أو سند وكل .

وعن مجاهد معناه بالفارسية : أولها حجر ، وآخرها طين ، يعنى كل حجر منها كذلك ، وقيل : من أسـجله بمعنى أطلقه وأرسله ، لأنها حجارة مرسلة عليهم ، أو من أسجله بمعنى أدر عطيته ، أى مثل الشيء المرسل ، أو من مثل العطية فى الإدرار ، أو من السجل أى الكتابة فالمعنى مما كتب الله أن يعذبهم به ، وقيل : من سجين وهى جهنم ، قـد أبدلت النون لاما ، وقيل : اسم لسماء الدنيا ، وقيل جبل فى سماء الدنيا ، والصحيح الأول .

ويرد القول بأنه جهنم ، والقول بأنه السماء بقوله : (منْضُودٍ) لأن جهنم والسماء مؤنثان سلمنا أنهما مذكران إذا عبر عنها بسجيل ، كما إذا عبر عن المرأة بإنسان ، لكنهما ليسا منضودين ، إلا إن وصفا بالنضد ، باعتبار حجارتهما ، فإنها منضودة ، ومعنى منضود أنه مهيأ لعذابهم ، أو جعل متتابعا ، أو مرتكما ملتصقا قبل الإرسال .

(مُسَوَّمَةً عِنْد رِبِّكَ) معلمة بعلامات أصحابها ، كتب فى كـل منها اسم من يرمى به بعلامة تتميز بها عن حجارة الأرض ، وعن الحسن ، والسدى ، عليها مثل الخواتيم ، وعن عكرمة وقتادة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع ، وقيل عليهـا خطوط حمر وبيض ، وهو مروى عن

الحسين ، وقال ابن جريج : معلمة بعلامة تتميز بها من حجارة الأرض ، ولا تشاكلها ، وقيل معلمة للعذاب •

(وما هِيَ) أى الحجارة (مِنَ الظَّالِمِينَ) ظالمى هذه الأمة ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عنهم فقال : هم ظالموا أمتك ، ما من ظالم منهم إلا وهو يعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة ، قيل : لا يبعد أن يصيبوا كما صيب قوم لوط ، وإن صح الحديث لم يجز العدول عنه ، وقيل : المراد بهم من كان خارجا من المدائن المذكورة ، وقيل : الضمير لتلك المدائن ، فالظالمون كفار قريش •

(ببَعِيدٍ) لم يقل ببعيدة لأن فعيلا بمعنى فاعل يجوز تذكيره ، ولو كان للمؤنث ، أو للتأويل بالحجر ، أو المكان ، أو لأن المراد بشىء بعيد ، والباء صلة للتأكيد ، والمعنى ليست تلك الحجارة بعيدة من ظالمى أمتك ، أو ليست بعيدة ممن خرج عن تلك المدائن من أهلها •

روى أن رجلا دخل مكة وقعد أربعين يوما حتى قضى حاجته ، فخرج من الحرم ووقع عليه حجر انتظاره بين السماء والأرض ، وتقدم الكلام عليه ، أو ليست تلك الحجارة حين إرادة إمطارها بعيدة ، لأنها إذا أرسلت فهى أسرع شىء لحوقا ، أو ليست تلك المدائن بعيدة من ظالمى مكة ، بل يمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام ، ويجوز أن تكون الباء ظرفية بمعنى فى ، أى ما واقع تلك الحجارة فى مكان بعيد ، أو ما تلك المدائن فى مكان بعيد من أهل مكة فى سفرهم ، وعن جابر بن عبيد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط » •

(و) أرسلنا (إِلَى مَدْيَنَ) قبيلة سميت باسم أبيها مدين ابن إبراهيم ، أو الأصل وإلى أولاد مدين بحذف المضاف ، وقيل : اسم مدينة سميت باسم بانيها ، وهو مدين بن إبراهيم ، فيقدر مضاف ، أى وإلى أهل مدين ، أو سموا أهلها باسمها (أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) هو أخوهم فى النسب .

(قَالَ) استئناف بيانى كأنه قيل : ما قال لهم ؟ فأجاب بأنهم قال : كيت وكيت ، أو حال من أخاهم مقدرة (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ) وحدوه أو أطيعوه ، والطاعة تشمل التوحيد وغيره (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) بدأهم بالتوحيد لأنه ملاك الأمر ، لا ينفع عمل بدونه ، وهكذا الرسل تبدأ بالأهم فالأهم ، ثم نهاهم عن نقص المكيال والميزان وقد اعتادوه ، إذ قال :

(وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) إذا كلتم أو وزنتم من مالكم لغيركم ، وزعم بعض أنه يحتمل أن يراد استيفاء الكيل والوزن لأنفسهم ، زائدا عن حقهم ، فيكون نقص فى مال الغير .

(إِنِّى) بفتح الياء عند نافع ، والبزاوى ، وأبى عمرو ، وإسكانها عند غيرهم (أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ) أى فى خير ، والمراد جميع نعم الله وحقها أن تتفضلوا على الناس شكرا عليها ، لا أن تنقصوا حقوقهم ، .

وقال ابن عباس : فى سعة تغنيكم عن نقص المكيال والميزان ، وكانت أسعارهم فى رخص ، وقال مجاهد : فى سعة وخصب فلا تزيلوا

ذلك بنقص المكيال والميزان ، قيل : وذلك في الجملة علة للنهى (وإنِّى) بفتح الياء عند نافع ، وأبى كثير ، وأبى عمرو (أخافُ عليْكُم) لنقص المكيال والميزان ، أو لكفركم أو لهما (عَذابَ يَومٍ مُحيطٍ) دائر عليكم بعذاب الاستئصال فى الدنيا ، أو عـذاب الآخرة ، واختـاره بعض ، والظاهر عندى الأول والإحاطة صفة للعذاب ، لكن وصف بها اليـوم مبالغة لاشتماله على ذلك العذاب ، فإن الزمان محيط بالعذاب كغيره من الأحداث ، فإذا أحاط بأحد بما فيه فقد أحاط به مما فيه •

(ويا قَوْمِ أوْفُوا المكْيالَ والميزَانَ) هذا داخل فى قوله : « ولا تنقصوا المكيال والميزان » مبالغة ، ويشتمل الكلام صراحة على النهى عن الأمر القبيح ، وهو نقص المكيال والميزان ، وعلى الأمر بالحسن ترهيبا وترغيبا ، ولينبه على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد النقص ، بل يلزمهم السعى فى الإيفاء ولو بزيادة لا يأتى الإيفاء بدونها •

(بالقِسْطِ) أى بالعدل بلا زيادة ولا نقصان ، وذلك حق للكيل والوزن ، فإن شاء صاحب المال زاد بعد ظهور الوفاء على حدة ، فان الزيادة مأمور بها أمر ندب فى غير الآية ، إن لم يلزم بها محرم كربا ، أو على الكائل والوازن من ماله أن ينوى بالوفاء القسـط ، فإن زينة الإيفاء لأنه قسط ، وقيل : القسط تقويم لسان الميزان ، وتعديل الميزان ، ويبحث فيه بأن العرب لا تعرفه هى ولا غيرها لسانا للميزان وقت نزول ذلك ، وإنما أحدثه بعضهم بعد ذلك ، فلا يخاطبهم به ، إلا إن أراد صاحب ذلك القول دخول تقويم لسان الميزان ، وتعديل المكيال فى عموم القسط من حيث الإجمال •

(وَلاَ تَبْخَسُوا) لا تنقصوا (النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) أموالهم فى الكيل والوزن وغيرهما ، فذلك عطف عام على خاص ، فشمل القطع من الدنانير والدراهم ، ونقص منها عند غلها ، والغش فيها ، وذم أموال الناس بما ليس فيها ، ومدح أموالهم بما ليس فيها ، فإنه إكثار لثمنها من غير حق ، فهو يضمن المال مشتريها ، وشمل أخذ المكس والنقص من أثمان ما يشترون ، وأشياء مفعول ثان لتبخسوا .

(وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) عموم بعد تخصيص ، فإن العثى فى الأرض شامل لذلك كله والسرقة والغارة وقطع السبيل ، ويجوز أن يراد بالبخس والعثى نقص الكيل والوزن ، ومفسدين حال مؤكد لعامله ، فإن العثى إفساد ، والمراد مفسدين أمر دينكم ومصالحكم ، وادعى بعض أن فائدته إخراج ما يقصد به الإصلاح كفعل الخضر عليه السلام ، ويرد له أنه لم يكن لهم مثل ماله ، وعلى هذا القول والوجه الذى قبله تكون الحال غيره مؤكدة بالنظر لمتعلقها المقدر فى الوجه المذكور .

(بَقِيَّةُ اللهِ) ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن (خَيْرٌ لَكُمْ) أى أفضل مما تنقصون ، أو منفعة دون ما تنقصون ؛ فإنه ظاهر نام وما تنقصون حيث لا بركة فيه ممحق فى نفسه ، وماحق لغيره من المال (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قيد به لأن الكافر لا يصدق بأن ذلك الباقى بعد الإيفاء خير أو منفعة دون ما ينقصون ، ولا بأنه هو الطاهر النامى ، أو المراد خير لكم بالنجاة من العذاب والفوز بالجنة ، فالتقييد بالإيمان إنما هو لأنه لا فوز ولا نجاة مع الكفر ، وفى هذا الوجه تعظيم للإيمان .

وقيل : بقية الله حظكم من ربكم وهو الجنة ، خير لكم مما تحصلونه بالتطفيف ، وقال مجاهد : بقية الله طاعته ، قيل : وهذا لا يعطيه لفظ الآية ، قلت : بل يعطيه إذ حقيقته ما يبقى لهم عند الله من الطاعة ، وأضيفت البقية لله عز وجل لأنه مبقيها ومحللها ، ولأنها عنده ، والحرام رزق لا كله والمستنفع به ، ويعاقب عليه ، ويجوز أن يقال : حرام الله بمعنى أنه حرمه ، وليس فى الآية ما يدل على خلاف ذلك ، وإنما أضاف البقية له لأنه مبقيها ومحللها ، لا لأن الحرام لا يسمى رزقا كما قالت المعتزلة ، وقرأ الحسن : تقية الله أى تقواه التى تكف عن المعاصى ، وهى حذر العقاب ومراقبة المحرمات ، ويجوز أن يراد بالإيمان والتصديق لشعيب فيما قال .

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ رقيب يجازيكم على أعمالكم ، بل منذر وناصح ، وقد أعذر من أنذر ، أو لست أحفظكم عن الوقوع فى المعاصى ، فاحذروا أنفسكم ما يهلككم ، أو لست أحفظ عليكم نعم الله عن الزوال إن لم تتركوا ما تزول به من الكفر والتطفيف والمعاصى ، والمشهور الوجه الأول ، فقالوا عليه : إن شعيبا قال لهم ذلك ، لأنه لم يؤمر بقتالهم ، وليس بلازم لجواز أن يقول ذلك ، ولو أمر به ، وكان عليه السلام كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه صلى تغامزوا وتضاحكوا ، ويقولون : ما ذكر الله عنهم بقوله :

﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك ﴾ باستفهام التهكم والسخرية ، أو التوبيخ والإنكار ، والجمع لكثرة صلاته ، كأنهم قالوا : أصلاتك التى تداوم عليها ليلا ونهارا ، وقرأ حفص ، وحمزة ، والكسائى أصلاتك

بالإفراد ، وكان أكثر الأنبياء صلاة ، قال الحسن : لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة ، وقيل : المراد بالصلوات الدعوات ، وكان كثير الدعاء .

وقال الأعمش : المراد القراءة والدعاء ، وقيل : قالوا أدينك فذكر الله عنهم أصلواتك ، فإن الصلاة من أعظم شعائر الدين وفيه بعد (تأمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ) معلوم أن الإنسان لا يؤمر بترك فعل غيره ، أو بفعل عين فعل غيره ، وإنما يترك الفعل ذلك لغير الفاعل له ، ولكن المراد تأمرك بتكليفك إيانا أن نترك ، أو بتكليف أن نترك (ما يعبُدُ آباؤنا) أي عبادة ما يعبده آباؤنا من الأصنام .

(أنْ نَفْعل في أمْوالنا ما نَشاءُ) من التطفيف والقطع من الدرهم والدينار وصنعها ناقصة ، والتدليس فيها وإجراءها مع الصحيحة النصيحة ، وبخس أموال الناس ، والعطف على ما ، أي أو أن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا لا على قوله : « أن نترك » لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون إلا على قراءة ابن أبي عبلة ، تفعل وتشاء بالتاء فيهما خطابا لشعيب ، فالعطف على قوله : « أن نترك » أي أو تأمرك أن تفعل ما تشاء في أموالنا من تحريم التطفيف فيها والبخس ، وإنما أسندوا الأمر للصلاة تهكما بها .

وكان من عادة الناس إذا أكثر الرجل فعل شيء جعلوا ذلك الشيء آمره وناهيه ، ولأن من رغب في رتبة من خير أو شر تدعوه تلك الرتبة

إلى التزيد من ذلك النوع ، فكأنهم قالوا : لما خالفتنا بالصلاة ، تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا ، فكأن صلاته جسَّرته على ذلك ، وأمرته بـه أمرا باطلا لا يدعو إليه عقل ، بل أمـر وسوسة من الشيطان ، وهذيان وجنون ، كما يتولع المجانين والموسوسون ببعض الأقوال من الأفعال .

(إنكَ لأنتَ الحَليمُ الرَّشيدُ) فينا موسوما بذلك ومشهورا ، فكيف صدر منك الأمر بترك عبادة الأصنام ، وترك التصرف فى أموالنا بما نشاء ، وخالفت دين قومك ، وشققت عصاهم ، فهـذه الجملـة تعليل للإنكار الذى يفيده قولهم : أصلواتك ، ويحتمل أن يريدوا بها التهكم به ، ووصفه بضدها ، فالمراد السفيه الغاوى ، كما يقال للجبان : لو أبصرك عنترة لمات جبناً ، وللشحيح : لو أبصرك حاتم لسجد لك ، أو لاستبخل نفسه .

وقال ابن عباس : المراد السفيه الغاوى أولا بطريق التهكم ، بل بطريق تسمية العرب الشىء باسم ضده ، كما يقال للديغ سليم ، وللفلاة المهلكة مفازة ، وكأنهم تفاءلوا له بالحلم والرشد ، وهو عندهم خارج عنهما ، وهذا محتمل فى المثالين ، أو أرادوا أنك حليم رشيد فى زعمك ، فكيف تدعونا إلى ترك ما وجدنا عليه آباءنا ، والتصرف فى أموالنا بما نشـاء .

(قالَ يا قَوْم أرأيتُم إنْ كُنتُ عَلى بيِّنةٍ) بيان بالعلم والنبوة والهداية (مِنْ ربِّى ورَزَقنى منهُ رِزْقاً حَسَناً) مالا حلالا ، وكان كثير المال والنعمة طيبهما ، لا بخس ولا تطفيف ، وزعم بعض أن البينة

البصيرة ونور العقل ، ولا بأس بهذا وأن الرزق الحسن النبوة والحكمة والمعرفة والعلم ، وفي هذا ضعف ظاهر ، إلا إن أريد أن ذلك سبب الرزق الحسن في الدنيا والآخرة .

وإنما قال منه على معنى من عنده تعالى وأعانه بلا كد مني في تحصيله ، وجواب الشرط محذوف تقديره ، فهل يسعني أن أخالفه وأتبعكم مع هذا الإنعام الجامع لخير الدنيا والآخرة ؟ ومتعلق أرأيتم بمعنى أخبروني هو مجموع الشرط والجواب ، ويجوز كون الجواب مدلولا عليه بأرأيتم ، وذلك المقدر متعلق أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة منه ، فأخبروني هل يسعني أن أخالفه ؟ وإنما حذف هل يسعى الخ سواء جعل جوابا أو متعلق جواب ، لدلالة إثبات الجواب في قصتي نوح وصالح على مكانة ، ولتدل معنى الكلام عليه ، وذلك الكلام من شعيب مراعاة حق الله تعالى ، وهو أهم الحقوق وأعلاه ، ولذلك بداية قبل .

وأشار إلى حق النفس بقوله : (وما أريدُ أنْ أخالفَكُم إلى ما أنْهاكُم عَنْهُ) من الإشراك والتطفيف وغيرهما ، أي لست أنهاكم عن ذلك لأفعله أنا ، وأختص به ، فإنه لا خير فيه لي ولا لكم ، وإنما أنهاكم نصيحة لكم ، وشفقة عليكم ، ولو كان صوابا لفعلته ولم أختص به ، بل آمركم به لكمال نصحي لكم ، وشفقتي عليكم ، يقال : خالفت زيدا أني كذا إذا قصدته ، وأدبر عنه وخالفته عنه في العكس ، ويحتمل أن يكون ذلك مأخوذا من خلفه ، بمعنى وراءه ، لأنك قصدت إلى ما تركه زيد وراء ظهره ، أو تركت ما قصد إليه وراء ظهرك .

وأشار قبل إلى حق الناس بقوله : (إنْ أريدُ إلاَّ الإصْلاحَ ما استَطعتُ) أى مدة استطاعتى ، فما ظرفية مصدرية ، أى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصحى مدة استطاعتى الإصلاح ، وتمكنى منه لا أقصر فى ذلك كما تقتضيه الحقوق الثلاثة المذكورة ، والمصدر ظرف زمان بنيابته عن المدة ، كما رأيت متعلق بأريد ، قيل : أو بأداة النفى وهو أصح من حيث المعنى .

ويجوز أن يكون ما اسما واقعا على المقدار بدلا من الإصلاح بدل اشتمال ، أى المقدار الذى استطعته من الاستطاعة ، أو المقدار الذى استطعت إصلاحه ، وحذف المضاف ، وإن قدرنا المقدار الذى استطعته من الإصلاح كان بدل بعض واسما واقعا على المقدار ، على تقدير مضاف قبلها ، أى إصلاح ما استطعت ، فيكون البدل اشتماليا أو بعضيا كذلك ، ويجوز كونها مفعولا للإصلاح ، فيكون ذلك من إعمال المصدر المقرون بإلا ، أى لا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فسادكم أو من فاسدكم .

(ومَا تَوفيقى إلاَّ بالله) إلى الحق (عليْهِ توكَّلتُ) لأنه القادر دونكم ودون ما تعبدون ، وذلك إشارة إلى محض التوحيد ، وكذلك قوله : (وإليْه أنيبُ) أى أراجع فى أمورى كلها ، لا أعمل بما يخالف ، وإن أراد بالإنابة الرجوع بالبعث ، فهو إشارة إلى معرفة المعاد بعد الإشارة إلى أقصى مراتب العلم بالمبدأ وهو التوحيد ، وهذه ثلاث جمل : الأولى : حصرية بإلا ، والثانية والثالثة : بتقديم المعمول ، وذلك تأكيد للتوحيد ودين الله ، وإقناط من اتبعهم وفى الإنابة بمعنى

الرجوع بالبعث تهديد بالجزاء ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا قال : « ذلك خطيب الأنبياء » كما مرّ فى الأعراف ، وأما قوله : « إن أريد إلا الإصلاح » فإظهار لمحض النصح لهم كما مر ، ونفى للجبر على الطاعة ، وياء توفيقى مفتوحة عند نافع ، وابن عامر ، وأبى عمرو واو ساكنة عندهم على الإصرار .

(ويا قَوْمِ لا يجْرِمَنَّكُم) لا يكسبنكم من جرم المتعدى لاثنين ، فإنه تارة يتعدى لهما ، وتارة لواحد ، وكذا كسب الأول الكاف ، والثانى أن يصيبكم ، وقرأ ابن كثير بضم الياء على أنه من أجرم المتعدى لواحد ، تعتدى بالهمزة إلى آخر ، يقال : أجرمه زيد ذنبا إذا جعله جارما ، أى كاسبا له ، كما يقال : أكسبته مالا أى جعلته كاسبا له ، وقيل : والأفصح استعمالهما الثلاثيين عند التعدى لاثنين ، لأنه أكثر استعمالا فى ألسنة الفصحاء ، وأما أجرم بمعنى أذنب وهو رباعى فهو الأكثر ، والنهى فى اللفظ الشقاق فإن قوله : (شِقَاقى) أى مخالفتى فاعل ، وفى المعنى للمخاطبين عن الشقاق ، أى لا تشاققونى فيجرمنكم شقاقى .

(أن يُصِيبَكُم مِثْلُ) فاعل يصيب ، وقرأ أبو حيوة بالفتح على البناء للإبهام مع الإضافة المبنى ، وهو رواية عن نافع ، والمشهور عنه الرفع ، وقال ابن مالك : مثل لا تبنى بالإضافة لمبنى ، لأنها تخالف سير المبهمات ، لأنها تثنى وتجمع ، وجعل مثل فى قراءة الفتح مفعولا مطلقا ، وفاعل يصيب ضمير الله تعالى ، وجعل مثل فى : « إنه لحقٌ مثل ما أنكم تنطقون » حال من ضمير مستتر فى حق ، على أنه اسم فاعل حذف ألفه ، وضعف ابن هشام ذلك .

(ما أصابَ قَومَ نوحٍ) من الغرق (أو قَومَ هُودٍ) من الريح (أو قَومَ صَالحٍ) من الصيحة (وما قَومُ لوطٍ منكُم ببَعيدٍ) فى الزمان ، فإنهم أهلكوا فى زمان قريب من زمانكم ، وهم قرب الهالكين منكم ، أو فى المكان ، وذلك أن قوم شعيب جيران لقوم لوطٍ ؛ وبلادهم قريبة من بلادهم ، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم فاعتبروا بهم ، أو فى الكفر والمعاصى ما يوجب الإهلاك ، بل قد قاربتموهم ، أو ساويتموهم ، فوجب لكم من الهلاك مثل ما وجب لهم جنسا أو نوعا ، والباء صلة للتأكيد ، وبعيد خبر ما ، وأفرد بجواز استعمال القوم استعمال المفرد المذكر ، والمفرد المؤنث ، هو الجمع ، فانظر حاشيتى على المرادى فى باب العدد ، أو لأن التقدير لشىء بعيد ، أو التقدير ما زمان قوم لوط أو ما مكانهم أو ما إهلاكهم ، ولأن بعيدا فعيل بمعنى فاعل يجوز أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، لأنه بوزن المصدر كالذميل والصهيل ، ويجوز كون الباء ظرفية أى فى مكان بعيد فلا إشكال فيه .

(واستَغفِرُوا ربَّكم) من عبادة الأصنام بأن توحدوا الله (ثمَّ توبُوا إليهِ) من النقص فى الكيل والوزن ، ومن التطفيف ، وفى الآية ما مر فى مثلها ، والذى عندى أن المراد ، والله أعلم ، فى الآية ومثلها بالتوبة إلى الله والإقبال إلى الله سبحانه بأداء الفرائض ، وترك المعاصى ، لا التوبة عما مضى ، لأن المشرك إذا أسلم غفرت ذنوبه التى قبل الإسلام كلها ، إلا إن أريد بالتوبة عنها بعضها ، والعزم على أن لا يعود بمثلها .

(إنَّ ربِّى رَحيمٌ) لمن تاب (وَدُودٌ) أى كثير الحب له ، والمراد إكثار اللطف به ، والإحسان له كما يفعل المبالغ فى المودة ، وهذا وعد

على التوبة ، وكل من الصفتين تفيد مبالغة ؛ أما رحيم فهو صفة مبالغة من رحم المكسور الحاء الذى اسم فاعله راحم ، أو صفة مشبهة ، ورحم بضم الحاء المنقول من المكسور للمبالغة ، وأما ودود فصفة مبالغة من الود بمعنى المحبة ، والمراد اللطيف والإحسان كما مر ؛ وقيل : معناه كثير الرضا عن التائب ، والإحسان إليه ، والمدح له ، وأجاز بعضهم أن يكون المعنى أنه يحبب التائب إلى الخلق ، قلت : إنما يصح هذا بطريق اللزوم ؛ من حيث إنه إذا أحبه أدخل حبه فى القلوب لا بطريق المطابقة إذ لم يقل مودد بكسر الدال بعد الواو وتشديدها ، ويجوز أن يكون فعولا بمعنى مفعول أى مودود ؛ فيكون كناية عن فعله ما يحبه به الخلق .

(قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ) ما نفهم (كَثيراً مما تقُولُ) كوجوب التوحيد ، وحرمة التطفيف ، والبخس ؛ يريدون أنهم لم يفهموا صحة ذلك لعدم ذكره دليلا عليه ، وذلك لقصور عقولهم بمعاصيهم وقسوتها ، وعدم تفكرهم حتى جعلوا دلائله عدما ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما تقول ، لمن لم تعبأ بكلامه : ما أدرى ما تقول ، أو زعموا أن كلامه لا يفهم كثير منه ، كهذيان وتخليط كذبا وعنادا ، أو لم يفهموا ذلك منه حقيقة إذا لم يلقوا إليه أذهانهم رغبة عنه ، وكراهية له .

وزعم بعض أنه كان ألثغ ، وهو من لا يميز الحروف ، كمن يضرب لسانه من الثاء إلى السين ، أو من الراء إلى اللام ؛ ومن حرف لآخر .

(وإنَّا لَنَرَاكَ فينا ضَعيفاً) لا قوة لك ولا عز تمتنع بهما عنا لو أردناك بسوء ، وقال الحسن ، وأبو روق ، ومقاتل : يعنى ذليلا

مهينا ، وقال ابن عباس ، وقتادة : كان أعمى ، وكذا قال الزجاج قائلا : إنه يقال : إن حميرا يسمون الأعمى ضعيفا كما يسمى ضريرا ، وذلك ضعيف ، لأن حمل القرآن على لغة قريش أولى وأحق ، ولأنه لا يناسب المعنى المراد ، ولأن قوله : « فينا » ينافيه ، لأنه يقال : فلان فينا ذليل أو حقير أو مهين أو نحو ذلك ، ولا يقال : فلان فينا أعمى أو أعور أو مريض ، ولا يقال ذلك إلا لنكتة ، وإلا كان كلاما ضعيفا ، وكذلك يرد على القول ، فإن الضعيف ضعيف البصر •

ولعل مراد صاحبى القولين بيان بعض ما به وصفه بالضعف ، فلا إشكال ، ولا يتأتى هذا فى كلام الزجاج : وأما كون الرسول أعمى أو أزمن فلا يجوز الآن حدث ذلك له بعد التبليغ ، وإظهار المعجزة كذا نقول نحن ، والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والحنفية ، والمعتزلة ، إلا أن قياس المعتزلة ذلك على القضاء والشهادة غير مقبول لوجود الفرق بأن القضاء يحتاج فيه إلى رؤية المقضى فيه وله وعليه ، والشهادة يحتاج فيها إلى رؤية المشهود عليه ، وقيل : الضعيف العجز عن الكشف ، والتصرف ، قيل : ويدل على صحة القول الأول قوله :

﴿ ولولا ﴾ إلى آخره ، ويبحث فى هذا الاستدلال لأنه هذا أيضا يناسب العمى وضعف البصر والعجز عن الكشف والتصرف ، فإن من فيه بعض ذلك سهل القتل ، وإنما يمتنع من قتله لأجل رهطه مثلا (رهطك) قومك من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة ، وقيل : رهطه عشيرته مطلقا •

(لَرَجَمْنَاكَ) بالحجارة حتى تموت وهو شر القتلية أو لقتلناك بأصعب وجه برمى حجارة أو غيره ، وهذا ظاهر جار الله ، أو المراد مطلق القتل ، وقيل : اللعن والشتم وإغلاظ القول ، قلت : أو الهجران أو الطرد ، وكل ذلك وارد فى الكلام يقبله المقام ، والأول أظهر ، وليس تركهم الرجم بخوفهم من رهطه لقلة رهطه كما مر ، أو لأنهم ولو كانوا عشيرة كثيرة لكنهم أكثر ، بل تركوه لعزة الرهط بكونهم على دينهم ، لم يختاروه ولم يتبعوه .

(وما أنتَ علينا بعزيزٍ) أى وما أنت غاليا علينا ، أو كريما متقدسا عن الرجم ، وفى إيلاء المسند إليه حرف النفى دلالة عـلى أن الكلام فيه لا فى المسند وهو العزة ، لأن ما لنفى الحال ، والحال مختص بالزمان ، فالأصل أن يليها فعل ونحوه مما يدل على الزمان ، ولكن لو قيل : ما عززت لتوهم أن النزاع فى مجرد ثبوت العزة له وعدمه ، مع أن المراد نفيها عنه ، وإثباتها لرهطه ، وحيث وليها اسم ، ولاسـيما الضمير ، دل على أن التقديم بالاهتمام ، فكأنهم قالوا : بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال عليه السلام فى جوابهم :

(قالَ يا قَوْمِ أرهطِى) بفتح الياء عند نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن ذكوان ، وإسكانها عند غيرهم (أعزُّ عليكم منَ اللهِ) أغلب وأكرم ، وفسره بعضهم بأهيب وهو ضعيف لبناء اسم التفضيل ، وهو أهيب من المبنى للمفعول ، فيسرى الضعف من جهة المعنى لكونه مأخوذا من المبنى للمفعول ، وهذا إنكار منه وتوبيخ ، أورد وتكـذيب

لأمرهم ، حيث قابلوا الحجج بالسب والتهديد كما هو عادة السفيه المغلوب بالحجة ، وحيث أبقوا عليه لرهطه ، ولم يبقوا عليه لله ، مع أنه العزيز دون الرهط ، وإنما لم يقل أعز عليكم منى ، إشارة إلى أن تهاونهم به تهاون بالله ، وأن الله المنتصر له إذ هو رسوله قائل عنه •

(واتَّخذْتُموه) أي الله (وَرَاءكُم ظِهْرِيًّا) جعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر ، لا يعبأ به ، إذ أشركتم بـه ، وأهنتم رسوله ، وخالفتم أمره ، هذا هو الواضح ، وعليه الجمهور ، وقال قوم : المعنى أنكم اتخذتم الله سند ظهورهم ، وعماد آمالكم ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألجأت ظهرى إليك » وظهريًّا حال مؤكدة منسوب إلى الظهر بالفتح ، ولكنه غير فى الكسر فى النسب ، كما يقال : إمسى بكسر الهمزة فى النسبة إلى الأمس بفتحها ، ويجوز أن يكون مفعولا آخر من تعدد المفعول الثانى كما يتعدد الخبر ، وهو أيضا مؤكد •

(إنَّ ربِّى بما تَعْمَلونَ مُحيطٌ) علما لا يخفى عنه شىء فهو مجازيكم •

(ويَا قَوْمِ اعْمَلُوا على مَكانتِكُم) جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والمعاصى وعداوتى ، فهو تأنيث المكان بمعنى الموضع ، أو على تمكنكم وقوتكم فى ذلك ، فهو مصدر مكن الثلاثى ، وقيل : على حالتكم ، وذلك أمر تهديد وتخويف بالعذاب إن تثبتوا على دينهم ، وقرأ أبو بكر مكاناتكم بالجمع •

(إنِّى عامِلٌ) على مكانتى (فَسوفَ) أدخل الفاء فى الأنعام تنبيها على أن ما بعدها مسبب عن الإصرار على العمل على مكانتهم ، ولم يدخلها هنا لأن ما هنا جواب سؤال ، كأنه قيل : فماذا يكون إن عملنا على مكانتنا وعملت ، وللتفنن فى العبادة والبلاغة ، والتجريد فى الاستئناف البيانى كما هنا أبلغ فى التهويل ، لأنه استئناف محض .

(تعلَمونَ مَنْ يأتيهِ عذابٌ يُخْزيهِ) من مفعول لتعلمون بمعنى تعرفون ، وهى موصولة ، ويجوز أن تكون استفهامية مبتدأ خبرها الجملة بعدها ، والمجموع مفعول ليعلم باقيا على بأنه ساد مسد مفعولين للتعليق (ومَنْ هوَ كاذِبٌ) فى قوله عطف على من يأتيه عذاب يخزيه ، ففى هذا أيضا الوجهان الوصل والشرط ، وكل من إتيان العذاب المخزى والكذب متعلق بهم ، وعائد إليهم ، ولكن جاء بهما على طريق المجازاة والتوبيخ ، كأنه قال : ستعلمون من هو معذب مخزى وكاذب أنا وأنتم ، أو الأصل ومن هو صادق ليطلق العذاب المخزى بهم ، والصدق به ، لكن لما ادعوا كذبه عبر بما ادعوا فكأنه قال : ومن هو كاذب فى زعمكم .

(فارْتَقبُوا) انتظروا عاقبة أمركم (إنِّى مَعَكُم رَقيبٌ) منتظر ، وهو فعيل بمعنى مفاعل ، فمعناه مراقب كجليس بمعنى مجالس ، أو فعيل بمعنى مفتعل ، فمعناه مرتقب وهو أنسب لقوله : ارتقبوا كالرفيع بمعنى المرتفع ، والواضح عندى الوقف على أنى عامل ، ثم على رقيب ، وزعم بعضهم أن الوقف على رقيب .

(ولمَّا جَاءَ أمْرنا نجَّيْنا شُعَيباً والّذينَ آمنُوا مَعَهُ برحْمَةٍ منَّا) ذكره هنا وفى قصة عاد بالواو ، وفى قصتى صالح ولوط بالفاء ؛

لأنه لم يكن ذلك هنا ، وفى قصة عاد بعد ذكر الوعيد فناسب الواو ، بخلاف قصتى صالح ولوط فذكر ذلك فيهما بعد ذكر الوعيد بقوله : « وعد غير مكذوب » وقوله : « إنّ موعدهم الصبح » فناسب الفاء التى تجىء للسببية .

(وأخَذَت الَّذينَ ظَلَمُوا) أنفسهم وغيرهم بالشرك والتطفيف وغير ذلك (الصَّيحَة) صاح بهم جبريل من فوقهم صيحة خرجت بها أرواحهم .

قال ابن عباس : لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب فأخذتهم من فوقهم ، لم يقل وأخذت قومه الصيحة ليصفهم بالظلم الواجب للأخذ ، كما وصف الناجين بالإيمان الموجب للنجاء ، وليقابل الإيمان الخالص من الظلم بالظلم الشامل للشرك والمعصية .

(فأصْبَحوا فى ديَارهم جَاثمينَ) باركين على الركَب ميتين ، قيل : أصل الجثوم لزوم المكان كاللبود .

(كأنْ لَم يغْنَوا فِيهَا) كأنهم لم يلبثوا فى ديارهم قط ، وذكر بعض أن المغنى فى المكان اللبث فيه بنعمة وخفض عيش (ألاَ بُعداً) هلاكا كالبعد بفتح الباء والعين ، وهما من بعد بكسر العين بمعنى هلك ، فالبعد بالضم والإسكان مشترك بين بعد كعلم بمعنى هلك ، وبعد ككرم نقيض قرب ، أو للبعد بفتحتين مختص بالأول وهما مصدران ، وأصل الفعلين واحد وهو نقيض القرب ، لكن ميزوا البعد الموجب للهلاك بالكسر

فى الفعل ، ثم استعمل فى نفس الهلاك ، أو البعد من جهة الهلاك ، فإن الهالك لا يرد كلاما ويتفتت ويغيب بالدفن فلا يرى •

(لمدْيَن) لأولاد مدين ، أو للقبيلة المسماة باسمه ، أو لأهل القرية المسماة باسمه (كَما بَعُدَتْ) هلكت ، وقرأ السلمى وأبو حيوة بعدت بضم العين على الأصل اعتبارا لمعنى البعد من غير تمييز للهلاك ، كما يقال : ذهب فلان ومضى فى معنى الموت •

وقال ابن الأنبارى : من العرب من يسوى بين الهلاك والبعْد الذى هو ضد القرب فيقول فيهما : بعُد يبعُد ككرم يكرم ، وبعِد يبعَد كعلم يعلم ، وقيل : المعنى : ألا بعداً لمدين من رحمة الله ، كما بعدت ثمود منها ، ولا يدعى بالبعد نقيض القرب ، إلا على مبغض ، وشبه هلاك قوم شعيب بهلاك ثمود لأنهما [هلكا] بالصيحة كما مر •

(ولَقَدْ أرْسَلْنا مُوسَى بآياتِنا) التوراة (وسُلْطانٍ) دليل قاطع وهو المعجزات كالعصا واليد ، والطوفان والجراد ، وغير ذلك (مُبِينٍ) واضح ، فهو من أبان القاصر ، أو موضح لما يدعيه من النبوة وغيرها ، فهو من أبان المتعدى ، أو الآيات المعجزات ، والسلطان المبين العصى ، خصت لأنها أشهر ، أو الآيات التوراة ، والسلطان العصى ، خصت بالذكر لذلك ، أو الآيات مطلق المعجزات ، والسلطان المبين المعجزات الباهرة ، فإن الآية تعم الأمارة والدليل القاطع ، والسلطان يخص الدليل القاطع ويسمى حجة ، لأن صاحبه يحج من خاصمه ، أى يقطعه ، قيل : سمى السلطان حجة لأنه حجة لله فى أرضه ، ويجوز أن يراد بالآيات والسلطان شىء واحد فى ذاته ، ولو اختلفت صفتاه ، أى أرسلناه بما هو علامة على صدقه حجة قاطعة عليه ، وهو التوراة ، أو

المعجزات ، أو ذلك تجريد بديعى ، كأنه جرد من الآيات الحجة وجعلها غيرها وعطفها عليها وهى هى •

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا) أى الملأ (أَمْرَ فِرْعَوْنَ) الذى هو الشرك والمعصية مع ظهور فساده ، أو امتثلوا أمره لهم بالكفر لموسى ، وما جاء به مع ظهور أنه الحق ، لشدة جهلهم ، وعدم تفكرهم كما قال •

(وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) فإن من اتبع من أمره غير صالح جاهل ، ولا سيما فرعون ، فإن أمره ظاهر الفساد لكل من له قليل عقل ، فإنه بشر مثلهم ادعى الربوبية فقبلوها ، وأعرضوا عما جاء به موسى ، مع علمهم بأنه الحق ، والرشـيد الصالح السـديد فى نفسه ، وقيل : المرشد إلى الخير ، وأمر فرعون ضلال مضل عاقبته غير محمودة •

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ) يسبقهم إلى النار (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) كما كان فى الدنيا قدوة لهم فى الكفر متبوعا ، وكما تقدمهم يوم البحر فاتبعوه حتى أغرقوا (فَأَوْرَدَهُمْ) جعلهم واردين (النَّارَ) أى داخليها ، جعل تقدمه إلى النار بالقهر ، واتباع قومه له على القهر حتى يدخلوها كإرادة لهم إليها قهرا منه ، كما كان يقهرهم فى الدنيا ، فسماه موردا لهم أى مدخلا إياهم فيها ، والمعنى قيودهم النار ، أو ذكر بلفظ الماضى لأنـه لابد منه ، فكأنه قد وقع ، ويجوز أن ينزل النار لهم منزلة الماء ، فسمى إتيانها ورودا وإتيانها واردا ، والمتقدم موروداً بضم الميم ، شبهه بالذى يتقدم الناس إلى الماء ليهيئه لهم ، فهو مورود لهم ، وهم بعده واردون •

(وَبِئْسَ الْوِرْدُ) مصدر أى الورود (الْمَوْرُودُ) نعت توكيد كليلة ليلاء ، وذلك نوع من نعت التأكيد ، كقولك : القيام الذى قمت ،

وقد كان يغنى ذكر القيام ، فكأنه قيل : الورد الذى وروده ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى وردهم ، فإن الورود وصول الماء لتسكين حرارة العطش ، ووردهم هذا ورود نار تلتهب بها الأكباد ، أو بئس الدخول الذى دخلوه هو .

ويجوز كون المخصوص المورود على الوجهين ، أى بئس الورد هو الذى وردوه ، ويجوز أن تجعل المورود بمعنى المكان المدخول أو المقصود للماء ، فيجعل هو المخصوص ، أو يقدر المخصوص غيره ، ويجعل هو نعتا ، ولابد على ذلك من تقدير مضاف ، أى بئس مكان الورد هو المكان الذى وردوه ، أو بئس فكل الورد الذى وردوه هو النار .

ويجوز أن يكون الورد جمع وارد ، كالوفد جمع وافد ، والمورود نعت على لفظه بطريق الحذف والإيصال ، والمخصوص محذوف ، أى بئس القوم الواردون والمورود بهم هم ، ومجموع يقدم قرمه الآية إيضاح لقوله : « وما أمر فرعون برشيد » على أن معناه ما أمره محمود العاقبة أو استدلال عليه ، فإن من هذه عاقبته لا يكون أمره رشدا كقولك : زيد خاسر يبيع ما قيمته عشر دنانير بدينار .

(وأتْبِعُوا فى هَذِهِ) أى فى الدنيا (لَعنةً) مفعول أول ، والثانى نائب الفاعل ، فهذا من إنابة الثانى من باب أعطى ، أى جعل الله الرسل والملائكة وغيرهم اللعنة تابعة لهم ، لأنها الفاعل فى المعنى .

(ويَومَ القِيامَةِ) عطف على مجموع الجار والمجرور من حيث إنهما بمنزلة ظرف منصوب ، كأنه قيل : وأتبعوا اليوم لعنة ، ويوم القيامة لا على اسم الإشارة من حيث إنه معمول نفى ، لأنه لم يخفض

يوم ، ولا من حيث إنه مفعول به لا لأتبعوا ، توصل إليه بحرف الجر ، لأن أتبعوا لا ينصب محله فى الفصيح بلا واسطة فى ، وأجاز الفارسى العطف على اسم الإشارة من حيث إنه مفعول لأتبعوا بواسطة فى ، كما حكاه عنه ابن هشام ، وعلى كل حال أتبعوا لعنة فى الدنيا ، ولعنة فى الأخرى من الله وغيره ، فالأصـــل ويوم القيامة لعنة ، فحذفت لدلالـــة الأولى ، أو المراد بالأولى ما يشملهما معا .

(بِئْسَ الرِّفْدُ) العطاء (المَرْفُوْدُ) المعطى نعت توكيد ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى رفدهم أو اللعنة ، شبه اللعنة المسندة إليها لعنة أخرى بالعطاء المسند إليه عطاء آخر ، أو المرفود هو المخصوص ، ويجوز أن يكون المعنى بئس العون المعان ، وأصل الرفد ما يضاف لغيره ليكون له عمدة ، فلعنة الدنيا عمدة للعنة الآخرة ومدد لها .

(ذَلِكَ) النبأ المذكور عن تلك القرى وأهلها (مِنْ أَنْبَاءِ) أخبار (القُرَى) أى بعض من كثير ، فإن الأمم المهلكة كثيرة (نَقُصُّهُ عَلَيْكَ) يا محمد (مِنْهَا) أى من القرى المهلك أهلها (قَائِمٌ) أى بلد أو نوع قائم كالنبات غير المحصود ، أهلكنا أهله وبقى هو (وحَصِيدٌ) أى بلد أو نوع مهدوم موضوع على الأرض ، باقى الأثر مرىء كالنبات المحصود بالمنجل المتروك فى موضعه ، وقد أهلك أهله معه ، أو مهدوم مندرس غير باق فى موضعه ، كالنبات المحصود المرفوع عن موضعه ، فلا يرى ولا أثره ، لجريان الأزمن عليه ، والمراد بقائم وحصيد الخفس ، وذلك تهديد لكفار مكة وغيرها ، والجملة مستأنفة لا حال من هاء نقصه إذ لم تربط بالضمير ولا بالواو .

(ومَا ظَلَمْنَاهُمْ) بإهـــلاك (وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) بعمل

موجب الإهلاك من الشرك والمعصية (فما أغْنَتْ عَنْهم آلهتُهم) أصنامهم (الَّتى يدْعُونَ) يطلبونها حوائجهم ، أو يعبدونها ، والمضارع لحكاية الحال الماضية (مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شىءٍ) أى شىء ، أى أغنياء فزيدت من فى المفعول المطلق ، أو ما دفعت عنهم شيئا من العذاب فزيدت فى المفعول به ، وظاهر ابن هشام واختيار أنها لا تزاد فى المفعول المطلق ، والذى يقول إنها تزاد فيه .

(لمَّا جاءَ أمْرُ ربِّكَ) الذى هو عذابه ، أو أمره بالعذاب (وما زادُوهُم غَيْرَ تَتْبيبٍ) أى تخسير وهو مصدر من مضاعف تب بمعنى خسر ، وفسره الحسن بالتدمير والماصدق واحد ، وكذا تفسيره بالإهلاك .

(وكَذلكَ) خبر ، أى ومثل ذلك الأخذ ، أو ثابت كذلك (أخْذُ ربِّكَ) مبتدأ ، وقرىء أخذ بفتح الهمزة والخاء والذال ، ورفع ربكَ ، فيكون كذلك مفعولا مطلقا أى أخذ ربك أخذا ثابتا كذلك ، أو مثل ذلك ، ومفعول أخذ محذوف أى أخذ القرى .

(إذا أخَذَ القُرَى) أى إذا أراد أخذها ، والمراد أهلها ، وقرىء إذ بإسكان الذال لأن المعنى على المضى ، وأما قراءة الجمهور فعلى حكاية زمان يكون إهلاك القرى مستقبلا بالنسبة إليه ، والمراد أنه يفعل بمن هو غير ماض ما فعل بمن مضى .

(وهىَ ظَالِمَةٌ) حال من القرى مربوطة بالواو والضمير ، والظلم صفة لأهلها ، وصفت لأنهم فيها ، وقد أقيمت مقامهم فى قوله : « إذ أخذ القرى » فأجريته الصفة عليها هنا أيضا ، وفائدة هذا الحال بيان أن موجب الإهلاك الظلم ، وهو حكم مستمر يعم المشرك والموحد الظالم

لغيره أو لنفسه ، باقتراف الذنب ، فيجب على من صدر منه ظلم لنفسه أو لغيره أن يبادر التوبة •

(إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَدِيدٌ) لما يتخلص منه ، قال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفعله » ثم قرأ : « وكذا أخذ ربك » الآية ، وقيل : المراد فى الآية بالظلم الشرك ، ويحمل عليه سائر الظلم ، بدليل هذا الحديث ونحوه ، بل ظاهر الحديث ، وذكر الآية فيه يقوى أن الظلم فى الآية الشرك وغيره ، ودلالة قراءة الجمهور على استمرار الحكم أقوى ، بل قيل : قراءة غيرهم لا تفهمه أصلا ، بل يقال به حملا من خارج •

(إنَّ فى ذلكَ) المذكور من أنباء القرى ، أو فيما نزل بالأمم الماضية ، أو فى أخذهم (لآيةً) علامة (لمنْ خَافَ عَذابَ الآخرَةِ) يريد بها تقوى وخشية ، ومباعدة عن موجبات الإهلاك ، ويعلم أن ما نزل بهم قليل مما أعد لهم فى الآخرة ، أو علامة لمن سبق فى علم الله أنه يخاف عذاب الآخرة فيؤمن بسببها ، ويعلم أن ذلك فعل للمختار المريد تعالى ، ينزل بسبب الذنب لا لأسباب فلكية اتفقت فى تلك الأيام ، كما يزعم من أنكر الآخرة وفناء العالم •

(ذَلكَ) أى يوم القيامة لتقدم ذكره ، ولدلالة لفظ الآخرة ، ولدلالة السياق اللاحق أيضا (يَومٌ مجْموعٌ لَه) أى فيه أو لهوله (النَّاسُ) نائب مجموع ، وعبر باسم المفعول لا بالمضارع المبنى للمفعول للدلالة على الثبوت فى الجمع ، وأن اليوم متصف بالجمع لا محالة ، وأن الناس لا ينفكون عنه •

(وذلكَ يَومٌ مشْهودٌ) يشهده أهل السموات والأرض ، والأصل مشهود فيه ، أى يشهد فيه الخلائق الموقف ، لا يغيب عنه أحد ، ثم كان الحذف والإيصال ، وذلك لأن المراد وصف ذلك اليوم بالهول وتمييزه من بين الأيام ، كما يقال : شهد زيد العيد ، وشهد يوم الجمعة إذا حضر محل الاجتماع فهما ، وحضور الزينة ، ولو لم يقدر ذلك كان المعنى مجردا بوصف اليوم ، لأنه مشهود ، وكل يوم كذلك فلا يفيد تعظيم اليرم .

(وما نؤخرُهُ) أى اليوم (إلاَّ لأجلٍ) إلا انتهاء أجل ، فحذف المضاف ، وأريد بالأجل مجموع المدة أخرهـا لقومه (مَعْدودٍ) فإن أخرها غيره ، وقرأ وما يؤخره بالتحتية ، أى وما يؤخره الله ، ونكتة البناء للمفعول فى العد إبهام العدد ، والإشارة إلى أنه غير مبذول بل اعتنى الله سبحانه وتعالى به .

(يَومَ يأتِ) بإثبات الياء بالوصل عند نافع ، وأبى عمرو ، والكسائى ، وفى الوصل والوقف ابن كثير ، وحذفها ابن عامر ، وعاصم وحمزة اجتزأ بالكسرة ، حكى الخليل وسيبويه : لا أدرى بحذف الياء وهو كثير فى لغة هذيل ، وفاعل يأتى ضمير عائد للعذاب والله كقوله : « إلا أن يأتيهم الله » « أو يأتى ربك » و « جاء ربك » ويدل له قراءة يؤخر بالتحتية ، وقوله : « إلا بإذنه » فيقدر مضاف أى يوم يأتى أمره أو لليوم على أن يوم فى قوله : « يوم يأت » بمعنى الحين ، فلا يلزم جعل اليوم وقتا لإتيان اليوم ، وهو متعلق بتكلم من قوله :

(لا تكلَّمُ) على أنه لا صدر للا النافية غير العاملة ، والأصل لا تتكلم ، حذفت إحدى التاءين وهو مفعول لاذكر وعليه السعد

(نَفسٌ إلاَّ بإذْنِـهِ) هذا فى بعض المواقف ، وقوله : « يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم » فى بعض آخر ، أو المأذون فيه الجواب المحق ، والممنوع الجواب الباطل ، ذكر ذلك السعد ، كجار الله والقاضى ، فلا منافاة بين قوله : « لا تكلم نفس إلا بإذنه » وقوله : « لا يتكلمون إلا مَن أذن له الرحمن » وقوله : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » وبين قوله : « ويوم لا ينطقون » إلى آخره : والإذن فى الكلام أن يقال لهم : تكلموا ، أو أن يخفف عنهم بعض الأهوال فيستطيعون الكلام ، وزعم بعضهم أن المراد هنا بالتكلم الشفاعة •

(فمنْهُم) أى من النفوس ، لأن لفظ نفس لنكرة فى سياق النفى فعم ، أو من الناس لتقدم ذكر لفظ الناس ، أو من أهل الموقف لدلالة الكلام عليه (شَقىٌ) سبق له القضاء الأزلى ، لأنه من أهل النار لما سيعمله (وسَعيدٌ) سبق له القضاء الأزلى بأنه من أهل الجنة لما سيعمله قيل السعادة هى معاونة الأمور الإلهية ، والمسارعة لفعل الخير ، وتيسره ، وعن ابن مسعود : الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره ، وروى : السعيد من بطن أمه ، والشقى من بطن أمه •

وعن ابن مسعود : حدثنا الصادق المصدَّق : « أن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما مضغة ، ثم يبعث ملك فيؤمر أن يكتب رزقه وعمله ، وأثره ، وشقى أو سعيد ، والذى لا إله غيره ، إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار حتى يدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب بعمل أهل الجنة حتى يدخلها » وفى رواية : إن ذلك يكتب إذا وقعت النطفة فى الأرحام •

وعن على : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، يعنى مقبرة المدينــة زادها الله شرفا ، وكان فيها شجر يسمى الغرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فجعل ينكت ، أى يخط بها فى الأرض ، وهى ما يمسك باليد كالسوط والعصا ، ثم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لمــا خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل السعادة ، وأما من كان أهل الشقاوة فسيصير لعمل الشقاوة » ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » الآية .

وفى رواية كنا ببقيع الغرقد فى جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنــا ، فنكس رأسه وجعل ينكت فى الأرض فقــال : « ما منكم من أحد ولا من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها فى الجنة أو فى النار ، أو كتب سعيدة أو شقية » وهذا شك من الراوى ، فقال رجل : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا هذا وندع العمل ، فمن كان من أهل السعادة فيصير إليها ، ومن كان من أهل الشقاوة فيصير إليها ؟ فقال : « أما أهل السعادة فيصيرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقارة فيصيرون لعمل أهل الشقاوة » وتلا هذه الآية : « فأما من أعطى » إلى آخره .

وفى حديث آخر : « اعملوا ولا تغتروا فكلكم ميسر لما خلق له ، سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وصاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أى عمل » .

وظاهر الأحاديث والآية يدل أنه ليس هناك إلا شقى وسعيد ، وهو

كذلك ، وأصحاب الأعراف والأطفال سعداء ، ويرقف فى طفل غير المتولى مع أنه فى الحقيقة إما سعيد وإما شقى ، والآية من المحسنات البديعية المعنوية ، وهى من الجمع مع التفريق والتقسيم ، وذلك أنه جمع الأنفس فى عدم التكلم إذ قال : « لا تكلم نفس إلا بإذنه » ثم فرقهن إلى شقى وسعيد إذ قال : « فمنهم شقى وسعيد » ثم قسم بأن أضاف للشقى ماله وللسعيد ماله إذ قال .

(فأمَّا الَّذينَ شَقُوا) وقرأ الحسن بالبناء للمفعول من شقى المتعدى (فَفى النَّار) أى فهم فى النار (لَهم فِيها زَفيرٌ) إخراج النفس (وشَهيقٌ) رده كما قال مقاتل ، والضحاك ، وقتادة ، الزفير أول صوت الحمار ، والشهيق آخره إذا رداه فى جوفه ، وذلك لشدة كربهم لاستيلاءء الحرارة على قلوبهم ، وانحصار الريح فيها ، وفى التعبير بالشهيق والزفير تشبيه بأصوات الحمير .

وقال أبو العالية : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الجوف ، وقال ابن عباس : الزفير الصوت الشديد ، والنهيق الصوت الضعيف ، قيل : أصل الزفير ترديد الصوت فى الصدر حتى تنفتح منه الضلوع والشهيق رد النفس إلى الصدر ، وفى رواية عن أبى العالية : الزفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ، قال بعض المتأخرين هو الأظهر .

(خَالدِينَ فيهَا مادَامت السَّموات والأرضُ) وهن دائمات أبدا لا ينقطعن ، فهم خالدون فى النار أبدا ، لا يخرجون منها ، سواء المشرك ، والموحد المصر ، والمراد سموات الآخرة وأرضها ، تفنى سموات الدنيا وأرضها ، وتعقبها سموات الآخرة وأرضها ، وهى أرض الجنة ، وهى دائمة ولا يفنين ، قال الله سبحانه : « يــوم تبدل الأرض غــير

الأرض والسموات » وقال : « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » .

ويجوز أن يراد بالسموات طبقات الجو والعرش ، فجمع السماء نظر لأجزاء العرش ، فإن كل جزء منه سماء لما تحته ، أو المراد بالسموات ما يعلو أهل الجنة من سقوف حسان ، وأهل النار من طبقات النيران ، وبالأرض أرض الجنة وأرض النار .

وإن قلت : ذلك تشبيه بما لا يعرف ، وأكثر الخلق وجوده ودوامه ، ومن عرف ذلك فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعذاب ، فلا يجزى له التشبيه ؟

قلت : نكفى معرفة البعض بذلك كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيبين من عرف لمن لم يعرف ، بل لا نسلم أن ذلك تشبيه بما لا يعرف ، بل هو تشبيه ما لا يعرف بما يعرف ، إذ شبهت تلك الدار بهذه ، أو ثبتت لها ما لهذه من سماء وأرض ، ووجه الشبه أنهما جسمان ، وليس فى ذلك حكم بدوام هذه ، فضلا عن أن يقال : إثبات الدوام للمشبه به مبنى على عرف المشركين من العرب وعادتهم ونحوهم ممن يعتقد دوامها .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خلق الله السموات والأرض من نور العرش ، ثم يردهما فى الآخرة بعد فنائهما ، فلهما بقاء دائم ، وقيل : ذلك عبارة عن التأبيد كما تقول : لا أكلمك ما دام الجبل فى موضعه ، وفى قلبك قطع الكلام عنه ، ولو أزال الله الجبل من موضعه ، واختار الصفاقصى ما ذكرته أولا مستدلا بقوله سبحانه وتعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » والمراد ارتباط الدوام

فى النار ، بدوام السموات والأرض فى تلك الأقوال ، إلا القول الأخير ، وبل لو أريد الارتباط على هذا القول الأخير لم يلزم من زوال السموات والأرض زوال الأشقياء عن النار ، ولا من دوامهما فيها ، لأن المفهوم وهو هنا ما فهم من دوام تقييد بدوامهما ، لا يقوم المنطوق وهو سائر النصوص الدالة على تأييد دوامهم فيها لقوله هنا : « خالدين فيها » كما زعم بعض ، لأنه محل البحث •

(إلاَّ ما شاءَ ربُّكَ) أى إلا ما سبقهم به من دخل النار قبلهم قاله الشيخ هود ، وهو نقص من مبدأ معين ، كما ينقص من انتهاء وهذا فى نفسه صحيح ، لكنه لا يلائم الآية لأنها ليست فى أشقياء ثواب مسبوقين بأشقياء أوائل فى الدخول ، بل هى فى مجموع الأشقياء ، اللهم إلا أن يعتبر المسبوق منهم ، فيرد الاستثناء إلى جانبه ، فإن مخالفة البعض كاف فى صحة الاستثناء ، وذلك استثناء عن خلود على قوله مطلقا •

والواضح أن المراد الاستثناء من الخلود فى خصوص العذاب بالنار ، فيكون المعنى إنهم خالدون فى التعذيب بحرارة النار ، إلا ما شاء الله من تعذيبهم فى بعض الأزمنة بالزمهرير ، وأنواع أخرى من العذاب ، كلدوغ الحياة والعقارب لهم فى موضع لا نار فيه ، ويغضب الله عليهم ، وخسئه لهم وأمانته إياهم ، فإن ذلك كله عذاب أيضا •

روى أنهم يدعون مالكا ويجيبهم بعد أربعين خريفا : إنكم ماكثون ، ثم تدعون الله فيجيبهم بعد عمر الدنيا مرتين : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » فما يكون إلا الزفير والشهيق أبدا ، فذلك قوله عز وجل : « لهم فيها زفير » إلى آخره •

ويجوز أن يكون الاستثناء من أصل الحكم وهو الكون فى النار ، والمستثنى لبثهم فى القبور إن كان الحكم مطلقـا غير مقيد باليوم إن قلنا : إن مدة اللبث فى القبور حتى يحشر ليست من ذلك اليوم الأخير» وإن قلنا إنها منه صح التقييد به ؛ والمستثنى زمان كونهم فى الموقف ، فإن مقتضى السياق سابق أن يكونوا فى النار من أول يوم البعث ، فالنقص على الوجهين من المبدأ .

ويجوز أن يكون الاستثناء من قوله : « لهم فيها زفير وشهيق » حيث كانوا يسكتون عنهما فى بعض الأوقات ، أو حيث سبقهم عـدم الزفير والشهيق حتى قيل : « اخشوا » كما مر هذا : فيكون النقص من أول ، وقيل : إلا بمعنى سوى كقولك : عليه ألفان إلا أربعة آلاف قصيمات ، أى سواعن ، فيكون المجموع ستة آلاف ، فالمعنى سوى ما شاء ربك ، من الزيادة على مثل بقاء السموات والأرض فى الدنيا ، وهى زيـادة لا آخر لها ، وهذا قول الفراء ، وهو يقدر الاستثناء المنقطع بسوى ، وسيبويه بلكن ، وقيل : لا بمعنى الواو ، أى وما شاء ربك من الزيادة على تلك المدة ، وهى زيادة لا آخر لها ، أو خالدين فيها ، وفيما شاء ربك كالزمهرير ، وقيل : ذلك استثناء الله ولا يفعله .

وفائدة الإعلام بأنه لا يقع إلا ما شاء كقولك : والله لأضربنك إلا أن يرى غير ذلك وعزمك أن تضربه ، وهو رواية عن الفراء ، وقيل : ذلك هو الاستثناء الذى دب إليه الشرع فى كل كلام مثل : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله » ولا بأس بتلك الأقوال من حيث الاعتقاد ، لكن بعضها أقوى من بعض ، وبعضها ضعيف .

وزعم قومنا أن ذلك استثناء من الخلود فى النار ، لأن من دخلها

من الموحدين خارج منها ، وذلك كاف فى صحة الاستثناء ، لأن زوال الحكم عن البعض تغيير لاحق بالمجموع من حيث التغيير بالبعض ، وإطلاق السعادة عليهم لاعتبار شرفهم لسعادة الإيمان ، ولأن مرجعهم الجنة ، وأما دخولهم النار فعقاب على قدر الذنب ، كما يعاقب الإنسان فى الدنيا بمصيبة ، وبجلد وقطع ونحوهما ، وليسوا أشقياء إلا باعتبار دخولهم النار بمعصيتهم ، واجتماع الشقاوة والسعادة فى شخص باعتبارين جائز ، وإنما يجب كون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه من حيث الجهة الواحدة ، لا بتعدد الجهة ، ذكر ذلك القاضى والسعد ، وزدته بيانا وإيضاحاً .

ونقول معشر الأباضية : إن ذلك باطل ، لأن أصل الاستثناء العود إلى بدليل ، ولا دليل لهم فى كلام مروى عن ابن عباس ، وأحاديث عن جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وعمرو بن حصين ، أن الاستثناء فى عصاة يدخلون النار بذنوبهم ، ثم ينجون بإيمانهم وفضل الله ، يسمون الجهنميين ، فإن ذلك كذب من قومنا على من ذكر من الصحابة على مخالفته كتاب الله عز وجل ، كقوله : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا » الآية ، وليس فيها تقييد بأنه قتله لكونه مؤمنا ، فيكون مشركا وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده » الآية ، وإضافة الحدود للحقيقة لا للاستغراق ، فضلاً عن أن يقال : من تعدى الحدود كلها مشرك .

وقوله : « من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » الآية ، والمراد بإحاطتها غلبتها له بأن لم يمحها بالتوبة ، ولأن عقاب الآخرة بالنار وثوابها بالجنة ليس كعقاب الدنيا وثوابها ، وإنما يعاقب بالنار من غضبت عليه لفعله ما يوجب العقاب ، ومن غضب عليه لا يرضى عنه أبدا ، وإلا لزم بطلان حكمه ، ولزم أن تبدوا له البداوة ، وإنما يثاب من ليس

معه ما يوجب دخول النار ، وعقابا وغضبا عليه ، ولزم على قولهم كون مرضيا عنه مغضوبا عليه ، مثابا فى الآخرة ، معاقبا فيها بالنار ، مع أنه لا يصح ذلك فى الآخرة ، لما مر من أنها ليست كالدنيا فى جواز اجتماع الثواب والعقاب ، وكافرا مؤمنا وموالٍ لله ومعادٍ له بفتح اللام والدال ، ولأنه ولو جاز أن يدخل النار من يخرج منها لجاز أن يدخله الجنة ، من يخرج منها ، ولو جاز أن يدخل النار مؤمن لجاز أن يدخل الجنة كافر ، فكل من دخل النار كافر ما بين كفر نفاق ، أو كفر شرك ، لا يخرج منها •

وزعمت الجهمية أن الجنة والنار تفنيان بما فيهما ليتمحضوا البقاء لله ، فلا يشاركه فيه مخلوق محدث ، فالاستثناء من طول المدة ، وذكر الأبد تأكيدا لطول الخلود ، وهو قول باطل مخالف للأمة ، ونصوص القرآن ، والأحاديث ، وليس بقاؤهم الدائم مستلزما لاشتراك المخلوق مع الخالق فى الصفة ، لأن بقاء الله بالذات من غير مادة ولا احتياج ولاتقدم ، عدم وبقائهم إنما هو بإبقاء الله إياهم ، ومادة منه لهم ، واحتياج منهم ، وإدامة الله سبحانه لهم ، ولأن البقاء المختص بالله البقاء الذى لم يسبق بعدم ، وهو البقاء المستحق بالذات •

وزعم بعض أن جهنم تفنى بعد أحقاب هى ومن فيها ، فلزمه أن المشركين لا يخلدون ، وهذا والعياذ بالله كفر ، وزعموا أن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن مسعود لباتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ، ليس فيها أحد بعد ما يلبثون أحقابا ، وذلك كذب منهما ، فإن صح عنهما فالمراد أوقات كونهم فى الزمهرير ، وحمله قومنا على إمكان العصاة موحدين فيها •

وإن قالت الجهمية مطلقا ، وقومنا فى جـانب الموحد العاصى أن الخلود للمكث الطويل ؟

قلت : اذكر الأبد وما تقدم زادان على الجهمية ، مع أن الأصل فى الخلود الدوام وما تقدم ، وكون الأصل فى الخلود الدوام زادان على قومنا .

(إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لما يُريدُ) لا يعارضه أحد ، ولا يفعل بالقهر .

(وأمَّا الذينَ سعِدُوا) وقرأ الحسن ، وحمزة ، والكسـائى ، وحفص : سعدوا بالبناء للمفعول من سعد المتعـدى (فَفى الجنَّةِ) أى هم فى الجنة ويقدر المتعلق مضارعا ، لأنه مستقبل أى يثبتون فى الجنة ، أو وصفا مستقبلا ، أو فعلا أو وصفا ماضيين ، لأن ذلك واقع لا محالة ، فكأنه واقع ، وكان ذلك اليوم قد وقع ، وكذا يقال فى قوله : « ففى النار » .

(خَالدِينَ) حال مقدرة ، وصـاحبها الضمير فى قولـه : « فى الجنة » وكذا فى قوله : « لهم فيها زفير وشهيق * خـالدين فيها » (فِيها مادَامتِ السَّموَاتُ والأرضُ) مثل ما مر (إلا ما شَاءَ ربُّكَ) من سبق بعض لبعض فى الجنة ، فالنقص من البدء على ما مر ، أو مما يتفضل به عليهم سوى الجنة ، مما يعرف غايته وحقيقته ، إلا الله مما هو أعظم منها كالرضوان ، وزيادة درجات ، أو من مدة اللبث فى القبر إلى دخولها ، أو المحشر إلى دخولها : فبذلك نقص من البدء ، أو سوى ما شاء الله مما هو غـير ذلك زيادة عليه ، أو ما شاء الله مـن الزيادة ، وزيادة فى الوجهين لا آخر لها ، أو خـالدين فيها وفيما شـاه ربك ، أو استثناء لا يفعله الله ، أو استثناء تعليم وتأديب .

وزعم قومنا أن هذا الاستثناء باعتبار البدء منظور فيه إلى من يدخل النار ، ثم يخرج منها ، فإنه لم يخلد كل وقت الخلود بل بعضها ، لكنه بعض دائم ، وفاته وقت كونه فى النار ، وزعمت الجهمية أنه استثناء لكون الجنة وأهلها يفنون كما مر •

(عَطاءً) مفعول مطلق مؤكد لمعنى الجملة قبله ، وهو من المؤكد لغيره لا من المؤكد لنفسه وعامله محذوف ، أى أعطوا عطاء ، ومثله أنت ابنى حقا ، أو حال من الجنة ، أو من ضميرها فى فيها أى معطاة (غَيْرَ مجْذوذٍ) أى مقطوع ، بل هو دائم ، فهذا نص فى أن قوله : « مادامت السموات والأرض » ليس حدا ينتهى إليه •

(فَلا تَكُ) يا محمد بعد ما أنزل إليك من سوء عاقبة أمم الكفر فى (مِريَةٍ) شك (ممَّا يعبُدُ) ما موصول اسمى أو حرف فى (هؤلاء) مشركو العرب فى أنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم ، ممن يعبد الأصنام مثلهم ، أو فى أن عبادة الأصنام تضر ولا تنفع ، فهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووعيد لهم أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم •

(ما يعْبُدونَ إلا كما يعْبُد آباؤهُم مِنْ قَبْلُ) تعليل للنهى ، أى لا تشك فى عبادتهم الأصنام أنهم يعذبون عليها ، أو تضر ولا تنفع أو فى وبال عبادتها ، لأنهم ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم من قبل ، أو لأنهم ما يعبدون شيئا إلا مثل ما يعبد آباؤهم من قبل ، وقد بلغك ما أنزل بآبائهم لتلك العبادة فلا يؤمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بآبائهم ، لأنهم قد عبدوا كعبادتهم ، وما فى هذه أيضا اسم أو حرف •

ويجوز أن تكون هذه إشارة إلى أنه لا مستند لهم فى عبادة الأصنام

إلا تقليد الآباء ، ويعبد حكاية للحال الماضية ، وقيل : على تقدير كان أى كما كان يعبد آباؤهم من قبلهم ، فحذف لدلالة لفظ الآباء ولفظ قبل .

(وإنَّا لموفُّوهُم) اسم فاعل مضاف الأصل موفيهم بكسر الفاء ، نقلت ضمة الياء لثقلها إلى الفاء ، فكانت ساكنة فحذفت للساكن بعدها ، وضمير النصب لمشركى العرب (نَصيبَهُم) من العذاب كما أوفينا آباءهم أنصباءهم ، ويجوز أن يراد عذاب الآخرة ، أو نصيبهم من الرزق ، فيكون عذر التأخر العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه من الكفر ، وعبادة الأصنام ، وعن ابن عباس : نصيبهم ما قدر لهم من خير أو شر ، حكاه الداوردى .

(غَيْرَ مَنْقُوصٍ) منه حال مؤكدة لعاملها ، فإن توفية الشىء الإتيان به غير منقوص ، ويجوز أن تكون مؤسسة باعتبار بأنه يقال ، وفيه شطر حقه وثلثه وحقه إلا قليلا ، وحقه ناقصا ووفيته حقه مع أن الموفى بعضه .

(ولَقَد آتيْنا مُوسَى الكِتابَ) التوراة (فاختُلفَ فيه) أى فى الكتاب ، وهو نائب اختلف ، آمن به قوم وكذب به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن بالتصديق والتكذيب فاصبر ، ويجوز أن ترجع الهاء إلى موسى ، والأول أظهر ، وقيل فى معنى على ، أى على موسى (ولَوْلا كَلمةٌ سَبَقَتْ) صفة ، والخبر محذوف ، وأجيز أن يكون خبرا (مِنْ ربِّكَ) وهى وعده بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة .

(لَقُضِيَ بيْنهمْ) بإنزال ما يتميز به المبطل كالإهلاك ، والعذاب من الحق كالنجاة ، والهاء لكفار العرب ، وقيل : لقوم موسى عليه السلام ،

وهو مشكل ، لأنه قد قضى بينهم بإغراق المبطلين ، إلا إن أراد صاحب هذا القول بالقضاء بينهم القضاء بغير الغرق ، كإدخالهم النار فى الدنيا ، وتعذيبهم فيها على حد التعذيب فى الآخرة ، بتسليط الزبانية ونحو ذلك .

(وإنَّهمْ) أى كفار قومك ، أو قوم موسى (لَفِى شَكٍّ منهُ) من القرآن على الأول ، والكتاب وهو التوراة على الثانى ، واستحسن بعضهم فى ذلك كله التعميم ، على أن الهاء للكتاب ، لأن كفار العرب لم يؤمنوا بالتوراة ، بل شكوا فيها ، سلمنا أنهم آمنوا لكن تكذيبهم بالقرآن تكذيب لها ، يجوز عود هاء منه لربك ، فإن الشك فى كتاب الله ورسوله شك فيه ، أو يقدر لفى شك من دينه أو رسوله ، أو كتابه هذا ، وعودها للكتاب أولى من عودها للقرآن إذ لم يتقدم له ذكر (مُرِيبٍ) موقع فى الريب ، وفيه تقوية لمعنى الشك .

(وإنْ كُلاًّ لمَّا ليُوفينَّهم ربُّكَ أعْمالَهم) إن مخففة من الثقيلة ، وكلا اسمها ، ففى ذلك كما قال ابن هشام رد على الكوفيين فى منعهم إعمال المخففة ، وذلك قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى بكر ، واللام هى الفارقة بين النفى والإثبات ، استصحبت مع عدم اللبس بالعمل ، وهى لام الابتداء الواقعة فى خبر إن ، وما صلة للتأكيد فاصلة بين لامين ، واللام الثانية اللام التى تكون فى جواب القسم ، ومعناها التوكيد .

ويجوز أن تكون اللام الأولى هى المؤذنة بالقسم الموطئة له كالداخلة على إن الشرطية ، والثانى لام جواب القسم ، وما صلة للتأكيد فاصلة لأحدهما عن الأخرى وزعم بعضهم أن يجوز كون الأولى لام جواب القسم ، والثانية لام الموطئة ، وهو ضعيف ، والقسم محذوف يقدر بعد لما على أن لامه لام الفرق ، وقبله على غير ذلك ، والقسم جوابه مقبول

مقول مقدر مخبر به ، أى وإن كل مختلفين المؤمنين والكافرين لقول فنهم : والله ليوفينهم ربك أعمالهم ، من حسن وقبح ، وإيمان وجود ، وقرأ غير الثالثة بتشديد النون على الأصل ، لكن ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم يشددون الميم أيضــا هنا ، وفى « لمّا جميع » فى يونس ، وفى « لما عليها حافظ » فى سورة الطارق ، وخففها الباقون •

ووجه التشديد أن الأصل لمن ما أبدلت النون فى ما وأدغمت فخفف فحذف الميم الأولى المكسورة ، وما واقعة على العقلاء ، أى لمن الذين يقال فيهم : والله ليوفينهم ربك أعمالهم ، واللام الأولى على هــذه هذه القراءة هى لام الابتداء التى تقع فى خبر إن ، والثانية فى جواب القسم ، وقرأ أبى : وإن كل لمــا ، بتخفيف النون والإهمال ، وتشديد الميم على أن إن نافية ، ولما بمعنى إلا ويدل قراءة ابن مسعود ، وإن كل إلا بالتخفيف ، وقرأ الزهرى ، وسليمان بن أرقم ، وان كلا بالتشديد والنصب ، لما بالتشديد والتنوين ، وهو مصدر بمعنى اسم مفعول حال من محذوف ، أى مقول فيهم لما أى مجموعين والله ليوفينهم لا توكيد كما قيل ، إذ لا ضمير فيه ، عائد إليهم كما فى نزلك : كلهم ، ولا هو مجموع كقولك أجمعين •

(إنَّه بما يعْمَلون خَبير) عالم بباطن الأمر كظاهره فيجازيهم تهديد •

(فاستَقم كَما أمِرْتَ) أى كن معتدلا فى الاعتقاد ، لا تشبه الله بخلقه ، ولا تعطله ، وفى الأعمال كالصلاة والصوم ، وتبليغ الوحى ، وبيان الشرع من غير إخلال بواجب ، ومن غير غلو ، قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : « إن الدين يسر ولن يشــاد هذا الدين أحد — أى

نغالبه — إلا غلبه فسددوا — أى اعملوا بالصلاح — وقاربوا » أى وسطا لا غلو ولا إخلال ، أو والوا بين الأعمال فى رفق وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، أى بالعمل أطراف النهار وقتا وقتا ، وشىء من الدلجة ، أى وقليل من العمل فى الليل .

وقال ما معناه إن من دخل الدين بغير رفق كان كمن حمل على دابته ما لا تطيق وعقرت بحملها قبل الوصول فماله ظهر دابته سالما ولا وصول حيث قصده .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ، ولهذا قال : « شيبتنى هود وأخواتها » وفى رواية : « الواقعة ، والمرسلات ، وعم ، وإذا الشمس كورت » وقال عياض : المشهور أن ذلك لما فيهن من ذكر ما حل بالأمم انتهى .

قلت : يمكن الجمع بأن ما يشيبه من هود هذه الآية ، ومن تلك السور ذكر ما حل بهم ، ثم رأيت ما يؤيده ، وهو أن بعضا ممن يعتد برؤياه ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت له : روى عنك أنك قلت : « لقد شيبتنى هود » فقال : « نعم » فقال : ما الذى شيبك منها ؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : « لا ولكن قوله : فاستقم كما أمرت » .

وفى رواية رآه بعض العلماء فى النوم فقال : يا رسول الله بلغنى عنك أنك قلت : « شيبتنى هود وأخواتها » فما الذى شيبك من هود ؟

فقال : « قوله عز وجل : فاستقم كما أمرت » وقال له أصحابه : لقد أسرع فيك الشيب ؟ فقال « شيبتنى هود » .

وإن قلت : فهل ينافى ذلك تفسير الاستقامة بالدوام عليها ؟

قلت : لا ينافيها ، لأنه اشتد خوفه بتلك السور وهو مستقيم ، لكنه خاف أن يزل ، وخاف لعله كان غير مستقيم بأن قصر مثلا تقصيرا ما ، وقال جعفر الصادق : المعنى افتقر إلى الله بصحة العزم ، والأولى أن يقال افزع بدل افتقر ، ولو كان الافتقار أيضا خلوا وفراغا .

(ومَنْ تَابَ) من الشرك ، والعطف على المستتر فى استقم للفصل بـ « كما أمرت » وهم أيضا مستقيمون ، فأمرهم بالاستقامة أمر بالدوام عليها ، وإن راعينا خللا فى جانبهم ، من حيث إنهم غير معصومين ، أو راعينا من لم يستقم ، فالأمر بالاستقامة فى جانبهم أمر بالدخول فيها على الأصل ، فيكون استقم مستعملا فى معناه المجازى وفى معناه الحقيقى ، وقد أجاز غير واحد ذلك ، وعلى المعنى يعتبر الحال الذى استقبل بعد نزول الآية فى جانب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه حال غير موجودة فلا يلزم من الأمر بالاستقامة فيها تحصيل الحاصل ، وكذا فى جانبهم إن فرضنا استقامتهم ، واعتبرناها حال النزول ، أو يقدر على المنع أمر آخر لكنه باللام ، والمضارع لائق بحالهم ، أى وليستقم من تاب .

(مَعَكَ) متعلق بتاب ، أو حال من المستتر فى تاب ، ولا يلزم من تعليقه فيه أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشرك وتاب من الشرك ، حاشاه عن ذلك ، لأنه يجوز أن تقول قمت مع زيد ، تريد أنك قمت بحضرته ولو لم يقم هو .

واعلم يا أخى رحمك الله أنى استقريت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الأباضية ، ومذهب المالكية ، ومذهب الشافعية ، ومذهب الحنفية ، ومذهب الحنبلية ، بالمنقول والمفعول ، ولم أر مستقيما منها فى علم التوحيد والصفات ، سوى مذهبنا ، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل ، حججه لا تقاومها حجة ، ولا تثبت لها ، والحمد لله وحده .

(ولاَ تَطْغَوا) لا تجاوزوا المأمور به إلى المنهى عنه ، ففى ذلك تأكيد لقوله : « استقم كما امرت ومن تاب معك » (إنَّه) تعليل مستأنف (بما تعمَلُون بَصير") فيجازيكم به ، ومن انحرف عن النص بنحو قياس ، استحسان فقد طغى وخرج عن الاستقامة ، وحام حول النهى ، ونبذ الأمر ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ، ولا تروغ منه روغان الثعلب ، وما لم يرد فيه النص فالواجب على غير المجتهد أن يتبع فيه المجتهد ، وإن استقل برأيه فسق ، قاله أبو يعقوب يوسف بن خلفون رحمه الله .

(ولا تَرْكنُوا) لا تميلوا بقلوبكم محبة ، وقرىء بضم الكاف ، وقرىء تركنوا بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم فى كسر حرف المضارعة غير الياء فيما كان من باب علم يعلم ، وهو رواية عن أبى عمرو وقرأ ابن أبى عبلة بالبناء للمفعول من أركنه إذا أماله ، أى احذروا أن يميلكم أحد أو أمر .

(إلَى الَّذينَ ظَلَمُوا) ظلم شرك أو نفاق ، وقيل : ظلم شرك ، ويدخل النفاق بالحمد والمعنى ، وقال ابن العالية : الركون إليهم الرضا بأعمالهم ، وقال السدى ، وابن زيد : مداهنتهم ، وقال عكرمة : طاعتهم .

والتحقيق أن النهى متناول للانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم ، وزيـارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيى بزيهم ، ومد العين إلى زهرتهم ، وذكرهم بمـا فيه تعظيم لهم ، وتأمل كيف عظم أمر الركون إذ قال : « ولا تركنوا » فإن أدنى ميل يسمى ركونا ، وإذ قال : « إلى الـذين ظلموا » فعبر بالفعل ولم يقل الظالمين ليدل على أدنى ظلم صدر من الإنسان ولو مرة واحدة ، ولو عبر بالظالمين لتبادر الرسوخ فى الظلم ، فإذا كان الركون إلى من وجد منه أدنى ظلم ولو مرة حراما ، فكيف الركون إلى الراسخ فى الظلم ؟ وكيف الميل إليه كل الميل ؟ فكيف الظلم الراسخ نفسه .

صلى الموفق خلف إمام فقرأ هذه الآية فغشى عليه ، ثم أفاق فقيل له ، فقال : هذا فى من ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم ، وعن الحسن : جعل الله الدين بين لاءين : لا تطغوا ، ولا تركنوا ، ولا يبعد أن الآية أبلغ نهى فى الظلم إذ حرم أدنى ميل إلى أدنى ظلم ، وأوجب عليه النار إذ قال :

(فتمسكم) تصيبكم وقرأ أبو عمرو فى رواية بكسر التاء (النار) والنهى عنه تثبيت على الاستقامة ، قال ابن مسعود رضى الله عنـه : إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه ، فيخرج ولا دين له ، لأنه يرضيه بسخط الله . قال بعضهم : ما دخلت أبداً على السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج ، فأرى عليها الدرك ، وأنا أغلظ عليه وأخالف هواه ، ولوددت أنى أنجو من الدخول كفافا ، مع أنى لا آخذ منهم شيئا ، ولا أشرب لهم شربة مـاء .

وأول من خالط السلاطين من العلماء الزهرى ، وكتب إليه أخ له

فى الدين : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك الله أن يرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا ، وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك من كتابه ، وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء ، قال الله سبحانه وتعالى لنبيه : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

لو أعلم أن أيسر ما ارتكبت ، وأخف ما احتملت ، أنك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغنى بذنوبك ممن لم يؤد حقا ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم ، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلما يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يدخلون الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » .

فإنك تعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداو دينك فقد دخله سقم ، وهيىء زادك فقد حضر السفر البعيد ، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ، والسلام . انتهى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى مالم يخالطوا السلاطين ، فإذا خالطوهم فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم » وعن عبادة بن الصامت : حب القراء الناسك للأمراء نفاق ، وحبه للأغنياء رياء ، وعن الأوزاعى : ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » وعن مكحول : مـن تعلم القرآن وتفقه فى الدين ، ثم صحب لسلطان تملقا إليه وطمعا لما فى يده ، خاض فى جهنم بعدد خطاه •

قال بعض : ما أسمج بالعـالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجـد ، فيسأل عنه فيقال : إنه عند الأمير ، وعن محمد بن سلمة : الذباب على العذرة أحسن من قراء على باب هؤلاء ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضـه » •

وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية : هل يسـقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، فقيل له : يموت ؟ فقال : دعه يمت ، وذكر بعضهم : أن الراكن يهلك قبل المركون إليه ، ووجهه أنه إذا أراد باطلا فسوغه له وأعانه فقد كفر بذلك ، بخلاف المركون إليـه فإنه لا يكفر بالإرادة ، بل بالفعل فلا يكفر حتى يفعل ، أو معنى القبلية أن ذنب الراكن أعظم إذا كان سببا لذنب المركون إليه وعمدة له •

(وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أولياءَ) أنصار يمنعونكم من النار ، والجملة حال من كاف تمسكم (ثمَّ لا تُنْصَرونَ) أى لا ينصركم الله إذ قضى بتعذيبكم ، والعطف على الحال ، وثم لبعد النصر ، شبه امتناعه بشىء بعيد لا يتوصل إليه ، وأجاز بعضهم أن تكون ثم للسببية والترتيب باتصال ، لأنه يتولد من كونهم لا يقدر على نصرهم إلا الله ، وهو قضى بعدم نصرهم أنهم لا ينصرون أصلا •

ذكر بعض أن أبا اليسر كعب بن عمرو بن غزية الأنصارى قال :

أتتنى امرأة تبتاع منى تمرا بدرهم فاعجبتنى ، فقلت : إن فى البيت تمرا أطيب من هذا ، فدخلت معى البيت ، فقبلتها وضممتها إلى نفسى ، فقالت لى : اتق الله فتركتها وندمت ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتب ، ولا تخبر أحدا ، فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال كذلك سواء ، فلم أصبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : « أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا ؟ وأطرف عنى وظننت أنى من أهل النار ، وأن الله لا يغفر لى أبدا ، وتمنيت أن لو أسلمت حينئذ ، فنزل بعد الإطراق الطويل .

(وأقِمِ الصَّلاةَ) إلى قوله : « للذاكرين » .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم [صلى] العصر فنزلت ، قال : فأتيته فقرأها علىّ ، وروى أن عمر ، وقيل : معاذ بن جبل [قال :] ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » وقيل : فاعل ذلك رجل اسمه عباد ، وقيل : [إن] فاعل ذلك قال : يا رسول الله ألى هذه الآية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « لأمتى كافة » .

وروى عن معاذ بن جبل : أنه أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قاعد عنده فقال : يا رسول الله أريت رجلا لقى امرأة ليس بينهما معرفة ، فأتى منها كل ما يأتى الرجل امرأته إلا الجماع ، فنزلت وأمره أن يتوضأ وضوءاً حسنا ، ويصلى ركعتين ، فقال معاذ : يا رسول الله أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ قال : « بل للمؤمنين عامة » .

وفى رواية أن فاعل ذلك أتى عمر أولا فقال له : استر على نفسك ، فقلق فجاء أبا بكر فقال له كذلك ، فقلق فأتى رسول الله صلى الله عليه

وسلم فصلى معه ثم أخبره وقال : اقض فىّ ما شئت ، فقال : « لعلها زوجة غاز فى سبيل الله ؟ » قال : نعم : فوبخه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « ما أدرى » فنزلت فدعاه فتلاها عليه .

وفى رواية ابن عباس : أنه أتى عمر فقال : ان امرأة جاءتنى تبايعنى فأدخلتها فأصبت منها كل شىء إلا الجماع ، فقال : ويحك ، بعلها مغيب فى سبيل الله ؟ قال : أجل ، قال : أتيتَ أبا بكر ؟ فأتاه وقال له مثل عمر وقال : أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأتاه فقال له مثلهما ، ولما قال : بعلها مغيب فى سبيل الله ؟ سكت فنزلت ، فقال الرجل : ألى خاصة يا رسول الله أم للناس عامة ؟ فضرب به عمر فى صدره فقال : لا ولانعمت عين ، ولكن للناس عامة ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صدق عمر » وانظر كيف اعتبر عمر عموم اللفظ لا خصوص السبب كما هو مذهبنا فى مثل ذلك ، وقيل : نزلت الآية قبل فعله الرجل واستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

(طَرَفَىِ النَّهارِ) طرف ظرف زمان لإضافته لاسم الزمان ، والطرفان الغدوة والعشية ، وصلاتهما الفجر وهو فى الطرف الأول ، والظهر والعصر وهما فى الطرف الثانى ، لأن ما بعد الزوال عشى .

(وزُلَفاً) جمع زلفة كغرفة وغرف ، وقرأ أبو جعفر بضم الراء واللام كبسرة وبسر بضمتين ، ويقال : بسر بالإسكان وقرأ بإسكان اللام كبسر بالإسكان ، والمراد ساعات متقاربة بعضها إلى بعض ، أو متقاربة إلى النهار ، وقرأ زلفى كقربى ، وبمعنى زلفة كقربة وهو مصدر مؤنث بالألف .

(مِنَ اللَّيْلِ) وصلاة زلف من الليل المغرب والعشاء ، لتقارب ساعاتهما بعضهما إلى بعض ، أو قربهما من النهار ، وذلك هو الذى ظهر لى فى تفسير الآية ، وبه قال مجاهد ، وفى الحديث ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى المغرب والعشاء : « إنهما زلفتا الليل » واستحسنه عياض ، وقال الحسن ، وقتادة : طرف الأول الصبح ، والثانى العصر ، والزلف المغرب والعشاء ، واختاره الفخر .

وقال ابن عباس وغيره : طرف الأول الصبح ، والثانى المغرب ، والزلف العشاء ، وفى هذين القولين ضعف لعدم عمومهما الصلوات ولأن المغرب ليس من النهار ، واختار الطبرى قول ابن عباس ، وقال مقاتل : الطرف الأول الصبح والظهر ، والطرف الثانى العصر والمغرب ، والزلف العشاء ، وفيه ما مر فى قول ابن عباس أن المغرب ليس من النهار ، إلا أن يقال فيهما : إنه طرف لتلوه للنهار .

(إِنَّ الحَسَنَاتِ) الفرائض والنوافل من الصلاة والصدقة ، والصوم والاستغفار وغير ذلك (يُذْهِبْنَ) يكفرن ويمحون (السَّيِّئَاتِ) الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، وثبت فى الحديث : « الصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفارات لما بين ذلك لمن اجتنب الكبائر » وفى رواية : « إذا اجتنب الكبائر » وفى رواية : « ما لم تغش الكبائر » وفى الحديث : « إن الصلوات الخمس كنهر جار عم على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، أيبقى من درنه ، أى وسخه ، شىء ؟ قالوا : لا » وكنى به عن الصغائر .

وذكر أبو عثمان النهدى ، أنه كان مع سلمان الفارسى تحت شجرة ،

فأخذ غصنا منها فهزه حتى تساقط ورقه : انى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة : فأخذ غصنا منها فهزه حتى تساقط ورقه ، ثم قال : « إن الرجل المسلم إذا توضأ ثم صلى صلاة الخمس ، تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتت هذا الورق » ثم تلى هذه الآية على سبيل التمثيل ، وذلك هو الذى ظهر عندى •

وقال الجمهور من الصحابة والتابعين : المراد فى الآية الصلوات الخمس ، وبه قال عثمان ، ومالك ، وابن المسيب ، ومجاهد فى رواية عنه ، والضحاك ، ونسب لابن مسعود ، وابن عباس ، والقرطبى ، وقال مجاهد فى رواية : هن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وعن عياض أن هذا وقول الجمهور تمثيل •

(ذَلكَ) إشارة إلى قوله : « استقم » وما بعده ، وقال الطبرى : ما ذكر فى السورة من الأوامر والنواهى والقصص ، وقيل : القرآن ، وقيل : الصلوات المشار إليها بالحسنات ، فإن الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الإخبار بالحسنات يذهبن السيئات •

(ذِكْرى للذَّاكرينَ) وعظ وتنبيه لمن سبق العلم أنه يتذكر ، وخص لأنه المنتفع ، أو وعظ وتنبيه متأثر فيمن رأيتموه قد اتعظ وتنبه ، يعنى أن تذكره من ذلك •

(واصْبِرْ) يا محمد على الصلاة والتبليغ وغيرهما من الطاعات ، وعلى أذى المشركين ، وعن المعاصى ، والصبر ملاك الأمر ، ولا ينتفع بإيمانه وعلمه من لا يصبر (فإن اللهَ) الفاء للتعليل (لا يُضيعُ أجْرَ المحسِنينَ) وهذا على العموم ، وعن ابن عباس : المحسنون المصلون ، ويجوز أن يكون الأصل لا يضيع أجرك ، وعدل منه إلى المحسنين ،

استدلالا على أن الإحسان موجب للثواب وإيذانا ، بأن الصلاة والصبر ونحوهما إحسان وإشـارة إلى أنهما لا يكويان معتـد بهما حتى يكونا بإحسان وهو الإخلاص ، وكذا نحوهما من الطاعات .

(فلَوْلا) أى هـذا وهى للتوبيخ التنديم ، ويجوز أن تكـون للتحضيض تنزيلا للماضين منزلة الحـاضرين ، وأن تكـون للتحضيض باعتبار المخاطبين ، ولو كان اللفظ متوجها للماضين (كانَ مِنَ القُرُونِ) الأمم .

(مِنْ قَبْلِكُم) كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، حال من القرون (أولُوا بقيَّةٍ) أى أصحاب دين وفضل وعقل ورأى ، وسمى الخـير بقية لأنه يستبقى الإنسان ما هو أفضل ما يخرجه وأجوده ، يقال : فلان بقية القوم ، أى خيارهم ، وقيل : المعنى بقية من خير ، وقيل : إن الشرائع والدول قوتها فى أولها ، ثم لا تزال تضعف ممن ثبت فى وقت الضعف ، فهو بقية الصدر الأول ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى البقوى ، كالتقية بمعنى التقوى ، أى أصحاب بقاء على أنفسهم ، أى ترحم لها وصيانة من العذاب ، ويؤيده أنه قرىء أولوا بقية بفتح الباء وإسـكان القاف ، وهى المرة من البقاء كضربة وجلسة ، وهى المراقبـة أى أولوا مراقبة وخشية من انتقام الله ، يقال : بقاه يبقيه بقية إذا راقبه .

(ينْهونَ عَنِ الفَسادِ) الكفر والمعاصى والظلم فى الأرض ، والمراد انتفاء ذلك منهم ، وفى الآية تنبيه على تغيير المنكر وحض إليه (إلاَّ قليلاً) استثناء منقطع لكن قليل (ممَّنْ) بيان للتقليل لا تبعيض (أنجيْنا منْهُم) من العذاب الاستئصال ، قد نهوا عن الفساد ، ومن هذه للتبعيض ، ويجوز أن تكون للابتداء على حذف مضاف ، أى مـن

عذابهم ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا باعتبار النفى اللازم من التحضيض أو التنديم ، فإن التحضيض والتنديم إنما يكونان على ما لم يكن ، كأنه قيل : ما كان من القرون أولوا بقية إلا قليلا ، والقليل هم أتباع الأنبياء فى زمانهم بدليل : « ممن أنجينا منهم » .

(واتَّبعَ الَّذينَ ظَلَمُوا) بالفساد أو ترك النهى (ما أُتْرِفُوا فيهِ) أى ما نعموا فيه من اللذات والشهوات ، واهتموا بتحصيل أسباب ذلك ، وأعرضوا عما وراء ذلك من أمر الدين والنهى ، والعطف على محذوف ، أى لم ينهوا واتبع الذين ظلموا ، وقرأ أبو عمرو فى رواية الجعفى : وأتبع بضم الهمزة وتخفيف التاء وكسر الباء ، أى أتبعهم الله جزاء ما أترفوا فيه ، فتكون الواو للحال ، ويجوز على قراءة الجمهور بوصل الهمزة وتشديد التاء وفتح الباء ، أن تكون الواو للحال ، والذين مفعول ، وما فاعل ، أى وقد تبعهم جزاء ما أترفوا فيه ، ويقويه تقدم إنجاء الناهين ، لأن تقدمه يناسب أن يبين هلاك من لم ينه .

(وكانُوا مجْرِمينَ) كافرين عطف على المحذوف المعطوف عليه ، اتبع الذين أو على اتبع الذين ، أو معترض بين به سبب الإهلاك ، وهو كثرة الظلم واتباع الشهوات ، وترك النهى عن المنكرات والكفر ، فإن النهى والأمر ركنان من أركان الدين .

(وما كانَ ربُّكَ ليُهلكَ القُرى بظُلْمٍ) منه لهم وجور عليها ، والمراد أهلها حال من المستتر فى يهلك (وأهْلُها مُصْلِحونَ) حال مؤكدة ، والإصلاح لإيمان وتوابعه ، ويجوز أن يراد بالظلم الشرك ، وبالإصلاح الإنصاف فيما بينهم فى معاملتهم ومعاشرتهم ، أى لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا لا يتظالمون ، وذلك لشدة سعة رحمته ، ويهلكهم للآخرة ،

ولذلك ترانا نقدم حقوق الخلق كالديون ، على حقوق الله ، والملك يبقى مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم .

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) جماعة متفقة على الإسلام والصواب ، والآية دليل على أن الله سبحانه لم يرد الإيمان من كل أحد إلا وقد آمن بعض وكفر بعض ، كان مغلوبا عما أراد وعاجزا حاشاه عن أن يكون كذلك ، وإنما يقال أمر كل أحد بالإيمان ، ورغبه ، ولم يجبر عليه ، ووكل كلا إلى اختياره ليأتى الثواب والعقاب ، والمراد بالجعل القضاء ، وقيل : الجبر ، والصحيح الأول ، أى ولو شاء ربك لقضى عليهم أن يتفقوا على الإسلام ، ولكن يشأ فاختار بعضهم الإيمان ، وبعضهم الكفر كما قال .

(ولا يزالون مختلفين) دينا كيهود ، ونصارى ، ومجوس ، ووثنى ، ومسلم ، كل أهل دين مختلفون أيضا ، والآية تشتمل ذلك كله ، افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين ، وهذه الأمة ، على ثلاث وسبعين كلها هالكة إلا فرقة ، وهى من وافقت القرآن وسنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل يدعيها ، والحق لا يخفى على ذى بصيرة ، وفى رواية سادة غير مقبولة كلها ناجية إلا واحدة كما ذكره الإمام أبو يعقوب ، يوسف بن إبراهيم .

(إلا من رحم ربك) وفقهم للدين الحق ، فلم يختلفوا فيه (ولذلك خلقهم) اللام للعاقبة والمآل ، لا للتعليل ، والإشارة إلى الاختلاف كما قال الحسن وعطاء ، أو إليه وإلى الرحمة ، والهاء للناس ، ويجوز أن تكون الهاء لمن ، فالإشارة إلى المذكور من الرحمة كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

ويجوز عود الإشارة إلى الاختيار الذى كان عنه الاختلاف ، فإن الكلام يتضمنه ويترتب علـى اختيارهم الثواب والعقـاب ، ويجوز أن تكون اللام للتعليل ، أى خلقهم لثمرة ذلك وهو الثواب والعقاب ، وبه قال أشهب عن مالك .

(وتمت كلمة ربك) وعيده أو قضاؤه ، أو قوله للملائكة ولى (لأملأن جهنم مـن الجنة والناس) بعصاتهم ، فحذفه ، ومـن للابتداء ، ويجوز أن تكون بمعنى الباء على حذف مضاف ، أى بعصاة الجنة والناس ، فلا يقدر قولى بعصاتهم بعد ذلك ، وذلك لعلمه بكثرة من يختار الباطل ، ويجوز جعلها للابتداء على تقدير مضاف ، أى من عصاة الجنة والناس ، لجواز أن يقال : ملئت يدى من الكيس ، ولو نفذ فيها ما فى الكيس (أجمعين) توكيد للعصاة المقدر ، أو للجنة والناس ، أى الأمن عصاة الجنة فقط ، أو الناس فقط ، والقسم المقدر وجوابه محكى بالكلمة ، لأنها بمعنى القول أو بدل منها لإرادة اللفظ .

(وكلا) أى كل نبى ، أو كل ما يحتـاج إليه مفعول لقولـه : (نقص عليك من أنباء) أخبار الرسل ، بيان لكلا أو تبعيض (ما) بدل من كلا أو عطف بيان (نثبت به فؤادك) قلبك فى أداء الرسالة ، والصبر على الأذى ، والزيادة فى الطاعة ، أو كلا مفعـول مطلق ، أى نقص عليك كل قص ، والمراد كل نوع من أنواع الاقتصاص ، على طرق مختلفة ، وما مفعول لنقص ، وذلك أنه إن أعلم أن الأمم مع رسلهم مثل أمته منه ، بل أكثر فى الأذى صبر واطمئنان .

(وجاءك فى هذه) قال مجاهد : فى هذه السورة ، ونسب لابن عباس ، والجمهور ، وهو أقرب ، وجاء الحق فى غيرها أيضا ، وخصت

بالذكر تشريفا ، ولأنها الخاطرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين النزول ، وقيل فى هذه الآية ، وقال الحسن : فى هذه الدنيا ، قيل : وهو بعيد ، لأنه لم يتقدم لها ذكر • قلت : الدنيا حاضرة مجازة للمشارة عليها ، وإن لم تذكر ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الأنباء ، أو إلى كل لوقوعه جمل أنباء •

(الحقُّ ومَوْعظة وذِكْرَى للمؤمنينْ) إشارة إلى الفؤاد الزائدة على التثبيت ، وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون •

(وقُلْ للَّذِينَ لا يؤْمِنُونَ) إيعـــادا لهم (اعْملُوا علَى مكانَتِكُمْ) على قدر إمكانكم أو قوتكم أو حـــالكم أو جهتكم (إنَّا عَامِلُون) على مكانتنا (وانتَظِرُوا) بنا الدوائر أو انتظروا عاقبة أمركم (إنَّا منْتظِرُونَ) ما ينزل بكم ، وعن الحسن : ينزل عــذاب الاستئصال بأواخر الأمة الدائنين بدين أبى جهل والكفار ، كأنهم جملة واحدة (ولله) لا لغيره (غَيبُ السَّموات والأرْضِ) أى علم ما فيهما من غيب (وإليْه) لا إلى غيره (يرْجعُ) بالبناء المفعول عند نافع ، وحفص ، وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الجيم ، أى فى الدنيا والآخرة ، أو المراد هنا فى الآخرة للجزاء (الأمرُ) أمــرك وأمرهم وأمر غيرهم (كلُّه) وذلك تعظم وتفرد بما لاحظ المخلوق فيه (فاعبدْه) أطعه أو وحِّده ، وقدم العبادة على التوكل لأنه لا ينفع الا بها (وتوكَّل علَيْه) ثق به فإنه كافيك •

(وما ربك بغافل عما تعملون) أنت وهم فيجازى كلا على عمله ، وهو بتاء الخطاب هنا وفى آخر النمل عند نافع ، وابن عامر ، وحفص ، وقرأ الباقون بالمثناة التحتية .

قال كعب : خاتمة التوراة خاتمة سورة « هود » والله أعلم .

وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبهذا تم تفسير

[سورة هود]

ولله الحمد والمنة

مطابع سجل العرب